مناوشات بريئة

دَنْدَنَاتٌ ثَوْرِيَّة

الطّاهر اعمارة الأدغم

دَنْدَنَاتٌ ثَوْرِيَّة

الطّاهر اعمارة الأدغم

REVOLUTIONARY HUMS

Tahir Amara Ladghem

الشّعوبُ تحرّكت وانتفضت...

هل فشلت..؟ هل كان النّجاحُ جزئيًا..؟ هل تأخّرت الثّمار..؟

هذا ما دَنْدَنْتُ حولَه في مقالات هذا الكتاب..

.....

المهمُّ أنّها عرّت الاستبدادَ ونُخَبَه، وعرّت الغربَ الرّسميَّ الذّي فضّلَ التّنكّرَ لقِيَمه الدّيمقراطيّة، ومن ثمّ انحازَ إلى فريقِ الاستبدادِ فهو الكفيلُ بتحقيق مصالِحه التّي تَرْشَحُ أنانيّةً ونفعيّةً مقزّزة..!!!

التّعاملُ مع فردٍ مستبدٍّ أكثرُ نفعًا من حكوماتٍ منتخبةٍ خَلْفَها شعوبٌ تطالبُ بكشف حسابٍ عند كلّ موعدٍ انتخابيّ.. هكذا يفكّرُ سَدَنَةُ أوروبا وأمريكا.

صَوْتُ الأحرار

يومية وطنية اخبارية

Sawt AL-AHRAR

www.sawt-alahrar.net sawtalahrar@gmail.com

سامي للطباعة والنشر والتوزيع

تصميم

مناوشات بريئة

دندنات ثورية

الطّاهر اعمارة الأدغم

مناوشات بريئة

دَنْدَنَاتٌ ثَوْرِيَّةٌ

الطّاهر اعمارة الأدغم

عنوان الكتاب:

دندنات ثورية

الطّاهر اعمارة الأدغم

ردمك:
ISBN:978-9931-798-60-6

الإيداع القانوني:
أوت 2021

الطّبعة الأولى

تصميم الغلاف
كمال خزان

الطباعة

للطباعة والنشر والتوزيع
سامي
جميع الحقوق محفوظة ©
2021
032 14 93 39
الوادي. الجزائر
imprimerierimel39@gmail.com

الموضوع الرّئيسيّ: سياسيّ
عدد الصّفحات: 162 صفحة
قياس الصّفحة: 14.5 سم * 20.5 سم
محرّم 1443 هـ / أوت، أغسطس 2021 م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روح الشّهيد محمّد البُوعْزِيزِيّ، رحمه الله تعالى من واسع رحمته..
مهما قالوا... فأنتَ الشّرارةُ الأولى التّي أشعلت النّارَ تحت أقدام عُتَاة الفساد والاستبداد..

إلى أرواح شهداء الرّبيع العربيّ..
مهما قالوا... فأنتم الذّين قدّمتم أرواحكم على مذابح الحريّة، والكرامة، والعدالة...
ربّما تأخّرت الثّمارُ بعض الوقت، لكنّها قادمةٌ لا محالة..

إلى الشّباب العربيّ الذّي ملأ السّاحات والميادين...
مهما قالوا.... ستُنصِفُ الأيّامُ شعاراتِكم.. ستُنصِفُ صيحاتِكم.. ستُنصِفُ تضحياتِكم.... ستُنصِفُ أحلامَكم.. ستُنصِفُ أفكارَكم..

كلمةٌ لا بدّ منها

ظهرت هذه الدّنْدَنَاتُ على صفحات جريدة (صوت الأحرار)... والجريدةُ هي الصّوتُ غير المعلن صراحةً لحزب جبهة التّحرير الوطنيّ الحاكم في الجزائر، أو الأكثر تأثيرا في دواليب الحكم منذ الاستقلال عن الاحتلال الفرنسيّ عام 1962.

(صوتُ الأحرار) صوتٌ غير معلن للجبهة، لأنّ الجريدةَ لا تُعَرّف نفسَها مع عنوانها في الصّفحة الأولى على أنّها (لسانُ حال...)، لكنّ هذا الأمرَ معروفٌ بين جمهور الصّحفيّين والسّياسيّين والمتابعين.

ومع هذا الموقع الحسّاس للجريدة، فإنّ صدورَ مسؤوليها قد اتّسعت لهذه المقالات، وغيرها من مقالات الزّملاء الكُتّاب الذّين اشتركوا في تحرير صفحة (اتّجاهات) على مدى أكثر من ستّ سنوات من الظّهور الأسبوعيّ المنتظم... في تلك الصّفحة تواترت (خَرْبَشَاتِي)، وكان عنوانُ مقالي الثّابت (مناوشات بريئة).

فالشّكرُ، كلّ الشّكر، للسيّد محمّد نذير بِلّقرون، الصّحفيّ والمدير، وإلى طاقم جريدة (صوت الأحرار)، هذا العنوان المقتبَس من النّضال الإعلاميّ خلال سنوات الحركة الوطنيّة والإصلاحية التّي سبقت ثورة نوفمبر المجيدة 1954.

مقدّمة

إنّها دَنْدَنَةٌ.. إنّها نَغَـم

دَنْدَنَ الرّجلُ: إذا اختلف في مكانٍ واحدٍ مجيئًا وذهابًا... هذا أحدُ معاني الدّنْدَنَة كما ورد في معجم (لسان العرب) للعلاّمة ابن منظور الأفريقيّ المصريّ.

والحقيقةُ أنّ لهذه الكلمة معانٍ أخرى، لكنّني اخترتُها عنوانًا لهذا الكتاب لأجل المعنى هذا بالتّحديد: أي الحركة في مكان واحد...!! وهذا هو بيت القصيد في اختيار العنوان، **دَنْدَنَات..**

فالدّنْدَنَةُ هنا أقرب إلى تكرار الكلام والمعاني، والصّرخات، والدّعوات، والآمال العريضة في محيط هذا العالم العربيّ الذّي نعيش على أراضيه المترامية الأطراف.

هذا العالمُ الذّي شهد مطلع العِقد الثّاني من الألفيّة الميلاديّة الثّالثة حَراكًا، أو ثوراتٍ أو انتفاضاتٍ كان مظهرها الأبرز وصوتها الأعلى: المطالبة بالحقوق الطّبيعيّة للإنسان العربيّ الذّي يعيش مثل غيره أجواء وتجلّيات القرن الواحد والعشرين؛ إذ يسمعُ ويشاهدُ بوضوح تامّ ما يجري حوله في العَوَالِم القريبة والبعيدة.

وعلى رأس هذه الحقوق: الحقّ في حكم راشد وما يعنيه من شفافيّةٍ وتداولٍ سلميّ على السّلطة.. وبقيّة المسلّمات السّياسيّة لدى الشّعوب التّي خلّفتْ وراءها مرحلةَ الحاكم المتسلّط على رقاب العباد وثروات البلاد.

نعم.. نكرّرُ المعاني والأفكار، لأنّ أكوام الغفلة والاستبداد والفساد تحتاج إلى دَنْدَنَةٍ مستمرّةٍ حول الموضوع من قريب ومن بعيد.. مستمرّةٌ بالعبارة والإشارة، بالمباشر وغير المباشر، بالجدّ والهزل.. وحتّى السّخرية الهادفة، والطّرفة المعبّرة على حدّ سواء.

.....

وأيضا:

في هذا الجوّ الملبّد بغبار الفساد والاستبداد، وأيامهما ولياليهما الطّويلة الحالكة السّواد، يحتاج الكاتبُ أو المتحدّثُ إلى الاستنجاد بالمعنى الأمّ، أو المعنى الأكثر شهرة للدّنْدَنة:

وعودةٌ ضروريةٌ إلى (لسان العرب) حيث نضع أيدينا على المعنى الأبرز:

الدّنْدَنَةُ: أن تسمعَ من الرّجل نَغْمَةً ولا تفهم ما يقول، وقِيل: الدّنْدَنَةُ الكلامُ الخفيّ.

نعم.. الدّنْدَنَةُ أيضا الكلامُ المنغّمُ غير المفهوم.

نعم.. كلامُنا عن الحريّات والحقوق قد يبدو غير مفهوم، خاصّة عند سَدَنة الاستبداد وأعوانه الذّين أَلِفُوا أنغامًا بعينها، تُكِيلُ قصائدَ المديح للحاكم بلا حساب ولا ملل...!!

إنّها دَنْدَنَةٌ..

إنّه نَغَمٌ غير مفهوم عندهم، فهو أقرب إلى الرّموز والأحَاجِي والألغاز المستعصية..!!

إنّها دَنْدَنَةٌ.. لأنّ الكلام المُرَمّز أبلغُ من التّصريح أحيانا.. فلا يفهمه غير أهله في الغالب..!!

وأهلُه في هذا المقام هم الذّين تشرّبوا الشّجاعة الفكريّة وصاحوا بملء حناجرهم: كَفَانَا من هذا النّسق الفرعونيّ الذّي عَهِدْنَاه عقودًا طويلة في عالمنا العربيّ، الذّي إذا مات فيه فرعون خَلَفَه فرعون آخر...!!!

وإذا تناولنا الدّندنة في المعنى العرفيّ السّائد، فهي تكرارُ إيقاعٍ موسيقيّ تطربُ إليه الأُذُنُ، وتحنُّ إليه النّفسُ، وتتطلّعُ إليه الرّوح.

وهذا ما تَحَقَّق من خلال الإيقاع الموحّد للانتفاضات الشّعبية العربية؛ فهي تُكَرّرُ ما يُطْرِبُ آذان المقهورين والمسحوقين، والمهمّشين اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا ووجوديا...

.....

كان هناك شعور خاصّ، وربّما عامّ، بأنّ الأمّة تَعْبُرُ إلى مرحلة جديدة لكنّ الثّورات المضادّة فعلت فعلتها بعد تحالف جهات عدّة داخليّة وخارجيّة..

وزاد الطّينَ بِلَّة غفلةُ نسبة معتبرة من الشّعوب عن حقّها في الحكم الرّاشد والديمقراطيّة وركونها إلى الأمان المؤقّت: رغيفُ خبزٍ ممزوجٌ بكثير، وقليل في أحسن الأحوال، من الذلّ والحرمان من الحريّة التّي منحها لنا الله، والكرامة التّي أوجبها لنا الدّين...!!

والسّؤال بعد هذه السّنوات التّي تلت أوّل شرارة لثورات أو انتفاضات الرّبيع العربيّ: هل ستغيّر الثّوراتُ المضادّةُ من حقيقة الأمر شيئا...؟؟

هل سيعودون بنا إلى عصور ماضية..؟؟ مستحيل.. فقد ولّى ذلك الزّمن.

بل هناك من يرى أنّ فشل الثّورات أمرٌ طبيعيّ جدّا في وسط العداء الشّديد الذّي واجهته من القوى الدّولية، ولوبيات الاستبداد المحلّي والنّخب المستفيدة، وقسم من الشّعوب التّي تفضّل لقمةَ عيشٍ مغموسة في الذلّ بدل التّغيير الذّي يعني لها المغامرة والمغامرة فقط..!!

.....

في اليوم الثّاني للنّدوة الفكرية (العرب وإيران: مراجعةٌ في التّاريخ والسّياسة) بالدّوحة القطرية المنعقدة في 19-20 ديسمبر، كانون الثّاني 2010... جَمَعَنا على طاولة العشاء لقاءٌ مع المفكّر والسّياسيّ التّونسيّ راشد الغنّوشيّ، وكان قادمًا من لندن حيث يقيم هناك مُطَارَدًا من نظام الرّئيس زين العابدين بن علي.

كانت بعض الاحتجاجات قد بدأت في الجنوب التّونسيّ، ودار الحديث عن التّغيير، فقال الأستاذ الغنّوشي: لن يُسمح لنا في الدّول العربية بتغييرٍ جدّيٍّ إلاّ بعد عشر إلى خمس عشرة سنة، لأنّ أيّ نهضة وديمقراطية عندنا تعني التّأثير أو التّهديد المباشر لدولة الكيان الصّهيوني.. وواصل: قد يسمحون لماليزيا وأندونيسيا وغيرهما من الدّول الإسلامية.. أمّا نحن فالأمر مختلف...!!

وقامت الثّوراتُ، أو الانتفاضات على رأي البعض، فسقط زعماء كنّا نظنّ أنّهم مُعَمّرون على كراسيّ الحكم إلى آخر حياتهم: هرب زين العابدين بن علي، وخُلِع محمد حسني مبارك، وقُتِل معمّر القذّافيّ، وانسحب علي عبد الله صالح من الواجهة...

تذكّرتُ الأستاذ راشد الغنّوشي، فقلت في نفسي: إما أنّ الرّجلَ متشائم، أو لم يكن بين يديه ما يكفي من المعلومات والتّحليلات الوافية عن الوضع القائم في الدّول العربية..؟؟

ولمّا قامت الثّورات المضادّة بكلّ تجلّياتها، وأسفرت عن وجوهها العنيفة ومشتقّاتها، تذكّرتُ الغنّوشي ورأيه سالف الذّكر، وأدركتُ أنّه كان على حقّ؛ فهو السّياسيّ المخضرم الذّي خبر السّياسة في وسط عربيّ، ثمّ عاشها وعايشها في بلاد الغرب.

فشلُ الثّورات أو الانتفاضات لم يكن مفاجأة للبعض، فالعارفون بحركة التّاريخ أدركوا أنّ مجرّد قيام الثّورات العربية كان نقطةَ انعطافٍ كبيرةٍ في المسيرة.

كانت بداية يقظة..

كانت إرهاصات ميلاد..

كانت تجربة ثريّة..

كانت تجربةً مصبوغةً بالدمّ... ولا أصدّقُ أنّ مخلصًا لوطنه أراد ذلك أو فرح به.. لكن لا أحد من العقلاء أو أنصاف العقلاء يعتقد أنّ الذّين أكلوا الأخضر واليابس، وحوّلوا دُوَلاً إلى مزارع خاصّة، سوف يقابلون دعواتِ التّغيير والإصلاح بالورود...؟؟؟!!!

.....

عودةٌ إلى قيام ثورات أو انتفاضات الرّبيع العربيّ:

المعجزةُ أنّ الثّورات خرجت من العدم إلى الحياة.. العدمُ ظاهريا، فهناك تراكماتٌ إيجابيةٌ وجهودٌ ظلت تُبْذَلُ من هنا وهناك رغم سطوة الاستبداد والفساد..

ظهرت الثّوراتُ، ومن ثَمّ سيرسمُ التّاريخُ للعرب صورا من العزّ والفخار، لأنّهم اقتلعوا (ديناصورات) بدرجة تماثيل..

.....

أقلامٌ نظيفة أنصفت الشّعوبَ، وقدّرت شعورها بكيانها، وأعادت لها قيمة ذاتها الغائبة، واعترفت لها بحقّها في اختيار من يحكمها...

بينما راحت أقلامٌ تسبح في المستنقعات، خاصّة بعد علوّ صوت الثّورات المضادّة، وتكيلُ التّهمَ جزافًا لثورات وانتفاضات الشّعوب، وتكاد لا ترى فيها سوى مؤامرات خارجيّة...!!

وكأنّ في إمكان ذلك (الخارج) المزعوم تحريك كلّ صغيرة وكبيرة في بلداننا بمساحاتها العصيّة عن الحصر، حيث يستطيع هذا الخارج (كما زعموا) أن يوجّه دبيبَ نملةٍ سوداء على صخرةٍ صمّاء في ليلةٍ ظلماء..!!!

نعم يا سادة... هناك مؤامراتٌ، بل مخطّطاتٌ أصبحت تحت عين الشّمس.. لكنَّ الأَوْلى أن نتحدّثَ عن أولئك الذّين داسوا على كرامة الشّعوب، وعاثوا في البلاد فسادًا.. فلمّا طفح الكيلُ تحرّكت الشّعوبُ وهاجت وماجت وطالبت بآدميّتها وإنسانيّتها.

وهل نَلُوم القوى الدّولية الكبرى، أو حتّى الإقليميّة إذا استغلّت هذه الأوضاع لصالحها..؟؟

الأَوْلَى بالإدانة هم أولئك الذّين أتقنوا صناعة الجهل المقنّن، والفتن المقصودة، والفُرقة الممنهجة، والجهويّة المريضة، والعصبيّة المجنونة، والقبليّة النّتنة، فحكموا البلاد بمطرقة الاستبداد، العلنيّ منه أو المقنّع الذّي يستتر ببعض أشكال الدّيمقراطيّة وحقوق الإنسان الذّي أهدروا إنسانيته وكرامته، دون إبداء أيّ رغبة في الوصول إلى إنجازات حقيقيّة تلمسها الشّعوب..!!!

عجبًا لمن يدينُ الشّعوبَ ويغفلُ عن حكّامٍ صنعوا الفشل بامتياز..!!

لا... آسف جدا... لم يفشلوا لأنّهم لم يمتلكوا من الأساس مشروعًا، أو هدفًا حتّى نحكم عليهم بالفشل...!!

إنّ الفشل مع الصّدق وبذل المجهود شكلٌ من أشكال النّجاح.

أمّا هؤلاء فقد نجحوا في إشباع بطونهم ورغباتهم الآثمة.. ونجحوا في التّعبير عن عُقَدِهم النّفسيّة وطموحاتهم الخسيسة...!!!

ما دَنْدَنْتُ حوله:

الشّعوبُ تحرّكت وانتفضت... هل فشلت..؟؟ هل كان النّجاحُ جزئيًا..؟؟ هل تأخّرت الثّمار..؟؟

المهمُّ أنّها عرّت الاستبدادَ ونُخَبَه، وعرّت الغربَ الرّسميَّ الذّي فضّلَ التّنكّرَ لقِيَمه الدّيمقراطيّة، ومن ثمّ انحازَ إلى فريقِ الاستبدادِ فهو الكفيلُ بتحقيق مصالِحه التّي تَرْشَحُ أنانيّةً ونفعيّةً مقزّزة..!!!

التّعاملُ مع فردٍ مستبدٍّ أكثرُ نفعًا من حكوماتٍ منتخبةٍ وراءها شعوبٌ تطالبُ بكشف حسابٍ عند كلّ موعدٍ انتخابيّ.. هكذا يفكّرُ سَاسَةُ أوروبا وأمريكا.

وما يجب التّركيزُ عليه، والدّندنةُ حوله دائما، أنّ الجهدَ الإنسانيَّ لا يمكن أن يكون فشلاً ما دام في إطار حركة التّاريخ، لأنّ هذه الحركة ليست عبثًا، وكلُّ من وضع فيها لَبِنَةً صار مساهمًا في بناء الصّرح الإنسانيّ المشترك منذ بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرضَ من عليها.

.....

وأخيرا..

جاء توزيع المقالات على المحاور وفق الفكرة الغالبة على المقال الصّحفيّ، أو التّي انطلق منها، كما أنّ إفراد الثّورة السّوريّة بمحور خاصّ بها جاء تبعا لعدد المقالات التّي كُتِبت عنها، حيث كانت الأكثر مقارنة بالثّورات الأخرى؛ فالأحداث في سوريا الذّبيحة هي الأطول زمنًا، والأكثر تشعّبًا وعرضةً للتدخّلات الإقليميّة والدّوليّة السّافرة والمقنّعة على حدّ سواء.

أما التّرتيبُ داخل فضاء كلّ محور فقد احتكم إلى تاريخ نشر المقال.

وجبت الإشارة أيضا إلى أنّ الكتابةَ الصّحفيةَ تظلُّ في الغالب وليدةَ ظروفٍ وأخبارٍ واهتماماتٍ تمرّ بالكاتب أو يمرّ بها، فهي ليست بحثًا علميًا مقسّمًا على فصول ومباحث ومطالب ومسائل.

إنّ المقالَ الصّحفيّ أو مقال الرأي هو مساحةٌ حرّةٌ للكاتب، تتقلّبُ أحيانا مع ظروفه وأحوال الجريدة ومساراتها ومواقفها، لكنّه صورةٌ عنه بشكل أو بآخر، إذْ فيه متغيّراتٌ كثيرةٌ، وفي عمقه ثابتٌ ثباتَ الفكرةِ والقيمةِ التّي يؤمنُ بها الكاتبُ ويدافعُ عنها بقلمه.

والفكرة والقيمة هنا: حقُّ الشّعوب في الحرّية، والكرامة، والعدالة، والاختيار الحرّ لحكّامها.

الطّاهر بن اعمارة الأدغم

الاثنين 22 فيفري 2021 م / 10 رجب 1442 هـ

بَلْدَة كْوِينِين، ولاية وادي سُوف، الجزائر

المحور الأوّل

الثّورة التّونسيّة المجيدة، 17 ديسمبر
ثورة 25 يناير، مصر / ثورة 17 فبراير، ليبيا

في هذا المحور أحاديثٌ وشجونٌ متفرّقةٌ عن ثورات، انتفاضات، الشّمال الأفريقيّ الثّلاث: تونس ومصر وليبيا.

التّشابهُ في المقدّمات والتّراكمات واضحٌ للغاية؛ فالرّئيسُ التّونسيُّ زين العابدين بن علي حَكَمَ ثلاثاً وعشرين سنة متواصلة، والرّئيسُ محمّد حسني مبارك جلس على الكرسيّ ثلاثين سنة، بينما تَسَمّرَ العقيدُ معمّر القذّافيّ في أعلى هرم الحكم أكثر من أربعين سنة...!!!

فعلاً... إنّها مأساةٌ بكلّ ما تحمله الكلمةُ من معنى..!!!

أَلَمْ يفكّر هؤلاء يومًا في الاعتزال، في الاستقالة.. وحتّى في التّوريث المبكّر لأحد أفراد الأسرة أو الحاشية...؟؟؟

آه.. لقد فكّروا في التّوريث، في حالة مصر وليبيا على وجه التّحديد.. فكان الوقتُ متأخرًا، حين طَفَحَ الكَيْلُ، واتّسع الخرقُ على الرّاقع.

ومن الطُّرَف المصريّة المعبّرة في هذا السّياق أنّ الرّئيس مبارك اجتمع بشيخ الأزهر وبابا الكنيسة القِبْطِيّة وكشفَ لهما عن عزمه توريث الحكم لابنه جمال.. فردّ البابا بحدّة: اللّهم صلّي وسلّم على سيدنا محمّد.. فقال مبارك للبابا: لقد خرجتَ عن دينك.. فكان ردّ البابا: كلامُك يخرج الواحد من دينه.

وفي ليبيا بدأ سيفُ الإسلام بن معمّر القذّافي الظّهورَ بشكل واضح في بداية السّنوات العشر الأخيرة من حكم والده، أو زعامته كما كان يدّعي.. وظهر ما عُرِف بـ (مشروع ليبيا الغد)، لكنّ الطّبقةَ المستفيدةَ، أو حرّاس القلعة القديمة، أحبطوا المشروع.. وعندما جدّ الجدُّ انحاز سيفُ الإسلام إلى جانب والده، وكان في وسعه لَعِبَ دور الوسيط، وربّما جنّب حينها البلادَ الكثيرَ من الويلات والمصائب والتّدخّلات الأجنبيّة، أو خفّف من حجم المأساة على الأقلّ.

لقد شبعت الشّعوبُ الثّلاثةُ (التّونسيون، المصريّون، اللّيبيّون) من الشّعارات الزّائفة والوعود المؤَجَّلَة سنوات طويلة.. وعندما (بلغت القلوبُ الحناجرَ) ظنّ البعضُ خيرا بالحكّام وحواشيهم، وقالوا لعلّها الفرصة الأخيرة للتّوبة والتّكفير عن الخطايا التّي دفعت ثمنَها الشّعوب.. والمأمول أن يسلّم هؤلاء مقاليدَ الحكم ويطلبوا العفوَ والصّفحَ، وبالتّالي: فواتير أقلّ على طريق التّغيير الذّي تتطلّع إليه الشّعوبُ والنّخبُ على حدّ سواء.

لكنّ ذلك الرّهطَ أصرّ على شرب الكأس الآثمة حتّى الثّمالة...

العودة إلى الأحضان الدّافئة

ضاق الأمرُ وأحاطت الأزمة بالحكومة إحاطة السّوار بالمعصم، ولم يعد هناك بدّ من نفض الكنانة عن آخرها وإخراج ما بقي من سهام مخبّأة لأشدّ الأيام بأسا... وخرجت السّهام وانطلقت نحو أهدافها لكنّها لم تصب مقتلا، فقد بدأ قطار الأحداث يتّجه نحو محطّات لم يتوقّعها أحد قبل شهر فقط، سواء من هذا الطّرف، الذّي يرى في تلك التّطوّرات بشائر خير، أو الطّرف الآخر، الذّي يرى فيها نُذُر شؤم وخراب.

عصفت الأحداثُ بتونس الخضراء، ولجأ الرّئيسُ هناك إلى أسلوب التّهويل بعد أيّام من التّهوين: كان الأمر في البداية مجرّد عمليّات تضخيم تقودها وسائل إعلام خارجيّة..!!

وهو كلام غير مستساغ لأنّ فكرة تحريك قناة فضائيّة لشعب كامل بين عشيّة وضحاها هي تهمة تعود على صاحبها قبل غيره، والمسؤول عن ذلك، إذا قبلنا هذا التّصوّر، هو تلك الجهات النّافذة التّي أهملت الشّعب وأقامت دونه أسوارا وجدرانا.

إنّ قنوات العالم كلّه لن تؤثّر في مسار شعب محصّن ولن تتمكّن من تحريك شعرة واحدة في رأس أبسط فرد فيه، فهو ليس غبيًا إلى درجة تصديق أخبار (قناة مغرضة) وهو يرى الخيرَ والحريّةَ والعدالةَ والدّيمقراطيّةَ بين يديه، ينام ويستيقظ عليها..!!

صارت الاحتجاجات حقيقة لا طاقة لأحد بإنكارها فلجأ الرّجل إلى مصطلح الإرهاب، وكأنّه يقول إنّ جميع من رأيناهم في التّلفاز إرهابيّون ظلاميّون من حَمَلَة السّيوف والخناجر..!!

ولم يغيّر ذلك من واقع الحال شيئا لأنّ ذلك المصطلح فَقَدَ بريقه مع رحيل الرّئيس جورج بوش الابن عن البيت الأبيض.

لم ينفع التّصعيدُ فعادت لهجة اللّين، وكانت الأوامرُ بإخلاء سبيل المعتقلين والبحث عن آفاق سياسيّة عبر ندوة ولو بعد حين، وآفاق اقتصاديّة ولو عبر رقم فضفاض للوظائف الموعودة.

ولأنّ ذلك لا يكفي وحده، فيجب الإطاحة بعدد من الرّؤوس وتحميلها جميع الأخطاء والآثام، عملا بنصيحة نيقولو ميكيافيلي في كتابه (الأمير) حيث ينصحُ الحاكمَ بالتّضحية بأصحاب (المهمّات القذرة) بعد استنفاذ أدوارهم، وبروز الحاجة إلى ولاء الشّعب من جديد.

الدّولُ الغربيّةُ التّي تغنّت طوال السّنوات الماضيّة بالتّجربة التّنموية في تونس لزمت الصّمت تقريبا، وأكثر من ذلك راحت تنتقدُ الأسلوبَ العنيفَ الذّي تعاملت به قوّات الأمن مع المتظاهرين.

وهي إشارة كافية ووافية إلى أنّ تلك القوى قد لا تتدخّل بشكل حاسم لدعم الوضع السّياسيّ القائم، على شكله الحاليّ على الأقلّ.

هناك من يتحدّث عن مؤامرة أمريكيّة لدفع تونس نحو الخضوع أكثر للولايات المتّحدة والقبول بمقرّ القيادة الأمريكيّة في أفريقيا، ويصل الحديث إلى أحداث الجزائر ووصفها بـ (قرصة الأُذُن) للجار الأكبر والأقوى كي لا يتدخّل، خاصّة أنّه المتضرّر الأوّل من المخطّطات الأمريكيّة في الشّمال والعمق الأفريقيّ..؟

لكنّ ذلك التّحليل يظلّ أسير نظريّة المؤامرة من جهة، ومُوغِلاً في خطيئة التّقليل من دور الشّعوب في صناعة التّغيير من جهة أخرى.

الحقيقةُ الأُولى التّي يجدر التّذكير بها أنّ الشّعوب قد تنام لفترات طويلة نسبيًا، لكنّها تستيقظ مع أوّل شرارة فتنتقل (عدوى اليقظة) وتسري كالنّار في الهشيم، ويومها يصعب التّحكم في بقيّة المشاهد، لأنّ كتابة المقدّمات يسيرة في الغالب، لكنّ تدوين الخاتمة والنّتائج يظلّ محفوفا بالمخاطر، خاصّة مع حجم التّراكمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة والعشائريّة والدّينيّة.

والحقيقةُ الثّانية أنّ العقلاءَ، مهما كان نوع القوّة التّي بين أيديهم، لا يجافون أبدا شعوبهم ليعتصموا في أبراجهم الاقتصاديّة والسّياسيّة ويستمدّوا حبل الأمان من الخارج.

ومهما كانت الحقائق التّي قد تنكشف لاحقا، مع ويكيليكس أو غيره، فإنّ أمن جيراننا من صلب أمننا، وكلّنا أمل أن نرى تونس وقد عادت إليها صفتها (الخضراء) وانقشعت سحب الدّخان وزالت آثار الحرائق.

نتمنّى من رؤوس الأمر هناك أن يطووا صفحة الماضي ويتسلّحوا بالشّجاعة ويتعاونوا مع جيرانهم الحريصين على مصلحة المنطقة، ويفوّتوا الفرصة على القوى العالميّة، لأنّ الأزمة إذا طالت وفّرت الوقت الكافي لإدارتها من بعيد.

إنّ الشّجاعة الحقيقيّة لن تكون عبر الرّصاص، فإطلاقه على المتظاهرين هو الجبن بعينه.. إنّها في الاعتراف بالخطأ، والعودة إلى الشّعب وأحضانه الدّافئة عن إيمان راسخ أنّ الوطن هو المواطن أوّلا وأخيرا، وعدا ذلك لا يعدو مجرّد أرقام وصور وبيانات وقصائد ونصوص مشحونة بالمحسّنات

البديعيّة.. فبدون المواطن لا وجود للوطن على الإطلاق، ودون كرامة المواطن لن تكون للوطن كرامة، ولو تغنّت بها الحكومات قرونًا طوالا.

إنّ التّجربة الجزائريّة الأخيرة مع الأحداث كانت ناضجة إلى حدّ كبير، حيث لا تعامل بالعنف إلاّ في حدوده الدّنيا، رغم حجم الاستفزاز والتّخريب الذّي بدر عن الغوغائيّين ومحترفي الشّغب.

لقد ارتفعت الأسعارُ فجأة بفعل جهات تقدّس الثّراء دون وازع، فلمّا انكشف الأمرُ عاد الفاعلون إلى الشّعب وأقرّوا ما يراعي مصلحته، أو بعضها على الأقلّ.. ومع أنّ القضيّة مؤجّلة بشكل أو آخر إلى الرّبع الأخير من السّنة الجاريّة، فإنّ الأملَ معقودٌ على وصول العقلاء إلى حلّ حاسم وحازم لقضيّة الأسعار.

لقد تحدّث الأمين العام لحزب جبهة التّحرير الوطنيّ، مؤخّرا، بشكل صريح عن (البارونات) وضرورة تحرير الاستيراد، وهو مؤشّر على أنّ (السّيل قد بلغ الزُّبَى) بالنّسبة لأبناء الوطن والحريصين على مصلحته، وأنّ مرحلة الخروج على الدّولة قد بدأت تتراجع، فلم يعد مقبولا أن تسيطر مجموعة محدودة على الشّارع الجزائريّ ومزاج المواطنين عبر رفع الأسعار تارة وتعطيل استيراد أو إنتاج هذه المّادة أو تلك، وغير ذلك من الأساليب الخسيسة التّي باتت مكشوفة للجميع.

إنّ من حقّ الشّعب على الحكومة، والبرلمان والقضاء والأحزاب الفاعلة، أن تحميه من الاستفزاز المعيشيّ الذّي يُخرج الشّبابَ إلى الطّرقات والشّوارع، فيصبح أمن البلاد بين يدي مجهول وسيادتها نهبًا للمتربّصين من وراء البحار.

2011-01-15

الفهم ثمّ الفهم قبل فوات الأوان

فَهِمْتُكُم.. فَهِمْتُكُم... نعم لقد فهم الرّئيس التّونسيّ السّابق زين العابدين بن علي شعبَه الغاضب، وتَرْجَمَ ذلك الفهمَ إلى عدد من الإجراءات الآنيّة الحاسمة ومنها حريّة الإعلام الذّي تجسّد على القناة الرّسميّة بشكل سريع عندما استضافت عددا من السّياسيّين المعارضين، وفتحت خطوطَ الهاتف أمام المواطنين ليتحدّثوا بكامل حرّيتهم التّي افتقدوها سنين طويلة.

فهْمُ الرّئيس المتأّخرُ جدّا ظَهَر أيضا من خلال أوامر بخفض أسعار المواد الأساسيّة، وإطلاق سراح جميع السّياسيّين، والتّعهّد بالعمل على إرساء ديمقراطيّة وتعدّديّة حقيقيّة، كما شمل ذلك الفهمُ فَرَمَانَاتٍ صريحةً حاسمةً بوقف إطلاق النّار على المواطنين، وجاءت بعبارة عاميّة حرص (سِيَادَتُه) على أن تصل إلى أعماق الشّعب: (أوقفوا الكَرْطُوش).

ربّما تبادر إلى أذهان البعض، أو أنا على الأقلّ، أنّ ذلك (الفهم) سيوقف الاحتجاجات ويعطي فرصةً جديدةً للرّئيس كي يجسّد فهمَه المتأخّر على أرض الواقع، ويستدرك ما فاته خلال ثلاثٍ وعشرين سنة كاملة من الحكم، وأكثر من خمسين عاما في خدمة بلاده على حدّ تعبيره في ذلك الخطاب الأخير.

حاول البعضُ، من الذّين أدمنوا الأكل على طاولة الزّعيم، تلميعَ الصّورة الرّئاسيّة من جديد وتقديمَ الرّجل في صورة الإنسان الطّيّب المُغَرّر به من طرف حاشية وبطانة فاسدة، وأنّه لم يكن على علم تامّ بما يجري حوله، وأنّ التّقارير (الحقيقيّة) التّي تُوضع على مكتبه يوميًا، أو هكذا يُفترض، لم تكن تحمل شيئا من الحقيقة أو ما يشبهها من قريب أو بعيد..!!

أعترفُ، وخلال حديث تلفزيونيّ لأحد هؤلاء، اجتهد صاحبُه أن يكون مؤثّرا في تصوير إنسانية الرّئيس، أنّني أحسست لمدّة دقيقة واحدة تقريبا ببعض التّعاطف مع الرّئيس المغضوب عليه، ثمّ استيقظتُ بعد أن عاد العقلُ من جديد ليكون سيّد الموقف.. فمع مثل هذه النّماذج ينبغي الحرصُ على أن تكون الصّورةُ واضحةً ومتكاملةً من جميع جوانبها، لأنّ حقائق التّاريخ القديم والحديث علّمتنا، بما فيه الكفاية، أنّ مثل تصرّفات زين العابدين بن علي لا تقبل الشّك في أنّ وراءها

سياسات وقرارات منتقاة بدقّة وعناية وسوء نيّة.. فأكثر من عشرين سنة على رأس السّلطة كافية جدا لكشف المستور، والوقوف على التّفاصيل وإدراك المطالب الحقيقيّة للشّعب بكلّ فئاته وفعاليّاته السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة.

لقد خطب (الرّئيس) زين العابدين بن علي بلهجة هادئة وقريبة من العاميّة ليدغدغ عواطفَ الشّعب التّونسيّ، وظهر وزيرُ إعلامه بعد ساعة على قناة الجزيرة، التّي كان يكيل لها التّهم قبل أسبوع فقط..!!

ظهر محاولاً قلب الطّاولة ليقول إنّ تونس قاطبةً تخرج الآن رغم حظر التّجوال ترحيبًا بخطاب الرّئيس وقراراته التّاريخيّة..!!

نعم.. لقد انقلبت الآية وصار الرّجلُ بطلاً بعد أن كان شعارُ المتظاهرين الأبرز هو رحيله ومَنْ معه..!!

الغريبُ في خطاب (الرّئيس) ابن علي أنّه أدان نفسه أمام الملأ، وربّما أضاف مقادير جديدة من الفهم لأفراد شعبه بعد الكمّية الأولى التّي دفعت بهم إلى الشّوارع وأذهبت عن قلوبهم الخوف..!!

فعندما قال (الزّين) إنّه يعلنُ من الآن حريّة الإعلام ويفتحُ البابُ على مصراعيه، اعترفَ بأنّه كان يمارسُ جريمةَ تكميم الأفواه بكلّ متطلّباتها وآلياتها ومتابعاتها.

وعندما قال إنّ الحاشيةَ غرّرت به، أعلن أنّه لم يكن في مستوى اختيار مستشاريه ومساعديه، وأنّه لم يبذل الجهدَ والوقتَ الكافي للتّقرّب من الشّعب أو سماع صوت المعارضين أو المحايدين على الأقلّ، لأنّه انشغل بسماع المديح وقصائد الولاء له والبراء من أيّ معارضة مهما بدت صغيرة الحجم أو سطحيّة الفكر.

وعندما أَمَرَ بتخفيض أسعار المواد الغذائيّة الأساسيّة للمواطنين، أعلن أنّ إشعال النّارَ فيها كان بإشارة منه.

وعندما تحدّثَ عن عزمه ترسيخ الدّيمقراطيّة والتّعدّدية قال بملء فِيه إنّه كان يمارس الدّكتاتوريّةَ عن قناعة راسخة، وليس عن جهل بأساليب الحكم أو مراعاة لمعطيات وظروف مرحليّة.

الاعترافُ الأخطرُ في خطاب (الزّين) كان في أوامر وقف إطلاق الرّصاص على المواطنين، لأنّه فَضَحَ نفسه، وصرّح بأنّ تلك الأوامر صدرت منه هو شخصيًّا.

هذا الموقفُ يذكّرنا برئيس عربيّ آخر تابع العالمُ كلّه جهوده ومساعيه غير الحميدة لدعم أهداف تلك الحرب الظّالمة على قطاع غزّة المُحَاصَر، وعندما استنفذت إسرائيلُ جهودها وفشلت في الوصول إلى ما تريد، وصار استمرار الحرب عبئًا عليها وعلى واشنطن؛ ظهر ذلك الرّئيسُ على الشّاشات وخطب خطبته العصماء، ودعا إلى إيقاف الحرب فورًا، وكان له ما أراد حيث توقّفت الحرب بعد يوم أو يومين..؟!!

هل كانت تونس في حاجةٍ إلى كلّ تلك الدّماء والخراب والخوف لكي يفهم الرّئيسُ شعبَه وينحاز إليه، بدل الرّكون إلى طبقة طفيليّة تريد أن تأكل اليابسَ قبل الأخضر وتترك الأرضَ (قاعًا صفصفًا) حين تغادر البلادَ ومعها أموال الشّعب وثرواته..؟؟

إنّ الشّعوبَ العربيّةَ لم تهجر بعد، في تقديري، حبّ الزّعامات الصّادقة والهتاف لها، ولن تقاطع بسهولة ما تعوّدت عليه من معلّقات ومطوّلات وحماسة وما شابهها من خطب وبيانات وشعارات، كما أنّ هذه الشعوب لا زالت على عهدها بالطِّيبَة والعواطف الجيّاشة.

لكن مهلا... فالمواطن العربيّ قد تعلّم الكثير من العالم المعاصر ووسائل الاتّصال الحديثة والجوانب الإيجابيّة في ظاهرة العولمة، وهكذا امتلك القدرةَ على التّمييز بين الغثّ والسّمين في رُكَام الأقوال والبيانات والقرارات والتّبريرات، وقوائم الحكومات والأحزاب والجمعيّات وغيرها.

فالفهمُ ثمّ الفهمُ ثمّ الفهم.. والبداية بالحكومات والنّخب السّياسيّة التّي تدور في فلكها، ثمّ المعارضة بجميع أشكالها وألوانها، وبعدها الأطياف الثّقافيّة والدّينيّة والعرقيّة.. ونتائج ذلك الفهم الشّامل المرتقب ستكون حتمًا في صالح دولة المُواطَنَة والحكم الرّاشد والتّعايش السّلميّ وقبول الآخر مهما كان هذا الآخر.

2011-01-22

أمّ الجرائم

مجموعةٌ كانت قبل أشهر معدودة في أعلى هرم السّلطة الفعليّة للبلاد رغم أنّ بعضها لم يحمل يوما من الألقاب الرّسميّة شيئا يذكر.. إنّهم أكثر من عشرين فردا مثلوا أمام القضاء التّونسيّ في خطوة أولى لامتصاص غضب الشّارع ودفعه نحو الاطمئنان إلى أنّ أهداف الحَراك الشّعبيّ المناهض للفساد والاستبداد قد بدأت تؤتي ثمارها الحقيقيّة.. أيْ نحو عهد القطيعة مع الماضي البائس ورموزه البائدة.

على رأس المجموعة، التّي تتكّون من ثلاثة وعشرين شخصا، رئيسُ جهاز أمن الرّئيس التّونسيّ المخلوع زين العابدين بن علي، ذلك الرّجلُ الذّي يُدعى علي السّرياتي، والمقرّب من زوجة الرّئيس الثّانية ليلى الطّرابلسي ذات النّفوذ الواسع، أو المحرّك الرّئيسيّ لدواليب السّلطة كما يصفها البعض.

التّهمةُ الموجّهةُ لتلك المجموعة، المقرّبة من الرّئيس المخلوع وزوجته، كانت محاولة الفرار من البلاد في شهر جانفي، يناير الماضي، وحيازة أموال بشكل غير قانونيّ والسّعي لإخراجها من البلاد، وتزوير جوازات سفر لهذا الغرض.

تُهَمٌ لا شكّ أنّ رجال النّيابة العامّة قد رأوا فيها ما يُدين هؤلاء الأشخاص، ومن ثمّ الزجّ بهم وراء القضبان ليكونوا عبرة لغيرهم بعد أن عاشت تونس، ودول عربية أخرى، عقودا من الزّمن كانت العدالة فيها شبه عمياء وخرساء أمام الأقوياء وأصحاب النّفوذ الذّين أهلكوا الحرث والنّسل، وأكلوا الأخضر واليابس بعد أن سَرَت فيهم فكرةُ (الحُلُول)، فاعتقدوا أنّهم الدّولة، وأنّ الدّولة قد تجسّدت من خلال صورهم وأسمائهم، ولا يمكن أن تتجسّد مستقبلا إلاّ في أولادهم وأحفادهم..!!

إنّ الجرائم الحقيقيّة لتلك المجموعة، وما شابهها من المجموعات، أكبر من التّزوير وتهريب الأموال وحيازة السّلاح، حيث يتعدّى الأمر كلّ ذلك إلى (أمّ الجرائم) وهي خطف بلد بكامله، واستنزاف خيراته ومقدّراته، وتوقيف عجلة النّموّ فيه سواء على الصّعيد الاقتصاديّ أو الثّقافيّ أو

الاجتماعيّ، وقبل ذلك وبعده تزوير إرادة شعبه لسنوات طويلة، ومصادرة حقّه في التّعبير عن نفسه وتطلّعاته.

إنّ أمّ جرائم تلك المجموعة، ومن على شاكلتها، هي وَأْدُ ثقافة الدّولة بشكل شبه كامل، لأنّ الدّولة هي: "مجموعة من الأفراد يقيمون بصفة دائمة في إقليم معيّن وتسيطر عليهم هيئة حاكمة ذات سيادة"، وللدولة ستّة أركان هي: السّكان والإقليم، والحكومة، والسّيادة، والاستقلال، والاعتراف الدّوليّ.. والحكومة التّي تمثل المحرّك الرّئيس للدّولة هي: "مختلف السّلطات أو الهيئات الحاكمة من تشريعيّة وتنفيذيّة وقضائيّة".

وما حدث في تونس وغيرها هو استئثار مجموعة محدّدة من الأفراد بكلّ شيء، فهم الحكماء والعلماء والخبراء، والقادة الذّين يعرفون مصلحة البلاد، ويدركون وحدهم ما ينفعها وما يضرّها، وهم المؤسّسات، وهم رموز السّيادة والاستقلال، وهم الادّعاء والقاضي وحتّى المحامي إذا اقتضى الأمر، بل إنّهم السّكان أيضا..!!

وإذا حاول أحدٌ الخروجَ على (جنونهم) جنّدوا له جميع الوسائل الأمنيّة والإعلاميّة والسّياسيّة، وحتّى الدينيّة، وجعلوا منه شيطانًا رجيمًا يجب على أفراد الشّعب رَجْمَه، وصبّ مختلف أنواع وأشكال اللّعنات عليه صباحًا ومساءً..!!

إنّ محاكمةَ رموز الفساد والظّلم مشروعة، بل مطلوبة، لأنّ لكلّ مظلوم الحقّ في مشاهدة الذّين احتقروا العدالة وهم أذلاّء أمامها، وجميع المخلصين لأوطانهم يسعدون وهم يتابعون القصاص العادل من أولئك الذّين أجرموا في حقّ الوطن والمواطن.

لكنّ الأملَ، كلّ الأمل، في هذه المرحلة العصيبة التّي تمرّ بها بعض الدّول العربيّة، أن نَتَسَامى طموحات وآمال الشّعوب العربيّة، وتدرك خطورة هذا (النّفق) وأهميّته في صناعة المستقبل الواعد، وهكذا تتّجه نحو أولويّة أخرى وهي بناء الدّولة الحقيقيّة وتأسيس نظام سياسيّ اجتماعيّ يقوم على قيم عالية ومبادئ راسخة تضمن استمرار الجودة، وتمنع بالتّالي أيّ تقهقر إلى الوراء قد يفتح الطّريق أمام عصابات جديدة، ولو حملت مسمّيات وشعارات تقطر عسلاً وتسيل لبنًا وسمنًا.

ما أحوجنا إلى السّعي نحو أحدث ما وصل إليه غيرنا من الدّيمقراطيات الغربيّة، عندما استقرّت لديهم صورة الحكم وباتت قواعد اللّعبة واضحة، وصار الفرقُ جليّا بين الدّولة والحكومة.

فالدّولة الأمريكيّة مثلا شيء مقدّس لدى الجميع، وخدمتها والدّفاع عن مصالحها، مهما كانت هذه المصالح، من أوجب الواجبات.

لكنّ الاختلاف مشروعٌ، وحتّى الشّتم والسبّ والتّشنيع والتّحقير يجد طريقه نحو السّلطة الحاكمة أو الحكومة التّنفيذيّة المنتخبة، ويصل إلى أعلى رأس فيها دون أن يُشار إلى فاعل ذلك بأنّه ضدّ الدّولة أو ضدّ القانون أو أنّه خائن للوطن كما يحصل في أجواء الحكم الشّمولي المتخلّف..!!

نعم يختلفون ويتنابزون بالألقاب وعندما يصل التّهديد إلى مصلحة البلاد العليا تقوم دنيا الجميع ولا تقعد ويتكاتف الكلّ، معارضةً وحكومةً ومجتمعًا مدنيًا، بعد أن يتّفقوا بشكل عفويّ على تأجيل الخلافات إلى حين آخر.

إنّ الوصول إلى تلك الدّرجة من الفهم، والتّفريق بالتّالي بين (الكلّ المقدّس) و(البعض القابل للنّقاش والجدال) سيدفع قطار بلداننا إلى السّير بخطوات جادّة وثابتة نحو مجتمع تسوده ثقافة احترام المصلحة العامّة وممتلكات الدّولة والحقّ العامّ وسلطة القانون، وتسوده في الوقت ذاته ثقافة الحقّ في المعارضة ونقد السّلطة الحاكمة ومحاسبتها بكلّ السّبل الدّيمقراطيّة، ويتمّ كلّ ذلك وسط أجواء حرّة يؤمن فيها كلّ طرف بالآخر ضمن الإطار العامّ للثّوابت.

لا أريد المبالغة، لكنّ ما كان يحدث في تونس، ودول أخرى، هو أقرب إلى أحداث رواية (الحوّات والقصر) للأديب الجزائريّ الرّاحل الطّاهر وطّار؛ ففي تلك القصّة يستولي ثلاثةُ أشقّاء مجرمين على المناصب الرّئيسيّة في القصر لتبدأ فصول معاناة أخيهم الرّابع الذّي آثر الخير والعطاء والتّواصل مع بني قريته وبقيّة القرى السّبع التّي تدور فيها أحداث الرّواية.. نريد قطيعةً كاملةً مع ما يشبه تلك القصّة وفظائع أولئك الأشقّاء المجرمين.

2011-07-30

الهجرة نحو الشّعوب

بعد ثلاث سنوات من اندحار المستعمر الفرنسيّ قاد العقيد هوّاري بومدين انقلابا عسكريّا (عُرف بالتّصحيح الثّوريّ) ضدّ أحمد بن بيلاّ أوّل رئيس جزائريّ لدولة الاستقلال.. تمّ اعتقالُ الرّئيس ومن ثمّ عزله بِتُهَمِ الإسراف واستخدام أموال الدّولة في غير وجهها الصّحيح، ومن هناك وجد نفسه في إقامة جبريّة طوال السّنوات التّي ظلّ فيها بومدين على رأس هرم السّلطة في البلاد.

بعد وفاة الرّئيس هوّاري بومدين دار بعض الجدل حول الشّخصيّة المناسبة لشغل الفراغ الذّي خلّفه الرّجل القويّ، وخاضت في الأمر جرائد ومجلات عربيّة أوردت إحداها موقفًا أو قصّةً منسوبةً للرّئيس بومدين وهي محلّ الشّاهد في هذا السّياق.

ملخّصُ القصّة أنّ جهاتٍ غير جزائريّة أشارت على العقيد هوّاري بومدين، رئيس مجلس قيادة الثّورة، بفكرة محاكمة الرّئيس المخلوع أحمد بن بيلاّ، ومن ثمّ إعدامه لأنّ التّهم الموجّهة إليه تكفي لهذا الأمر على حدّ زعمهم..!!

الطّريفُ أو الغريبُ أنّ الرّئيس بومدين رفض الفكرةَ من أساسها خوفا من تلك الصّورة غير المُرْضِيّة: (حتّى لا يُقال إنّ الجزائر تُحَاكم رؤساءها).

إنّها نظرةٌ حكيمة من رجل الجزائر القويّ في ذلك الوقت، ورغبةٌ في احترام سمعة واسم الدّولة مهما كانت التّجاوزات، وهي وجهة نظر صحيحة، من بعض الزّوايا على الأقلّ، لأنّ أيّ رئيس مخلوع أو مطرود (أو مقلوب) كان رمزا للدّولة والشّعب سنين عددا، وقد رأينا كيف تحترم الشّعوبُ المتقدّمةُ رؤساءها السّابقين وتحيطهم بالأمن والرّعاية والتّبجيل.

ومن فكرة الرّئيس بومدين مع خصمه أحمد بن بيلاّ ننتقل إلى أيّامنا العربيّة الرّاهنة حيث تابع العالمُ على الهواء مباشرة أولى جلسات محاكمة الرّئيس المصريّ المخلوع محمّد حسني مبارك ليفوز الرّجل بلقب (أوّل رئيس عربيّ معاصر يدخل قفص الاتّهام أمام الملأ).

وقبل الحديث عن المقدّمات التّي أوصلت مبارك وابْنَيْه ومساعِديه إلى هذا المصير البائس؛ لا بدّ من التّأكيد على أهميّة اللّحظة وجَسَامَة الموقف، لأنّ التّاريخ كان حاضرا بقوّة ليسجّل درجة الانعطاف التّي حدثت في مسيرة العالم العربيّ المعاصر.

وشخصيّا لم أشعر بالفرح الطفوليّ، وكلّنا أطفال في أوقات ما، وأنا أشاهد مبارك وجماعته داخل القفص، ولا أدري ما السبب..؟؟ ربّما لأنّ عظمة المشهد، والتّحوّل الذّي يجسّده، كانت أكبر بكثير من الفرح.

وعودة إلى نظرة الرّئيس بومدين، وضرورة الحفاظ على سمعة الدّولة، لنتساءل عن الأسباب التّي تدفع المؤسّسة العسكريّة المصريّة إلى الموافقة على محاكمة أحد أبنائها الذّين شاركوا في حرب أكتوبر عام ثلاثة وسبعين من القرن الماضيّ، وساهم بقدر ما في صنع الانتصار التّاريخيّ الذّي أذهب بعض المرارة من قلوب المصريّين والعرب بعد نكسة عام سبعة وستّين وفضائحها العسكريّة المدوّية..؟؟

الرّئيسُ المخلوعُ حسني مبارك في سنّ الثّالثة والثّمانين ومع ذلك أمر القضاءُ بإحضاره على سريره الطّبّيّ ليكون ضمن المتّهمين داخل قفص الاتّهام..!!

فلا تاريخه العسكريّ وفّر له الحدّ الأدنى من الحصانة، ولا مرضه وسنّه شَفَعَا له في الغياب..

فما الذّي حدث..؟؟

إنّهم ثمانمائة وخمسون شهيدا، وأكثر من ستّة آلاف جريح معظمهم من الشّباب الذّين شكّلوا الوقود الأساسيّ لثورة الخامس والعشرين من يناير مطلع العام الجاريّ.

والمتّهم في القتل والجرح والتّرويع هو مبارك وأركان حكمه.

هذا ما حدث في أيّام معدودة، أمّا خلال ثلاثين سنة من الحكم المتواصل فحدّث ولا حرج..

لقد تحوّل نظامُ الحكم إلى عصابة تنهب المال العامّ، وترهن البلاد للأجانب، وتهدر كرامة المصريّ في الدّاخل والخارج، وتبيع كلّ شيء بدءًا من المواقف وليس انتهاءً بالثّروات، ومنها الغاز المصريّ الذّي يصل إلى دولة إسرائيل بأسعار زهيدة للغاية.

لقد طفح الكيلُ وفاضت الكأسُ بما فيها، ولم يعد في وسع المجلس العسكريّ فعل شيء سوى التّضحية بمبارك وتقديمه قربانا على مذبح الشّعب ليستريح ولو إلى حين، وتعود إلى ميدان التّحرير حركته ويوميّاته العاديّة.

كم كنتَ يا مبارك في غنىً عن هذا المصير المشؤوم.. لقد حكمتَ مصر بما فيه الكفاية، وأُعيد انتخابك عبر الاستفتاء في سنوات سبع وثمانين وثلاث وتسعين وتسع وتسعين من القرن الماضي، وكان بوسعك المغادرة مع بزوغ فجر الألفيّة الثّالثة، لكنّ عشق الكرسيّ أَعْمَاك فَدَفَعَك إلى خوض

غمار انتخابات جديدة عام ألفين وخمسة كان ظاهرها التّعدّديّة وباطنها التّزوير والإكراه والتّلاعب بأصوات النّاس.

المحزنُ أنّ الحالةَ المصريّةَ ليست شاذّة في سياق الزّمن العربيّ المعاصر، فقد وصلت الأمور في دول عربيّة أخرى إلى درجة متقدمة جدًّا من التّعفّن، ولم تترك بعض الحكومات العربيّة مجالا للإصلاح عندما فتحت البلاد أمام ثالوث الفساد والعمالة والاستبداد.

وها هو الأمرُ يتكرّر في سوريا واليمن حيث يُقتل المتظاهرون بالرّصاص الحيّ، ويتفنّن الجالسون على الكراسي في توزيع تُهَم العمالة والارتباط بالأجنبيّ..!!

في بعض النّماذج الأخرى وصلت مستويات نهب المال العامّ إلى درجة التّقويض المنظّم للدّولة، والتّبديد المنهجيّ لأموال الشّعب..!!

إنّها جرائم كبيرة يدرك أهل الاختصاص مسمّياتها القانونيّة، لكنّها بالتّوصيف العامّ أعمالٌ وتحركاتٌ منظّمةٌ تسعى جاهدة في وضع العِصِيّ بين دواليب التّقدّم السّياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ للدّولة، والهدفُ هو البقاءُ في الحكم وجمع أكبر قدر من الأموال.

الأمرُ خطيرٌ وقد يضعنا تاريخيا في عصر ربّما تكون سِمَتُه البارزةُ: (محاكمة وإعدام الرّؤساء وحواشيهم)، والخلاصُ من هذه اللّعنة التّاريخيّة المتوقّعة في يد أصحاب القرار وحدهم.

بعض الحكمة والشّجاعة فقط، ومن هناك تنطلق رحلة الهجرة نحو الشّعوب، فرغم ما حدث ما زال لديها بعض الصّبر والرّحمة والعطف.

ستقول: اذهبوا فأنتم الطّلقاء.. لكن افعلوها يا من يعنيكم الأمر، وتُوبُوا قبل فوات الأوان.

2011-08-06

صدّقوا الحكيم مبارك..!!

ردودُ الأفعال بعد دخول قوّات المعارضة اللّيبيّة إلى العاصمة طرابلس شكّلت توافقًا عجيبا بين اتّجاهات وجِهَاتٍ متناقضة.. هكذا علّق صديقي الأكاديميّ المثقّف، مضيفًا أنّ التّرحيب بسقوط طرابلس في أيدي الثّوار جاء من حَسَن نصر الله الشّيعيّ الجعفريّ، ومن برنار هنري ليفي الفرنسيّ اليهوديّ المتعصّب، ومن الجبهة الإسلامية للإنقاذ المنحلّة في الجزائر، ومن (فلان) الكاتب القوميّ العروبيّ الجزائريّ.

نعم ربّما يلخّصُ هذا التّوافقُ العجيبُ على معاداة القذّافي ونظامه حجمَ الجدل الذّي شغل به الرّجلُ العالمَ أكثر من أربعة عقود متواصلة، كما يلقى الضّوءَ على المساحات المتنوّعة التّي امتدّ فيها أو تحرّك من خلالها العقيد عبر دعم مجموعات انفصاليّة، والانخراط في مشاريع وَحْدَوِيّة، والمساعدة على تشكيل اتّحادات ومنظّمات، وملاسنات تقود إلى مواجهات، والتّحوّل من عداوات عميقة إلى صداقات حميمة.

مساحاتٌ تحرّكَ فيها القذّافي من قائد انقلاب إلى زعيم يرفض شفهيا أن تكون له أيّ سلطة، ثمّ إلى فيلسوف وحكيم تظهر في خلفيّة مقابلاته التّلفزيونيّة خزانةُ كتب عامرة، فضلا عن النّظريّة العالميّة الثّالثة التّي تضمّنها الكتابُ الأخضر.

يبدو أنّ الرّجلَ كان مزعجا، ومقزّزا أحيانا، لكثيرين في بلاد العرب والغرب، فضلا عن الجيران الأقربين..!! ومع ذلك ربّما جسّد قول الشّاعر أبي الطّيب المتنبّي:

أنامُ مِلْءَ جفوني عن شواردها ويسهر النّاس جرّاها ويختصموا

فالرّجلُ يُوصف بالمجنون، ومع ذلك كان يلقي الكلمةَ أو يُطلق التّصريحَ أو الموقفَ، ثمّ ينتقل إلى فكرة مجنونة أخرى، بينما يستمرّ الجدلُ حول الأولى.

الحديث عن حكم دام أكثر من أربعة عقود ليس بالأمر اليسير، لكنّ ما يمكن التّركيزُ عليه هو أُفُول نجم حكم القذّافي حيث التّأريخ لبداية حقبة عربيّة جديدة خالية من الاستخفاف بالشّعوب والجماهير، فقد مللنا لَغْوَ الكلام، وسئمنا من النّوم على الخطابات والعنتريّات الزّائفة التّي يطلقها الزّعماء دون رصيد حقيقيّ من الشّعب أو مؤسّساته.

لقد (هَرِمْنا) ونحن نتجرّعُ غُصَصَ أحاديث العلن حيث الكرامة والعزّة ومعاداة الأجنبيّ المتآمر، وفي السرّ خنوع وعمالة وتسليم للأوطان مقابل دراهم معدودة.

المؤسف هذه الأيّام أنّ أنظمةً عربيّةً صَدِئَةً ما زالت تمارس رذيلة الاستخفاف بالشّعوب، دون أدنى شعور بالمرحلة والزّمن الجديد، وآلياته الإعلاميّة التّفاعليّة وما تصبّه في وعي النّاس كلّ ثانية.

تفعل ذلك وكأنها تعيش زمنًا آخر..!!

إنّ التّطوّرات الأخيرة في سوريا تؤشّر إلى حجم الوعي الشّعبيّ المناهض لحكم الحزب والأسرة الواحدة.. ومع ذلك يمضي رأسُ الدّولة هناك، ووسائل إعلامه، على طريق الاستخفاف عندما يختزلُ الوضعَ كلَّه في مجموعة من المسلّحين المخرّبين والإسلاميّين المتشدّدين..!!

ولو صحّ هذا الكلام فإنّه حجّةٌ عليه.. فإذا كانت ثمار سنوات الكبت والتّضييق و(مقاومة العدّو الصّهيونيّ) هي هذه المجموعات المسلّحة، فالأجدر بالطّبقة الحاكمة هناك أن تستحي على نفسها وتنسحب من المشهد.

تتفاعل التّصريحات الدّوليّة، ويزيد ضغط الشّارع السّوري ليلا ونهارا وسرّا وجهارا، وينتظر النّاسُ كلاما جديدا وتعلن وكالة الأنباء الرّسميّة عن مقابلة مع السّيّد الرّئيس، وينطق الرّجل ليردّد كلاما ورثه عن أبيه وظلّ يَلُوكُه منذ جاء إلى السّلطة، وكلّما اهتزّ الكرسيّ من تحته: هناك مخطّط لإسقاط سوريا..!!

كفى استخفافا بالشّعوب العربيّة فقد تابعنا الحالات العديدة التّي اعتدت فيها طائرات إسرائيليّة على سوريا، وكان البيان الرّسميّ يشجب ويستنكر ويكرّر عبارة: نحتفظ بحقّ الردّ في الوقت المناسب.

وظلّ السّادة هناك يحتفظون بحق الرّد دون ردّ على أرض الواقع.. أمّا عندما تحرّك الشّعبُ مطالبًا بحريّته فلم يتأخّر الرّد، وكان بالدّبابات وتهديم البيوت على رؤوس ساكنيها..!!

عندما وقعت أحداثُ الشّغب الأخيرة في بريطانيا ظنّت بعض الأنظمة الدّكتاتوريّة أنّها أدركت ضالّتها لتردّ الصّاع صاعين، وهكذا انتقدت طهران تصرّفاتِ الشّرطة البريطانيّة مع المتظاهرين، واستدعت الخارجيّةُ الإيرانيّةُ القائمَ بالأعمال البريطانيّ لتبلّغه قَلَقَها من التّعامل الخشن مع المحتجّين..!!

وراحت وسائل إعلام سوريّة تنسج قصصًا وتدندنُ حول تصريحات ديفيد كاميرون، رئيس الوزراء البريطانيّ، عندما قال إنّه يفكّر في الاستعانة بالجيش، أمّا نظام معمّر القذّافي فقد دعا كاميرون إلى الاستقالة..!!

نعرف أنّ للغرب معاييره المزدوجة خاصّة إذا تعلّق الأمر بقضايانا، لكنّ الفرق بيننا وبينهم شاسع.

إنّ تفاعل طهران ودمشق وطرابلس القذّافي مع ما حدث في بريطانيا كان استخفافا سخيفا بالشّعوب.. لكنّ دون ذلك خَرْط القَتَاد لأنّنا ندرك، بفضل وسائل الاتّصال، أنّ الشّرطة في بريطانيا لا تحمل مسدّسات ولا يسوّغ لها القانون استعمال خراطيم المياه لتفريق المتظاهرين، وفي بعض بلداننا ترى الشّرطيَّ مدجّجا بالسّلاح وهو في قلب الأماكن الحضريّة، وكأنّه في ساحة معركة حقيقيّة، وفي أول خطر متوّهم يطلق الرّصاص الحيّ على أيّ أهداف بشريّة، لأنّها معاديّة، فهكذا علّموه ولقّنوه بعد أن صنعوا ذلك الجدار الفولاذيّ بين المواطن ورجل الأمن.

أرجوكم.. نريد مثالا عربيًّا واحدا، خاصّة هذه الأيام، لكي ننقض مقولةَ أنّ الاستبداد تلميذ غبيّ.

نريد أن نرى بأعيننا حاكمًا استيقظ وتدارك الأمرَ وتاب من الاستخفاف بالشّعب، ليسجّل التّاريخُ أنّه ليس غبيا، فيحفظ كرامته، ويُجنّبَ أسرته ويلات المحاكم، بعد أن يوطّن نفسه على العمل بقاعدة المصالح والمفاسد على رأي أهل الأصول، والرّبح والخسارة على رأي أهل الاقتصاد، والممكن وغير الممكن على رأي أهل السّياسة.

لقد استيقظ الرّئيسُ المصريّ المخلوع حسني مبارك، ولو متأخرا على سرير الاعتقال، ونُقل عنه انتقاده للنّظام السّوريّ، وأبعد من ذلك نصيحته للرّئيس بشّار الأسد بالتّنحّي والاستجابة للإرادة الشّعبيّة..!! صدّقوه أيّها الزّعماء الذّين يعنيهم الأمر أكثر من غيرهم.. وأقصد أولئك الذّين لم يحقّقوا لا رفاهيّة مقبولة، ولا ديمقراطيّة في حدّها الأدنى.

صدّقوا مبارك فقد كان البعضُ يصفه بالحكيم.. صدّقوه وأفشلوا الخطط التي تُرسم من وراء البحار.. خُطَطٌ عمادها شعوبٌ غاضبةٌ وحكوماتٌ فاشلةٌ عاجزة.

2011-08-27

التّحالف مع الشّيطان

هل هناك أيّ شبهة تَجَانس بين جميع الأطراف التّي شاركت في قتال نظام معمّر القذّافيّ البائد..؟؟ وهل كان هناك توافق بين جميع مكوّنات مشهد الثّورة الليبيّة وهي تزحف شرقًا وغربًا للقضاء على النّظام..؟؟ والأهمّ من ذلك: هل كان جميع الثّوار، المسلّحون خاصّة، سعداء بمشاركة حلف النّاتو عبر ضرباته الجويّة..؟؟ أم أنّهم وجدوا أنفسهم عنوة في ذلك المشهد الغريب حيث المصحف والتّكبير على الأرض، والصّليب والإنجيل في الجوّ.

بداية لا بدّ من التّنويه بأنّ تعليقات أمثالنا من المراقبين قد تكون مجرّد ثرثرة بالنّسبة للقابضين على الجمر في أيّ بلد يتعرّض لمخاض عسير، ويمرّ عبر نفق مظلم لا يدري متى يظهر الضوء في آخره.

كما ينبغي الدّنْدَنَة دائما حول حجم تلك المآسي والمصائب والمظالم التّي ارتكبتها أنظمة عربيّة معروفة، لتدفع بالتّالي بعض المعارضين وقادة الجماهير الثّائرة إلى آراء متطرّفة، ولعلّ عنوانها الرّئيسيّ هو تعبيرُ معارضٍ لأحد الأنظمة الغارقة حتّى النّخاع في الدّكتاتوريّة والفساد، عندما أعلن عبر شاشة قناة إخباريّة عن استعداده للتّحالف مع الشّيطان لإسقاط نظام الحكم في بلاده..!!

يسهل الحكمُ على أصحاب تلك التّصريحات بالخيانة، لكن (ليس مَنْ رَأَى كمن سَمع)، ولعلّ قصّة واحدة تؤكّد هذا المعنى وتيسّر فهم أولئك المعارضين.

والحكايةُ أنّني سمعتُ وقرأتُ في سنوات التّسعينيّات من القرن الماضي عن سلوك نظام الرّئيس التّونسيّ الهارب زين العابدين بن علي مع معارضيه ودرجة القسوة الرّهيبة التّي انتهجها ضدّهم.

قسوةٌ ربّما يجد بعضُ مدمني القابليّة للاستبداد تبريرا لها باعتبار أنّ المعارضين (خونة وعملاء)، كما تردّد أدبيّات أبواق الأنظمة الشّمولية عندما تهاجم من يقول لها كفى فقد طفح الكيل..!!

سمعتُ أنّ الرّئيس أسرّ لمقرّبيه أنّه سيلاحق هؤلاء المعارضين ويزجّ بهم في السّجون، ثمّ يحاصرُ أُسَرَهم ماديًا ومعنويًا عبر كلّ الوسائل، حتّى تضطرّ نساؤُهم وبناتُهم إلى (مهنة) بيع الشّرف والعِرْض للحصول على الحدّ الأدنى من القوت للنّفس والولد.

كانت تلك القصّة مؤلمة جدًا وكلّما تذكّرتها أسرح مع خيالي محاولاً تصوّر مقدار الحيوانيّة التّي يصل إليها بعض بني البشر من أصحاب البدلات وربطات العنق الأنيقة..؟؟

ولا أدري ربّما نظلم الحيوانَ إذا ألحقنا به هذا النّوع من الكائنات المريضة نفسيا وعقليا بعد أن بات دَيْدَنُها الأكل والنّهب والانتقام بلا رحمة....!!

لكن.. وعندما سقط نظام (ابن علي) قرأتُ مقالاً لأحد الكتّاب المعروفين بجريدة صوت الأحرار تناول فيه هذه القصّة، لكنّه أضاف شيئا لم أكن أعرفه فزاد من المرارة أضعافًا وجعل خيالي أمام عجز مطلق عن أيّ وصف يمكن أن يصدق على كائنات غريبة تحاول التألّق أمام الكاميرات، بعد أن ترتدي أفخر الملابس وتركب أفخم المراكب وتضع أغلى العطور وتبتسم للآخرين، وفي الدّاخل ما هو أسوأ من السمّ الزّعاف حيث الحقد الأسود الدّفين الذّي يكفي توزيعه على عشرات ملايين البشر ليكونوا مقزّزين جدا، فيتأفّفُ التّاريخُ من مجرّد ذكرهم، وتئنّ سجلاّته من ورود أسمائهم.

ما أضافه الأستاذ الكاتب أنّ نظام (ابن علي) لم يكن يكتفي بالتّضييق على نساء وبنات المعارضين القابعين في السّجون دون وجه حقّ، فهو يمنع عليهنّ العمل أو المساعدة من أيّ قريب أو بعيد، وبعد أن يسدّ جميع الأبواب يفتح أمامهنّ أبواب تلك (المهنة) الرّخيصة المذلّة..!!

لكن هل يعرف صدره المريض الهدوءَ والرّاحة بعد ذلك، فيترك المعارضين المساكين على حالهم أو يخفّف عنهم بعض ما هم فيه من عنت..؟؟

لا.. إنّه يصوّر المسكينات العفيفات في أوضاع مخجلة، ويعرض الصّور على الآباء والأزواج في الزّنازين زيادة في التّنكيل ومبالغة في التّعذيب..!!!

وعودة إلى فكرة التّحالف مع الشّيطان لنؤكّد أنّ دخول حلف النّاتو على خطّ الحَرَاك الشّعبيّ اللّيبيّ أمرٌ مؤلمٌ دون أدنى شكّ، ويمكن لأيّ غيور من بعيد أن يشجب ويستنكر، لكنّ الذّين اكتووا بالنّيران من أوّل أيّام المظاهرات السّلميّة لهم ما يبرّر فرحهم المؤقّت بطلعات حلف النّاتو، حتّى وهم يدركون استحالة براءتها وأنّ أهدافها أبعد من القضاء على نظام معمّر القذّافي.

إنّ اثنين وأربعين سنة من حكم القذّافي علّمت اللّيبيّين أنّ الرّجل لا يعرف الرّحمةَ على الإطلاق، وهكذا، وعلى مدى سنوات حكمه، كانت تهمة الخيانة كافية للإطاحة بأقرب الرّؤوس إليه وشنق الأبرياء في السّاحات العامّة بعد جمع الغوغاء والفضوليّين والأعوان للتّصفيق والإشادة بحياة القائد وثورته المزعومة..!!

قبل اندلاع الأحداث اللّيبية كانت وسائل الإعلام قد أثارت قضيّة سجن (أبو سليم) حيث قتل القذّافيُّ ألفًا وثلاثمائة سجين في يوم واحد، وفي إحدى القنوات الفضائيّة تحدّث أستاذ جامعيّ

مؤيّد للقذّافي حول هذه القضيّة وقال بكلّ وقاحة: حدثت مشكلة بسيطة فسقط أكثر من ألف قتيل وقد قامت السّلطات المعنيّة بتسوية الأمر مع أسرهم..!!

وواصل الرّجل حديثه دون أن يبدو عليه أيّ تلعثم في الكلام، وكأنّه أزاح ذبابةً عن وجهه لا أكثر ولا أقلّ..!!

إنّه أستاذ جامعيّ، فكيف لو تحدّث رجل أمن، أو أحد قادة اللّجان الثّوريّة المتخصّصين في ملاحقة خصوم القذّافي..؟؟

لقد كان قطع الطّريق على حلف النّاتو ممكنًا لو أنّ دولاً عربيّةً نافذةً بادرت إلى الضّغط على نظام القذّافي، وأقنعته بالجلوس إلى طاولة مفاوضات مع معارضيه، ومن ثمّ البدء في مرحلة جديدة تدفع البلاد من حال إلى حال حتّى يتغيّر شكل نظام الحكم إلى الأفضل، ويحفظ القذّافي وأبناؤه ماء وجوههم بعد أن ينسحبوا من المشهد تدريجيا.

لكن، وللأسف الشّديد.. يبدو أنّ دُوَلَنا الفاعلة ما زالت في وضعيّة (فاقدُ الشّيء لا يعطيه).

2011-09-03

لو لم تكن موجودة لأوجدوها

ليبيا الحرّة لن تكون للظّواهريّ أو لِليفِي.. هكذا أعلن معارض ليبيّ ومسؤول رفيع سابق في نظام القذّافيّ عمّا يدور من أحاديث حول (برنار هنري ليفي) الفرنسيّ اليهوديّ المتعصّب، مستشار الرّئيس الفرنسيّ، وزياراته المتكرّرة لمدينة بنغازي ودوره فيما يحدث، وحول ما يُشاع أيضًا من قصص حول مجموعات مسلّحة متشدّدة تنشط بشكل ملحوظ بين صفوف الثّوّار اللّيبيّين.

لقد شبّه ذلك السّياسيّ اللّيبيّ ما يحدث في بلاده، خاصّة عند بداية الأزمة، بمشهد المنزل الذّي شبّت فيه النّيران وأدركَ صاحبُه خطورةَ الموقف ما لم يسابق الزّمن وينادي القريب والبعيد من الجيران، ويستنجدُ حتّى بخصومه من أهل الحيّ وغيرهم، ويقبَلُ على مضض مساعدة بعض المشبوهين والانتهازيّين وعَبَدة المصالح الخاصّة.

إنّ الرؤيةَ واضحةٌ بالنّسبة لصاحب المنزل في ذلك الظّرف الصّعب، وهي إخمادُ الحريق بأيّ ثمن، وبعدها يمكن الالتفات إلى الذّين قدّموا يد المساعدة، وتمييز الطّيّب من الخبيث بينهم، ومن هناك يتمّ إسداء الشّكر والعرفان إليهم كلٌّ حسب مكانته ومنزلته وما قدّم من جهد، وفي المقابل سوف يهرع صاحبنا إلى التّخلّص من الدّخلاء الانتهازيّين ومَنْ على شاكلتهم.

لقد أوضح السّياسيّ اللّيبي، ونتمنّى أن يكون صادقا، أنّ الأولويّة بعد هدوء الأوضاع في البلاد لمصلحة الشّعب وأرضه أوّلا وأخيرا، وهكذا لن يكون هناك متّسع إلاّ للأحرار من أبناء الشّعب اللّيبيّ الغيورين على مصلحته، والسّاعين لرفعته ورفاهيته، والمؤمنين بأهميّة العيش المشترك والتّسامح، والوصول إلى دولة يحلّ فيها الجميع خلافاتهم عبر آليات الدّيمقراطية الحديثة، التّي تضمن مسارا سلميًا لكلّ أشكال التّنوّع العرقيّ والدّينيّ والإيديولوجيّ والثّقافيّ والجهويّ والمناطقيّ والقبليّ.

إنّ المجلسَ الوطنيَّ الانتقاليَّ ضمّ شخصيّات لا تخفي علاقتها الشّديدة بالغرب وإيمانها به، وليس بمجرّد الدّيمقراطيّة والدّولة المدنيّة، وتلك الشّخصيّات، ومِنْ ورائها حلف النّاتو الذّي كان يضرب جوًّا وربّما يقدّم المشورة أرضًا، غضّت الطّرف عن مجموعات ووجوه (إسلاميّة) شاركت في

الثّورة بالسّاعد والسّلاح وربّما تحمّلت العبء الأكبر من الحرب في جبهات وصفوف القتال الأولى.

ولا عيب في ذلك فالجميع اشترك في هدف واحد هو الوصول إلى مرحلة (ليبيا الغد)، لكن تلك الجماعات، كما يرى البعض على الأقلّ، تحمل أفكارا تتجاوز القذّافي وعائلته ونظامه إلى ما بعد ذلك وهو (الفكر الجهاديّ) الذّي يعتقدُ أنّ التّحركَ عبر كامل المنطقة جهادٌ أوجبته الشّريعةُ الإسلاميّةُ، كما ترى ضرورة (قتال الصّليبيّين) الذّين ظلّت أياديهم واضحة في البلاد الإسلاميّة، بعد أن غادروها من الباب وعادوا إليها من النّافذة في صورة حكومات موالية، وشركات متعدّدة الجنسيّات تسعى لنهب كلّ ما تصل إليه أياديها فوق الأرض وتحتها..!!

وربّما يكون أمر هؤلاء (الجهاديّين) مقصودا من البداية، حيث يتمّ التّغافل عنهم وهم يحملون السّلاح ويشاركون في المعارك، خاصّة أنّ كثيرا منهم مؤهّلون لذلك نفسيًا، وربّما عسكريًا، حيث قاسوا الكثير في سجون القذّافي أو في المنافي القريبة والبعيدة..؟؟

وبعد تجربة حمل السلاح وانتشاره في الأراضي اللّيبيّة الشّاسعة سوف تنشأ جيوبٌ مسلّحةٌ ونواةٌ معارضةٌ من نوع آخر تؤمن بالسّلاح و(الجهاد ضدّ الصليبيّين) الذّين سيكون لهم تواجدهم الاقتصاديّ والسّياسيّ في ليبيا الجديدة.

وعندها سيقول الغرب، وفرنسا: نحن هنا لمكافحة التّطرّف والإرهاب..!!

نعم.. ربّما يصعب الجزمُ بأنّ ما دار في ليبيا كان مخطّطا غربيًا خالصًا منذ بدء المظاهرات السّلميّة، لكنّ ما يسهل الجزمُ به أنّ الغرب استغلّ الوضعَ ودخل بقوّة على الخطّ، وخطّط لمصالحه في ليبيا والمنطقة بكاملها، وهذا أمر ليس غريبا على القوى الكبرى، ولا سبيل لدفعه في الحالة اللّيبيّة وغيرها إلا بتلاحم الحكومات مع الشّعوب والإسراع في الإصلاحات، وبلوغ دولة القانون وسلطة الشّعب الحقيقيّة.

أما إذا استمرّت عمليات الدّفع والردّ بالبكاء والعويل والشّعارات المستهلكة، فإنّ النّتائج ستكون معلومة للخاص والعامّ، وقبل انتهاء الأحداث الحاليّة أو المتوقّعة.

لقد أوردت وسائلُ إعلام مغاربيّة تقاريرَ متداولة، بين مصالح أمن دول المنطقة، مفادها أنّ مائة شابّ هناك، وثمانين هنا، ومجموعة جهاديّة في المكان الفلانيّ، وأخرى تتحرّك على الحدود الغربيّة أو الجنوبيّة..؟؟

ومجموعُ ما ذكرت تلك التّقارير لا يصل إلى الخمسمائة فرد، لكنّ (أصحاب التّقارير) يَخْلُصُون إلى أنّ هؤلاء الشّباب يعدّون العُدّة لما بعد القذّافي لينخرطوا في حرب ضدّ فرنسا ومصالحها، وبلدان المنطقة بالضّرورة، خاصّة تلك الدّول التّي تحارب ما يسمّى بالقاعدة أصلاً، ونسجت، أو ما زالت تنسج، تحالفات إقليميّة ودوليّة في إطار تلك الحرب الضّبابيّة..؟؟

لقد بات معلومًا للجميع أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة حاولت، مع بعض الدّول الغربيّة، تضخيم ملفّ القاعدة خلال السّنوات الأخيرة، وكان الهدفُ واضحًا وهو الحصول على موطئ قدم في دول المغرب العربيّ ولو على شكل مقرّ للقيادة العسكريّة الأمريكيّة في أفريقيا، لكنّ الرّفض كان حاسما من دول المنطقة وعلى رأسها الجزائر.

قال نزار قبّاني: لو لم يكن الحبّ موجودا لاخترعناه..!! ولسان حال أصحاب المصالح في الدّول الغربيّة يتحدّث بهذه اللّغة أيضا: لو لم يكن الإرهاب والعنف والكره موجودا لاخترعناه..!!

وهكذا دأب هؤلاء على البحث عن كلّ ما يشبه القاعدة ليتّبعوا أثره، ويجعلوا منه ذريعةً للضّغط على الحكومات..!!

لكنّ الأملَ معقودٌ على النّخب اللّيبيّة التّي ظهرت واعية خلال إدارة المعركة، وبمساعدة الدّول المجاورة سوف يتمّ تفويت الفرصة على صيّادي المياه العكرة، سواء من الغربيّين الكائدين أو المتشدّدين المُسْتَغْفَلِين.. لأنّنا في زمن الشّعوب وبطولاتها الخارقة، ولا مكان لمجموعات مسلّحة كانت تَسْتَثْمِرُ، أو تُسْتَثْمَر، في أجواء الإحباط واليأس والمهانة التّي عاشتها الشّعوب تحت حكم ثالوث الاستبداد والعمالة والفساد.

2011-09-10

الرّقم والبدلة الزّرقاء..!!

محاكمةُ القرن كما أُطْلِق عليها عندما انطلقت في البداية، ثمّ مهزلة القرن كما رآها آخرون بعد صدور الأحكام على الرّئيس المصريّ المخلوع محمّد حسني مبارك وأبنائه وعدد من أركان حكمه.. ومع ذلك ستظلّ تلك المحاكمة تاريخيّة بكلّ المقاييس، لسبب بسيط أنّ مبارك شرب من الكأس ذاتها التّي سقى منها خصومَه سنين عددا؛ فها هو يستلم بدلةَ السّجن الزّرقاء ورقمًا كباقي النّزلاء.

لقد قضى مبارك الشّهور الطّويلة الماضيّة، بعد خلعه، في عيادة صحّية راقية، ويبدو أنّ نظام حياته لم يتغيّر كثيرا كما سرّبت بعض وسائل الإعلام ذلك، ومع أنّ بداية (الفَرْق) في المشهد العربيّ المعاصر هي ظهور مبارك في قفص الاتّهام يستمع لأسئلة القاضي ويجيب عند المناداة عن اسمه، فإنّ (نقطة الانعطاف) قد برزت فعلا في التّاريخ العربيّ المعاصر عندما نقلت طائرة الهليكوبتر الرّئيس المخلوع إلى سجن (ليمان طُرَه) ليدخل العيادة هناك، ويستلم رقمًا وقميصًا مثل باقي السّجناء من أبناء الشّعب المصريّ.

المشهدُ تحوّل بعد ذلك إلى مظاهرات واعتصامات جديدة في جميع أنحاء مصر، والسّبب هو تلك الأحكام التّي رأت فيها الأغلبيّةُ سياسةً وخداعًا من طرف ما سمّاه أحد المحلّلين (الدّولة العميقة)، حيث بقايا نظام حسني مبارك في جميع مفاصل المؤسّسات الرّسمية.

لقد غضب الشّباب المصريّ، وحقّ له أن يغضب، وهو يرى أحكاما بالمؤبّد على الرّئيس المخلوع ووزير داخليته حبيب العادلي، وهما طاعنان في السنّ، بينما جاءت الأحكام على نَجْلَيْ الرّئيس جمال وعلاء بالبراءة، وأيضا مساعدي وزير الدّاخلية..!!

لعبةٌ رأى فيها المصريّون صورةً قاتمةً للمستقبل حين يعود هؤلاء (الأبرياء) إلى الواجهة السّياسيّة والاقتصاديّة عبر أكثر من سبيل.

نعم.. حقّ للمصريّين أن يغضبوا لأنّ الأحكام التّي صدرت قزّمت القضيّة من أساسها؛ فالتّهم حامت حول أوامر بإطلاق الرّصاص الحيّ، وقتل المتظاهرين أثناء أحداث مطلع العام الماضي

في القاهرة ومدن مصريّة أخرى، لكنّ القضيّة الأساس التّي يعرفها كلّ مواطن، اكتوى بنار الظّلم والحرمان، هي مصير شعب ودولة كاملة اختطفتها مجموعة من النّاس على مدى ثلاثة عقود..!!

ماذا يعني مصطلح الخيانة العظمى مثلا غير ما عرفه الشّعب المصريّ، وكشفت عنه الوثائق والأرقام بعد سقوط حسني مبارك..؟؟

إنّه زواج غير شرعيّ بين عصابات اقتصاديّة وأخرى سياسيّة، وكان النّاتج وليدا غير شرعيّ يُسمّي نفسه دولةً ونظامًا، ويرفع شعارات برّاقة، ويتلو خُطَبًا رنّانةً، ومِن وراء السّتار يحاول الاستحواذَ على كلّ شيء في الأرض والجوّ والبرّ والبحر..!!

ماذا تعني الخيانة العظمى غير إيقاف عجلة النّموّ الحقيقيّ في دولة مثل مصر، ورهنها لقرارات ومصالح دول أجنبيّة، وفَرْمَلَة دورها الإقليميّ الحقيقيّ في نصرة القضيّة الفلسطينيّة، وإبعادها عن دور الرّيادة، مع دول أخرى، في مسار العمل العربيّ المشترك..؟؟

إنّ احتكار السّلطة وحده جريمة كبرى في حقّ الشّعب لأنّه مصادرةٌ للطّاقات والقدرات، وتجميدٌ لعجلة التّطور الذّي يحدث في العادة عندما يتداول المُؤَهّلونَ الجلوسَ على الكراسي، ومن هناك تتنوّع البرامج والخطط، وتنمو الأفكار النّافعة، وينزوي الانتهازيّون والوصوليّون في جحورهم بعد أن تجرفهم التّغيّرات الجذريّة التّي تحدث على مستوى القمّة.

إنّ جريمة محاولة قتل شعب وأمّة كاملة لا ينبغي أن تكون بين يدي نائب عامّ من الطّراز العاديّ، ولا أن يدرس أوراقها وملفّاتها الضّخمة قاض تعوّد على روتين عمله على مدى ثلاثة عقود، وحتّى فريق الدّفاع عن الأمّة والشّعب لا بدّ أن يكون متميّزا إلى حدّ كبير..!!

إنّ قضيّةَ مبارك وأمثاله في حاجة إلى محاكمة من طراز خاصّ سواء أُطلق عليها ثوريّة أم لا.. لكنّها محاكمة تضع في حسابها سنوات طويلة من الاستبداد والفساد والقهر، والاندماج في مخطّطات القِوَى الأجنبيّة، والعزوف عن أيّ خطوة حقيقيّة نحو بناء جادّ للدّولة.

العجيبُ الغريبُ في المحاكمة أنّ المنفّذين المفترضين لجرائم قتل المتظاهرين خرجوا أبرياء، وهم أعوان وزير الدّاخلية، بينما أُدين مبارك والعادلي، وهكذا ترك الحكمُ حلقةً مفقودةً في سلسلة التّرابط المنطقيّ لما حدث..؟؟

فإذا كان الرّئيس المخلوع ووزير داخليته قد أُدِينَا في هذه القضيّة، فكيف نفّذا ذلك..؟؟

أليس عن طريق أولئك الأعوان المُبَرّئِين من طرف المحكمة..؟؟

وإذا كان التّنفيذُ عن طريق غيرهم، فأين هؤلاء..؟؟

إذن: لم يبق سوى احتمال واحد هو أنّ الرئيس ووزيره هما الآمر والمنفّذ، أيّ أنّهما نزلا ميدان التّحرير فعلاً ومارسَا جريمةَ إطلاق النّار مباشرة على المتظاهرين..!!!

ومع كلّ ما سبق يظلّ ظهور حسني مبارك في قفص الاتّهام، ودخوله سجن طُرَه واستلامه بدلة زرقاء ورقما، عنوانًا لمرحلة جديدة في بلداننا العربيّة، وصورة من صور القصاص بعد عقود ذاقت فيها الشّعوب الويلات على يد عدد معتبر من الحكّام الجلاّدين.

قبل فترة حكم مبارك حدث نوع من تصفيّة الحسابات بين (رفاق الثّورة)، وهكذا شهد أحدُ السّجون المصريّة قصّةً طريفة، حيث حضرت امرأةٌ لزيارة زوجها السّجين ومعها بعض الطّعام، وفي البّوابة منعها الحارسُ من إدخال أيّ شيء للسّجن، وصاحت المرأةُ محتجّةً بأنّ الطّعام لوزير الدّاخلية السّابق..!!

وكانت المفارقةُ عندما قال الحارس بعفويّة: والله السّيّد الوزير هو الذّي أصدر هذا القرار عندما كان في الوزارة..!!

ودون شماتة يمكن القول إنّ مبارك قد تذوّق فعلا بعض ما جنت يداه على مدى عقود حكمه الثّلاثة، وقد ينتقل الرّجل إلى العالم الآخر بعد أن تداولت وسائل الإعلام أخبار تردّي حالته الصّحيّة، ومع ذلك سيظلّ الرّقم والبدلة الزّرقاء عبرةً لمن أراد أن يعتبر، فيتصالح مع شعبه قبل فوات الأوان.

2012-06-09

مصر.. حقيقة الضّجيج

يتحدّث بلسانه ويديه وعينيه ونبرة صوته الحادّة.. يتحدّث عن قضايا سياسيّة شائكة ويشتم كلّ من ورد في معرض كلامه.. وفي النّهاية يختم البرنامج بعبارات سوداء قاتمة لا تترك بصيص أمل على الإطلاق.. يطلق الكلام على عواهنه ويخترق حُجُب الغيب، أو هكذا يبدو من عباراته، ويجزم أنّ البلدَ لن ترى الخير أبدا.. ويختفي من الشّاشة على هذه الصّورة المرعبة.

أيّ بلد، يا ترى، تتراكمُ فيه المشاكل إلى هذا الحدّ الذّي يدفع مقدّمَ برنامج تلفزيونيّ نحو هذا الجنون الذّي يخرج عن كل أبجديّات العمل الإعلاميّ، ويجافي جميع أدبيّات التّواصل الإنسانيّ..؟؟

هل يعيش هذا الصحفيّ في أفغانستان مثلا بحروبها شبه المتواصلة منذ أزيد من أربعين عاما ومشاكلها المزمنة منذ عدّة قرون..؟؟ أم تراه يطلّ علينا من الصّومال التّي تعاني نزاعات مريرة وانقسامات منذ عشرين عاما..؟؟ أم من دولة مالي التّي تقف في مفترق طرق بين داخل ممزّق، وغرب متربّص كالثّعلب، وجيران حيارى يقدّمون رِجْلاً ويؤخّرون أخرى..؟؟ هل يتحدّث هذا الصّحفيّ من سوريا الدّماء والأشلاء، أم من العراق التّائه بين العرب والفرس والكرد والتّرك..؟؟ أم من اليمن الغارق في مشاكل الثّورة والجنوب والشّمال والحوثيّين وبقايا نظام علي عبد الله صالح، وجهود الأمم المتّحدة وحسابات دول الجوار ومخطّطات الولايات المتّحدة..؟؟

الحقيقة أنّه لا هذا ولا ذاك..!! فالمذيع يتحدّث من بلد يعيش خيرات النّيل وبركاته، وبين عدد من السّكان يصل تعدادهم إلى قرابة التّسعين مليون نسمة، ويقفون جميعا على أهرام عاليّة من الموروث الدّينيّ والثّقافيّ والحضاريّ، ووراءهم قرون طويلة من تجارب الحكم والتّعايش والتّقارب مع الأدنى والأقصى على حدّ سواء.

إنّ هذا المذيع يمثل صنفًا من النّاس (لا يعجبهم العجب ولا الصّوم في رجب)، وقد ظهر بعد سقوط الرّئيس المصريّ حسني مبارك باكيًا شاكيًا يذرف الدّموع غزيرة، ويعترف أمام الملأ أنّه

كان مطيّةً لفلان من رجال الأعمال الفاسدين، وذكره بالاسم والصّفة، وذكر غيره أيضا من بارونات المال والسّياسة في مصر..!!

لقد أظهر ندمه يومها، واعتقد الطيّبون أنّ الرّجل في طريقه إلى اعتزال الشّاشة حياءً من نفسه، أو التّحوّل إلى الجهة المقابلة حيث الإعلام الجادّ والمهنيّ والرّساليّ، وحيث خدمة الوطن والدّفاع عن مصالحه، وترسيخ القيم الفاضلة والمساعدة على صناعة الوعي الحضاريّ بين المواطنين.

لكن.. عادت حليمة إلى عادتها القديمة.. وظهر المذيع، كما ظهر العديد من أمثاله وخاضوا حربا بلا هوادة خلال أزمة الدّستور التّي تشهدها مصر، وأثبتوا بجدارة أنّهم في مستوى المهمّة القذرة التي آمنوا بها، أو كلّفتهم بها جهات معيّنة.. لا يهمّ..!!

إنّ ما حدث، ويحدث في مصر، هو خلافات عاديّة جدا يمكن أن تحدث في أيّ بلد يشهد تحوّلاً مصيريًا، ويقطع المسافة الفاصلة بين محطّة وأخرى.

وعبر الاستعانة ببعض الصّبر والأناة، ومن ثمّ تصفّح كتب التّاريخ الحديث والقديم؛ ندرك بسهولةٍ حتميّةَ ما يحدث في مصر، وأنّه نتائج طبيعيّة جدّا لمقدّمات معروفة جدّا، ويدركها كلّ من يتفحّص الواقع المصريّ قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير وبعدها.

نعم إنّها خلافات عاديّة جدّا، لكنّ أطرافًا متوحّشة صنعت منها مشهدا مغايرا تماما، وهذه الأطراف هي بعض المتقوقعين على أنفسهم حيث لا يملكون القدرة على قبول الرّأي الآخر، ومعهم ذلك العدد الكبير من يتامى نظام حسني مبارك حيث رجال السّياسة والمال والأعمال والموظّفين السّامين والإعلاميّين والقضاة، وغيرهم.

إنّ من أبرز مظاهر نظام حسني مبارك، ومن على شاكلته من الأنظمة، ذلك التّزاوج بين المال والسّياسة، حيث سعت السّلطة لأجل المال، وسعى المال لأجل السّلطة عبر خطوط متوازية، وفي النّهاية تجلّى ذلك (الخليط الكريه) من المصالح الذّاتيّة والحزبيّة والعائليّة، واعتقدَ ذلك المزيجُ أنّه خارج إطار الزّمن والسّنن الكونيّة، ولن يطاله شيء من عوادي الدّهر وتقلّباته، وهكذا راح يقتسم الدّولة كما لو كانت إرثا شرعيًا لا يتمارى فيه اثنان..!!

لقد صنع الفسادُ في مصر إمبراطورياتٍ اقتصاديّةً وأخرى إعلاميّة، وعندما سقطت الرّؤوس المرفوعة أمام الملأ، ظلّت وراءها رؤوسٌ أخرى تملك الكثير من المفاتيح والأدوات، وحاولت منذ البداية أن تنحني للعواصف حتّى تمرّ ثمّ تواصل السّير، وهكذا حافظت على كياناتها وأموالها

ومواقعها تقريبا، إلى أن وجد الجميع أنفسهم وجها لوجه استعدادا للمواجهة، بعد أن صارت قدرا لا مفرّ منه.

وكان الدّستورُ الجديدُ هو القطرةُ التّي أفاضت الكأس.

إنّ ما يحدث في مصر اليوم هو ضجيجٌ تصنعه نخبةٌ محدودةٌ تملك أصواتًا عاليةً عبر ترسانة الأسلحة الإعلاميّة المتطوّرة التّي بحوزتها، وتحاول من خلال ذلك صناعة شعب وهميّ بديل عبر خروج الآلاف، أو حتى مئات الآلاف إلى الشّوارع.. لأنّهم لا يمثّلون أيّ ثقل بين شعب يقارب تعداده التّسعين مليون إنسان.

نعم يخادعون أنفسهم فقط.. ولو كانوا غير ذلك لما خافوا من نتائج الصّندوق.

المشكلةُ في مصر ليست مع الرّئيس محمّد مرسي، والإخوان المسلمين... إنّها مع أيّ وضع جديد يسعى إلى قلب المعادلة رأسا على عقب، ويعمل على إرساء قواعد جديدة تَحْرِمُ اللّوبيّاتِ القديمةَ امتيازاتها التّي تعتقد أنّها حقّ مشروع لا ينبغي المساس به بأيّ حال من الأحوال، بل ترى نفسها في مراتب أعلى من المواطنين، وكيف لا وهي التّي أهدرت حقوقهم الماديّة والمعنويّة وصادرت حرّياتهم سنين طويلة..!!

وعودة إلى الصّحفيّين المهرّجين... وعبر مراجعة سريعة في تاريخهم المهنيّ وسِيَرِهم الذّاتية؛ ندرك مقدار الهوّة بينهم وبين الإعلام الحقيقيّ الذّي يحترم الجمهورَ، ويحرص على تقديم المعلومات الصّحيحة، ويتحمّل مسؤولياته الوطنيّة عند الأزمات والمحن.

2012-12-15

المحور الثّاني

في الثّورة السّورية.. الجرح النّازف في بلاد الشّام

في هذا المحور أحاديثٌ وشجونٌ عن ثورة الشّام التّي طالت...

في أحداث الثّورة السّورية كان ثنائيُّ التّاريخ والجغرافيا حاضرًا بقوة.. حضورٌ لم تعرف مثله ثوراتُ تونس ومصر وليبيا، وحتّى اليمن.

كان يا مكان في ذلك الزّمان عندما جلس الكبارُ وبين أصابعهم السّيجار.. ثمّ قرّروا مصائر الشّعوب..!!

في هذا السّياق:

ما أجمل ما خطّه قلمُ الصّحفيّ العربيّ يسري فُودَه، صاحب برنامج سرّي للغاية على قناة الجزيرة القطرية، في كتابه (في طريق الأذى) وهو يتحدّث عن وقائع دخوله العراق عام 2006 في محاولة، خطيرة وجريئة لإنجاز عملٍ صحفيّ لم تكتمل أسباب نجاحه..

من هناك يصفُ السّيد فُودَه حالَ العراق المبعثر: "... الفواصلُ بين ما هو مسلم وما هو مسيحيّ، وبين ما هو سُنّيّ وما هو شيعيّ، وبين ما هو عربيّ وما هو كرديّ، كانت جميعا إلى جانب فواصل أخرى حاضرةً أثناء هذه المغامرة الفريدة في كلّ خطوة من خطواتها. وأنّي لي أن أتخيّل الآن أنّ لحظةً من التّواطؤ الإمبرياليّ في أعقاب الحرب العالميّة الأولى قادت إلى قصم ظهور قبائل وعشائر وأفخاذ على جانبي حدود تعسفيّة رُسِمت على موائد العشاءات الفاخرة في لندن وباريس، ستقودُ بعد نحو قرن من الزّمان إلى غُصّة متراكمة.. وسط أجواء سياسيّة محليّة وإقليمية معقّدة".

هذا جانب.. والجانب الآخر: لماذا لم يسقط نظامُ الأسد...؟؟؟

هل هي بَرَكَة (محور الصّمود والمقاومة) في وجه المشروع الصّهيونيّ والغربيّ في المنطقة..؟؟!!!

أم أنّ القوى الكبرى لم تجد البديلَ المناسبَ الذّي يحمي المصالح، أو الذّي لا يحسن فعل شيء على الأقلّ.. وهو الأمر الذّي تجلّى في تصرّفات وردود أفعال نظام حزب البعث السّوريّ منذ النّكسة عام 1967، واحتلال دولة الكيان الصهيونيّ لمرتفعات الجولان السّورية..؟؟؟

كَثُرَ اللاّعبون في الميدان السّوريّ، وتشابكت الأهدافُ والرّؤى والمصالح، وكانت الغاية الأوضح والأقوى، عند القوى الغربية وروسيا وإيران: الوقوف بقوّة أمام أيّ تغيير يؤدّي إلى حكم ديمقراطيّ حقيقيّ.

وطبيعيّ أنّهم، والنّظام السّوريّ، لن يذرفوا دمعةً واحدةً على آلاف القتلى وملايين المهجّرين داخل وخارج سوريا.. فلم تكن الشّعوبُ يومًا في دائرة اهتمامهم.

الدّكتور ورياضة حمل الأثقال

لماذا يواصل الرّئيسُ السّوريُّ الدّكتور بشّار الأسد تحمّلَ الأثقال والدّفاع عن أفراد يحملون على أكتافهم إرثًا خطيرًا من الدّماء والانتهاكات وجميع أنواع الفساد والإفساد.. إنّها مخلّفات أكثر من ثلاثين عاما من الاستيلاء المنظّم على مقدّرات البلاد والتصّرف في ثرواتها ومداخل ومخارج تجارتها.. إنّه الفساد بكلّ تجلّياته وتطبيقاته تَجَسّدَ في الحالة السّوريّة خلال العقود الماضيّة.

التّساؤلُ عن استمرار الرّئيس بشّار في (رياضة حمل أثقال الغير) جاء على لسان محلّل سياسيّ سوريّ شابّ من واشنطن اعترفَ أنّه لم يكن على خلاف كبير مع نظام الأسد، أو على الأقلّ منظومته الإعلامية، حيث كان يُستضاف قبل عدّة أشهر عبر التّلفزيون الرّسميّ السّوريّ، لكنّه، وفي إحدى المرّات، قال كلمات كانت عادية في اعتقاده، وجاءت على غير مزاج أهل التّلفزيون ومَنْ وراءهم؛ فقاطعوه وصنّفوه ضمن الدّوائر المتآمرة والعناصر المندسّة التّي تعادي الوطن وتتحالف مع الأعداء، وغيرها من تلك الصّفات التّي تطلقها الأنظمةُ الشّموليةُ على كلّ من يخالف هواها مجرّد خلاف..!!

إنّه تساؤلٌ وجيهٌ ينطبق تماما على حالات عربية مشابهة.. والمشهدُ باختصار هو تورّط عناصر في الفساد الماليّ وحتّى ما هو أكبر من ذلك، وهكذا تخاف أن تكون عرضةً للمساءلة والمحاكمة بعد أيّ تغيير حقيقيّ يرفع عنها الحصانة التّي اكتسبتها بقوّة القانون المجهّز على المقاس، وجبروت النّفوذ والسّلطة والمال.

تهرُبُ العناصرُ المتورّطةُ في تبديد مقدّرات البلاد إلى سيناريوهات متكرّرة تختصر المشهد السّياسيّ والاجتماعيّ في عدد من وسائل الإلهاء والاستغفال، وتعتمد استراتيجيةَ إثارة موضوع بعد آخر: أزمة غذاء.. وقود.. مساكن.. استيراد وإغراق للسّوق.. غلق للمنافذ وشحّ في المواد.. تعدّدية سياسية مع تحجيم مدروس لها.. حرّية صحافة ثمّ تَلاعُبٌ بها بعد حين..!!

وتتزامنُ مع استراتيجية الإلهاء والهروب استراتيجية التّخويف، حيث تقوم الجهاتُ المختصّةُ، كلٌّ حسب دوره، بنشر ثقافة الخوف من أيّ تغيير محتمل والحجج والمبرّرات جاهزة: فالمنطقةُ ستشتعل نارا لو سقط النّظام السّوري مثلا.. والبلاد لن تعرف الأمنَ لو رحل ذلك الزّعيم الخالد.. والرّخاء

سيزول إلى الأبد بعد سقوط هذا النّظام أو ذاك.. ورسائل أخرى إلى الخارج حول الهجرة السّرّية والإرهاب وما شابه ذلك.

العناصرُ النّافذةُ التّي تحدّثَ عنها المحلّلُ السّياسيُّ السّوريُّ تقف أيضا وراء ذلك الكمّ الهائل من التّخمينات، وتطلقُ باستمرار أفكارا عجيبة عن مخطّطات إقليمية ودولية..!!

وفي هذا السّياق أحزنني حال سياسيّ سوريّ وهو يتحدّثُ بحرارة وغضب ونبرة صوت عالية عبر إحدى الفضائيات: أردوغان والمعادلة الدّاخلية والجيش التّركيّ والأجندة الأمريكية والاستحواذ على السّاحة السّياسيّة وغير ذلك..!!

شعرتُ أنّ الرّجل مسكينٌ بأتمّ معنى الكلمة لأنّه وقع في حبائل تلك العناصر آنفة الذّكر، وصار ضمن دائرةِ برنامجِها في محاولاتها اليائسة لتأجيل التّغيير وتجميد الأوضاع عند الحالة التّي تقبع فيها الآن.

محاولات الإلهاء والاستغفال تتكرّرُ بشكل آخر في الحالة السّورية، حيث نسمعُ لغوًا كثيرًا حول ذلك المخطّط الذّي يستهدف (سوريا العروبة والمقاومة) ليحرمنا بالتّالي من فلسطين محرّرة من البحر إلى النّهر ينوي الأسد ونظامه تقديمها هديةً للأمّة في الأيام القادمة، بعد أن ظلّت الجبهةُ السّوريّةُ مع دولة الكيان الصّهيونيّ خرساءَ لا تنطق طوال أكثر من ثلاثين عاما..!!

يستمرُّ مسلسلُ الاستغفال عندما نستمعُ إلى أولئك المدافعين عن النّظام السّوريّ عبر البكاء على مصير القوميّة العربيّة، وقرب أفول شمس تلك الأمّة (أمّة عربيّة واحدة ذات رسالة خالدة).. وينسون أو يتناسون أنّ تلك الرّسالة الخالدة لم تُكْتَب أصلاً، كما كان يحلو لزميل صحفيّ سودانيّ أن يمزح.

لم تكتب فعلا لأنّنا لم نلاحظ أيّ أثر فعليّ لها خلال العقود الماضية، بل كان الفراغُ هو سيّد الموقف، ومن هناك كانت الطّريق ممهّدة لغضب الشّعوب وما تلا ذلك من تدخّل إقليميّ ودوليّ مشبوه.

أيّها الباكون على سوريا والقوميّة العربيّة: أين كنتم قبل سنوات..؟؟

ألم تلاحظوا مسار السّفينة بوضوح.؟؟

ألم تدركوا أن ذلك الاستبداد الوحشيّ والغبيّ، في آن واحد، في طريقه إلى صناعة هذا الاحتقان الذّي ملأ البلاد وعمّ نفوس العباد..؟؟

لماذا لم تصدعوا بالحقيقة في وجه النّظام وأركانه..؟؟

لماذا لم تطلبوا من بقايا الشّرفاء أن يتحرّكوا بمسؤولية وصرامة ويتخلّصوا من تلك العناصر المثقلة بالدّم والمال الفاسد..؟؟

ومن هناك تتحرّك سفينةُ الوطن نحو تغيير حقيقيّ يأخذ في الحسبان ظروفَ الزّمان والمكان، وحساسيات الجوار وتناقضات الإقليم، وبرامج ومخطّطات القوى الدّولية.

إذا ظلّ هؤلاء على وتيرة خطابهم الحاليّ ونبرتهم العاليّة، فلن نندهش إذا عادوا إلى الأرشيف وسنوات الخمسينيات والسّتينيات من القرن العشرين، ثم راحوا يخطبون في الشّعوب العربية: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.. لأنّ النّظام السوريّ في حالة حرب مع إسرائيل وعلى الشّعوب أن تصبر نصف قرن آخر وتشرب من ماء البحر وتقتات بالعلقم والصّبّار.. وإذا لم تستسغ ذلك سيدينها هؤلاء جملةً وتفصيلاً لأنّها (مندسّة) تعمل لحساب الأعداء القادمين من وراء البحار..!!

إنّ المشهدَ باختصار شديد هو زمنٌ أعلن الرّحيل وزمنٌ آخر بدأت معالمه في التشكّل، وهذا أمر لا ينفع معه البكاء سواء كان حقيقيا صادقا على شاكلة بكاء الثّكلى، أو انتهازيا كما تفعل النّائحة المستأجرة.

لا ينفع معه سوى الإصغاء لصيحات الشّعوب والاستماع لنبضات قلوبها، والاستجابة لمطالب شريحة الشّباب حتّى تشعر أنّها بدأت تعيش لحظات الحريّة والكرامة الحقيقيّة، لا تلك التّي أَلْفَنَاهَا عن طريق الخُطَب والشّعارات المستهلكة.

2011-12-10

تأخيرٌ غير مُبرّر

شهدت سوريا عام 1963 انقلابا عسكريا قَادَه حزبُ البعث العربيّ الاشتراكيّ بالتّعاون مع بعض العناصر القوميّة في الجيش، وعام 1970 قاد وزيرُ الدّفاع وقائد السّلاح الجويّ آنذاك الفريق حافظ الأسد ما سمّاه حركةً تصحيحيّةً ليُنْتَخَب بعدها رئيسًا للجمهوريّة، وينفرد حزبُ البعث بحكم سوريا وتقرير مصيرها الداخليّ والخارجيّ، ويصلُ بها بعد هذه السّنوات الطويلة إلى المرحلة الرّاهنة بكلّ تفاصيلها المؤلمة.

حصادُ حزب البعث في سوريا كان مرّا إلى أبعد الحدود ولعلّ أكثر النّقاط سوداوية فيه تفريطه في هضبة الجولان السّورية، لأنّ القيادة البعثية أثناء حرب عام 1967 (عام النّكسة) أعلنت عن سقوط الهضبة قبل أن تعلن إسرائيل استيلاءها عليها، والأسوأُ أن تلك القيادة زايدت منذ ذلك الوقت إلى يوم النّاس هذا بالمقاومة وتحرير الأراضي المحتلّة..!!

والمثيرُ للسّخرية أنّها تعرّضت مرات عديدة لاعتداءات مباشرة من الكيان الصّهيونيّ، وكان البيانُ الذّي يصدر عن القيادة البعثيّة هو نفسه دون تعديل: شجبٌ واستنكارٌ واحتفاظٌ بحقّ الرّد في الوقت المناسب..؟؟

وطال انتظار ذلك الوقت حتّى حلّت هذه التّحولات على العالم العربيّ، وتفاجأَ نظامُ البعث بالحقيقة المرّة، وخانته الفطنةُ فوجد نفسه في مواجهة شعبه تحت مبرّرات أَكَلَ عليها الدّهر وشرب.

لجأ النّظامُ السّوريُّ بعد بداية الاحتجاجات الشّعبية إلى (قَشّة) المؤامرة الخارجية، وصدق وهو كذوب، لأنّ جهات دوليّة معروفة لها مصالح في المنطقة وتسعى لإيجاد معادلات جديدة قد تكون في خدمتها مستقبلا بدل الأنظمة البالية المنتهية الصّلاحية ومنها نظام حزب البعث، لكنّ المفارقةَ أنّ الرّئيس بشّار الأسد ومجموعته هم الذّين دعموا المؤامرة الدّولية وقدّموا لها المعارضة على طبق من ذهب..؟؟

الأمرُ واضحٌ كالشّمس في رابعة النّهار: احتجاجاتٌ ومظاهراتٌ تريد تغيير نظام عمره نصف قرن، وهو مطلب شرعيّ عادل، لأنّ التّغيير صار ضرورةً حتّى لو كان ذلك النّظامُ قد حوّل البلاد إلى جنّة، فما بالنا وقد تخصّص في صناعة التّخلف والهزائم بعد أن حوّل البلاد إلى سجن كبير..!!

لقد كان قطعُ الطّريق على المؤامرة الخارجيّة ميسّرا لكنّ النّظام فضّل غير ذلك.. وهكذا تحوّلت المظاهراتُ إلى صدامات، ثمّ بدأت عمليات التّسرّب من الجيش، وظهر الجيش السّوريّ الحرّ، وبدأ الحابلُ يختلط بالنّابل، وبدأ العالمُ يتحدّث عن تسليح المعارضة، وفتح ممرّات آمنة لقوافل الإغاثة وآلاف اللاّجئين في دول الجوار.

وهكذا قد تجد المعارضةُ الشّريفةُ نفسها يوما في خضّم مخطّطات الآخرين دون اختيار منها، لأنّ النّظام تحالف بقصد أو دونه مع (المؤامرة الخارجيّة)، ودفع معارضيه إلى تلك الزّوايا الضّيّقة.

إنّ قصّة الشّعوب العربيّة مع الحكّام تتقاطعُ مع قصّة الفيل الصّغير الذّي وقع في فخّ الصّيّادين بأفريقيا عندما كان عمره شهرين فقط، ومن هناك تمّ بيعه لرجلّ ثريّ، وقام المالكُ على الفور بوضع الفيل في حديقة الحيوان في محيط بيته الجديد، وأطلق عليه اسم "نيلسون".

عندما وصل المالكُ مع نيلسون إلى المكان الجديد قام العمّال بربط إحدى أرجل نيلسون بسلسلة حديدية قويّة، وفي نهاية هذه السّلسلة وضعوا كرةً كبيرةً مصنوعة من الحديد.

شعر نيلسون بالغضب الشّديد من جرّاء هذه المعاملة القاسيّة، وعزم على تحرير نفسه من هذا الأسر، ولكنّه كلّما حاول الحركة وشدّ السّلسلة الحديدية كانت الأوجاع تزداد عليه، فما كان منه عقب عدّة محاولات إلاّ أن استراح، وفي اليوم التّاليّ كرّر الشّيء نفسه، ولكن دون جدوى حتّى أحسّ بالتّعب فتمدّد على الأرض.

ومع كثرة محاولاته وتكرّر آلامه وفشله؛ قرّر نيلسون أن يتقبّل الواقعَ، ولم يحاول تخليص نفسه مرّة أخرى على الرّغم أنّه يزداد كلّ يوم قوّة وحجمًا، وبهذا استطاع المالكُ الثّريّ أن يروّض الفيلَ تمامًا.

وفي إحدى اللّيالي المظلمة ذهب المالكُ مع عمّاله، وفي غفلة من نيلسون قاموا بتغيير الكرة الحديديّة الكبيرة حيث استبدلوها بكرة صغيرة مصنوعة من الخشب، وكانت فرصةً نادرة أمام نيلسون لتخليص نفسه، والهرب من الحديقة، ولكنّ الذّي حدث كان العكسُ تمامًا..!!

لقد "تَبَرْمَج" الفيلُ على أنّ محاولاته ستبوء بالفشل وتسبّب له الآلام والجراح، وكان مالكُ حديقة الحيوانات يعلم تمامًا أنّ الفيل نيلسون قويّ للغاية، ولكنّه كان قد تَبَرْمَج على عدم استخدام قدراته.

وفي أحد الأيّام حضر فتى من أقارب الرّجل الثّريّ إلى الحديقة، ولاحظ نيلسون وكرتَه الخشبيةَ، فبادر وسأل المالك: هل يمكنك يا سيّدي أن تشرح لي كيف لا يتمكّنُ هذا الفيلُ القويُّ من تخليص نفسه من هذه الكرة الخشبية..؟؟

فردّ الرّجل: بالطّبع أنت تعلم يا بنيّ أنّ الفيل نيلسون قويّ جدًا، ويستطيع تخليص نفسه في أيّ وقت شاء، وأنا أيضًا أعرف هذا، ولكنّ سرّ هذا الأمر هو أنّ الفيل لا يعلم ذلك، ولا يعرفُ الآن مدى قوتّه الذّاتية..!!

نعم هذا ما فعلته بعض الأنظمة، وعلى رأسها النّظام السّوريّ، بالشّعوب عندما أخافتها سنوات طويلة، حتّى ظنّت الشّعوب أنّ هذه الحكومات قَدَرٌ لا مفرّ منه، وأنّه لا حول ولا قوّة للمواطن إلى أبد الآبدين..

وفجأة، ودون إرهاصات كبيرة، عرفت الشّعوبُ أنّ الكرةَ خشبيةٌ فبدأت محاولات التّحرّر والعودة إلى حياة الحرّية.. وفي المقابل لم تستقبل الحكوماتُ رسائلَ الشّعوب وراحت تتحدّث عن مؤامرات وتدخّلات أجنبية دون لحظة تفكير واحدة تدرك من خلالها حقيقة الزّمن وما طرأ عليه من تغيّرات..!!

غريبٌ أمر حكّام سوريا.. يجثمون على صدر البلاد نصف قرن، وعندما يثور الشّعبُ يدعونه إلى استفتاء حول دستور على المقاس يمكّن الرّئيس بشّار الأسد من البقاء في السلطة إلى عام 2028.. كفاية.. لقد تأخّرتم كثيرا ودون أيّ مبرّرات، ولو كانت واهية وسخيفة.

2012-03-03

سوريا ليست تونس ومصر..!!

أخيرا يعود السّيّد الأفريقيّ كوفي عنان إلى واجهة الأحداث بعد مغادرته كرسيّ الصّدارة في منظّمة الأمم المتّحدة مُفْسِحًا المجال لوجه آخر هو بان كي مون.. يعود الرّجلُ الهادئ، كما يبدو في الصّور والمقابلات التّلفزيونيّة، مبعوثًا مخضرمًا هذه المّرة بعد أن حاز على ثقة الأمين العامّ لجامعة الدّول العربيّة، ومعها ثقة الأمين العام للأمم المتّحدة.. ووجهة الرّجل الهادئ هي سوريا غير الهادئة منذ أكثر من عام.

دخولُ كوفي عنان على الخطّ مؤشّرٌ واضحٌ على إرادة ما يسمّى المجتمع الدّولي في إطالة عمر الأزمة السّورية، وتوجيه مسارات الأحداث والمآسي فيها نحو أنفاق مجهولة، حتّى لو بدت تلك الأنفاق متلألئة بفلاشات الكاميرات وأضواء قاعات المؤتمرات الصّحفيّة والاجتماعات الدّولية والإقليميّة والعربيّة.

الأمم المتّحدة زارت، عبر مسؤولة بارزة فيها، حيّ بابا عمرو بمدينة حمص المنكوبة، وعلى أرض سوريا أعلنت تلك المسؤولة عن صدمتها من هول الدّمار الذّي عاينته في الحيّ الذّي تعرّض للقصف المدفعيّ أسابيع طويلة، وكان الرّد السّوريُّ الرّسميُّ جاهزًا ومحاولاً قلب الصّورة عبر التّأكيد على أنّ ذلك الدّمار من صنيع الجماعات المسلّحة، وهو عذر أقبح من ذنب لأنّ على النّظام المغادرة، لو كان صادقًا في ادّعائه، بعد أن أثبت عجزه عن حماية شعبه والتّصدّي لجماعات بهذا القدر البشع من الوحشيّة..!!؟؟

منظّمة الأمم المتّحدة تُعِدّ العدّةَ لبرنامج مساعدات يدوم ثلاثة أشهر ويمكن من خلاله إيصال مليون ونصف مليون طنّ من المساعدات إلى المتضرّرين في عدد من المناطق السّورية، والمدّةُ على قصرها طويلةٌ جدا قياسا بما يحدث من عمليات قتل ودمار مستمّر، والأشهر الثّلاثة إشارة واضحة سوف يلتقطها أكثر من طرف، ومن هناك يمكن ترجمتها إلى أنّ الوضع سيظلّ على حاله ولا شيء في الأفق يبشّر بمحاولات جادّة لإنهاء الصّراع وإعادة حالة الأمان إلى ربوع البلاد السّورية.

لا شكّ أنّ هناك جهودا عربيّة مخلصة، من بعض الدّول على وجه الخصوص، تعمل على احتواء المشكلة عربيا أو إقليميا، ومن ثمّ إبعاد شبح إطالة عمر الأزمة عن سوريا والمنطقة بكاملها، لكنّ الحقيقة التّي نعرفها جميعا أنّ القيم (السّالبة) التّي تحكم عددا من القوى الكبرى ليست شبيهة بتلك التي تحكم الجمعيات الخيرية والإنسانية ومنظّمات الإغاثة الدّولية وغيرها.

لقد راقب (المجتمعُ الدوليّ) الجامعةَ العربيّةَ وهي تعالج الملفَّ السّوريّ منفردة، أو هكذا بدا الأمر على الأقلّ، وتابع العالمُ تجربةَ المراقبين العرب وغيرها من المحاولات، وكان من الواضح أنّ عمليات القتل والتّنكيل والدّمار لم تكن تعني (الكبار) في واشنطن ولندن وباريس وبرلين، وأنّ خطّتهم ظلّت تسير على وتيرة عاديّة، فالطّبخة بكاملها تتمّ فوق نار هادئة جدا..!!

والحقائقُ على الأرض تقول إنّ نصف قرن من حكم حزب البعث، أو التّحالف الماليّ الأمنيّ، لم يعد مقبولا في سوريا بأيّ شكل من الأشكال، حتّى بعد اعتماد السّلطة للدّستور الجديد الذّي خلا من تلك الفقرة التّي تؤكّد قيادة الحزب للدّولة والمجتمع.

والخطوة التّالية إذن، عاجلا أو آجلا، هي التّغيير الدّيمقراطيّ في سوريا، وإن جاء بعملية قيصريّة مؤلمة ازدادت فظاعتها عبر أدوات نظام الدّكتور (طبيب العيون) بشّار الأسد..!!

لقد تفاجأ الغربُ بما حدث في تونس ثمّ مصر، وحاول بعد ذلك تدارك نفسه في ليبيا فظهر بمظهر (الصديق الطّيّب البريء) الذّي يساعد الشّعبَ اللّيبيّ على التّخلّص من الاستبداد، وإن حاول (تطوير) الأزمة هناك عندما انطلقت في الشّهور الأولى دعوات غربية لإقامة خطّ هدنة بين مناطق نظام القذّافي ومناطق معارضيه، لكنّ الأمر حُسم بعد ذلك.

إذا كان ذلك هو حالُ الغرب مع ما سبق من ثورات عربيّة، فها هو في سوريا أكثر حرصا على إطالة عمر الأزمة وإدارتها بطريقة تخدم مصالحه ومصالح حلفائه في المنطقة، خاصّة إسرائيل.

يريد الغربُ تدميرَ سوريا ما استطاع إلى ذلك سبيلا، عبر الحفاظ على الوضع القائم من خلال استمرار الدّمار، وتحوّل المظاهرات السّلمية إلى مواجهات مسلّحة عندما يزيد عدد المنشقّين عن الجيش النّظاميّ الرّسميّ، والملتحقين بالجيش السّوري الحرّ وغيره من التشكيلات المسلّحة التّي قد تظهر في أيّ لحظة بعد أن صارت البيئة صالحة لنموّها وازدهارها.

وبعد أن يقترب النّظام من السّقوط النّهائيّ سوف يحرص الغربُ على أن تكون صافرة النّهاية بيده هو، فيُقْدم على ضربة شبه عسكرية، أو حتّى صفقة سياسية مع روسيا والصّين وربّما إيران

أيضا، وهكذا يضعُ في ثنايا العقل الجمعيّ العربيّ رسالةً مفادها أنّ التّغيير لن يأتي إلاّ من الخارج، وأنّ على الشّعوب العربيّة أن تؤمن بعجزها الأبديّ، وأنّ ما حدث في تونس ومصر هو حالةٌ شاذّةٌ على العرب أن يخزّنوها للذّكرى فقط، وفي مكان مهجور من الذّاكرة يصعب الوصول إليه..!!

وفي الوقت ذاته يسلّم الغربُ للمعارضة السّورية دولةً وشعبًا في حاجة إلى سنوات طويلة للتّعافي الأوّلي من التشوّهات العميقة في جميع الأنحاء والاتّجاهات.

ومع كلّ ما سبق لا ينبغي للعاقل أن يلوم أعداءه كثيرا ولو أفرطوا في استخدام قاعدة (الغاية تبرّر الوسيلة)، و(الأخلاق صناعة الضّعفاء) وغيرها من النّظريات الفكريّة التّي تقوم عليها سياسة الاستعمار الغربيّ القديم والمعاصر؛ لأنّ اللّوم في هذه الحالة هو مجرّد بكاء لا طائل من ورائه، ونواح في غير وقته.

إنّ لعنةَ التّاريخ ستقع على رؤوس رموز الاستبداد في جميع بلدان العالم العربيّ، ومعهم أيضا كلّ من نظّر وبرّر وساعد، وحتّى من سكت وفضّل السّلامة وكان في وسعه أن يفعل شيئا لتحريك بعض جوانب المياه العربيّة شبه الرّاكدة منذ عقود طويلة.

2012-03-10

ما أشبه اللّيلة بالبارحة

دأب البعضُ منذ سنوات على استحضار أحداث التّاريخ، وإسداء النّصائح للزّعماء والحكّام، وتذكيرهم بالمصائر السّوداء والنّهايات المأساويّة لعظماء وملوك وجبابرة في الشّرق والغرب ظنّوا أنّهم خالدون على العروش والكراسي.. لكنّ المفارقةَ هذه الأيّام أنّ المواعظَ على المباشر ودون واسطة؛ فقد شاهد النّاسُ هروبَ الرّئيس التونسيّ، ثمّ هوان المصريّ، والنّهاية الفظيعة التّي اختارها العقيد القذّافيّ خاتمةً لمشواره.

نعم.. ما أشبه اللّيلة بالبارحة، وما أقرب الأيّام بعضها من بعض، وما أحوج الحكّام إلى الاعتبار من أحوال أقرانهم بعد أن صارت المشاهد متاحةً للجميع وسيناريوهات الأحداث واضحة للعيان، ووعي وغليان الشّعوب فوق التوقّعات والحسابات، ومخالب القوى الكبرى وأنيابها على شاشات الفضائيات..!!

للمرّة الألف وأكثر من ذلك.. يمكن القول إنّ الاستبداد تلميذ غبيّ أكثر مما نتصوّر.. وإلاّ فما أغنى الرّئيس الطّبيب بشّار الأسد عن كلّ هذه المصائب.. وما أسهل الحلول المتاحة بين يديه: انتخابات حرّة، أو نصف حرّة على الأقل، وانفتاح على المعارضة، وتضييق على لوبيات الفساد، ثمّ تبدأ العمليّة السّياسيّة في السّير بطريقة سَلِسَة للغاية، وينسحبُ الرّجل بقامة سياسيّة طويلة، ويتحوّل إلى رئيس سابق يحترمه شعبُه، أو قسمٌ منه على الأقلّ، ويقدّر له العالمُ صنيعَه.

هل يحتاج هذا السّيناريو إلى مخابر بحث عالية الخبرة، أو ذكاء سياسيّ خارق للعادة، ومستشارين من عالم الجنّ الذّي يقال إنّه أكثر تقدّما من عالم الإنس في جوانب كثيرة..؟؟!!

كلاّ وألف كلاّ.. إنّه في حاجة فقط إلى نزع العصابة السّوداء التّي تحجب النّظر عن عيون الرّئيس الزّعيم، ومن هناك تذوب كرةُ الثّلج التّي تغطّي الحقيقة المُرَّة، لأنّ (الكذبة كرة ثلجية تكبر كلّما دَحْرَجَها صاحبُها)، على حدّ قول مارتن لوثر رائد الإصلاح الدّينيّ في أوروبا.

إنّ بشّار ومن هم على شاكلته قد أدمنوا سماع التّقارير الكاذبة، وتكوّنت حولهم عصابات انتهازية نفعية لا مستقبل لها إلاّ مع هؤلاء المستبدّين، ولهذا السّبب يواصلون تزيين المشاهد وتزوير

الحقائق ليظلّ رأسُ النّظام على قناعة أنّه في منأى عن أيّ رياح تغيير، وأنّ حاله ليس كمن سبقه من الزّعماء، وهكذا رأينا كيف قال مبارك إنّ مصر ليست تونس، وقال القذّافيّ إنّ ليبيا ليست مصر وتونس، وردّد بشّار تلك العبارات أيضا.. ولا ندري هل زالت الغشاوةُ عن الباقين، أم تراهم يردّدون سرّا وجهرا تلك الكلمات المستهلكة.

لعلّ التّفسير المناسب لما حدث ويحدث هو عدالة السّماء، وكيف تريد للشّعوب المقهورة أن ترى نهايات جلاّديها دون أن يحضوا بأيّ فرصة للنّجاة من العقاب، وهكذا يرى الظّالمُ نهايَته بأمّ عينيه، بل ينتظرها لحظة بلحظة، ويموت رعبا ومرضا وأرَقًا مليون مرّة قبل أن يصل إليه الموت الجسديّ..!!

يموت بعدد الضّحايا الذّين عانوا من نظام بطشه.. وتتشتّتُ عائلته في أقطار الأرض بقدر تشتّت الضّعفاء والأبرياء سنين طويلة في شتّى أنحاء العالم، كما حدث في ليبيا وسوريا.. ويرى الظّالمُ قصورَه وأموالَه التّي جمعها تزول مثلما اجتهد زبانيته في إزالة أيّ أثر لحياة حرّة كريمة لأبناء الشّعب..!!

الحديثُ في الملفّ السّوريّ، كما في اللّيبيّ وغيره، يصل عبر تحليلات البعض إلى تلك النّتيجة المعروفة وهي سيطرة المعسكر الغربيّ على العالم، ومعالم حرب باردة جديدة ظهرت بشكل أوضح في الصّراع على سوريا، وكلام كثير يدور في هذا السّياق..؟؟

والقناعةُ التّي يريد بعض المحلّلين والسّياسيّين، ومنهم السيّد حسن نصر الله، دسّها في عقولنا هي التّسليم بالمؤامرة، خاصّة في سوريا، ومن ثمّ التّباكي على آخر قلاع الصّمود في وجه الإمبريالية الأمريكية والغربية..!!

والحقيقةُ أنّ التّساؤلَ مشروعٌ في هذا المضمار: هل هناك مؤامرة فعلا على العالم العربي..؟؟

والجواب إنّها كانت خلال العقود الماضية.. أمّا الآن فلم تعد هناك أيّ مؤامرة تُحَاك في السرّ وتتسرّبُ خيوطُها بعد حين، وقدّ تظلّ بعض فصولها أسرارا إلى الأبد، لأنّها ماتت بموت طرف فاعل فيها.

إنّها الآن لعبة مصالح مكشوفة نتابع أشواطها على الفضائيات من خلال جلسات مجلس الأمن الدوليّ، وزيارات هيلاري كلنتون، وتحرّكات رؤساء دول غربية، ومواقف وتصريحات الرّوس والصّينيين.

إنّها خطّة كوفي عنان والطّبخة الدّولية التّي انبثقت عنها، وهي إضعاف سوريا عبر إطالة عمر الأزمة القائمة وتحويلها إلى حرب أهلية، ومن ثمّ تسليم البلد مهشّمًا إلى المعارضة، لتبدأ رحلة المعاناة، ومؤتمرات إعادة الإعمار والحاجة إلى صندوق النّقد الدوليّ وقرينه البنك الدّولي.

لكن.. من هو المسؤول..؟؟

هل هو الشّعب السّوريّ، أم ذلك النّظامُ الذّي فشل في كلّ شيء، إلاّ في القبض بيد من حديد على السّلطة، وتحويل البلاد إلى مزرعة خاصّة، والعبادُ فيها عمّالٌ أجراء ليس لهم سوى شكر السّيد الرّئيس على إنجازاته ومشاريعه وقهقهته وهو يخاطب شعبه دون أيّ مراعاة لمشاعر الضّحايا وأنهار الدّماء التّي تسيل ليل نهار..!!

إنّ الاستغلالَ الأمريكيَّ للرّبيع العربيّ حقيقةُ ماثلة للعيان، لكنّ وعيَ الشّعوب ونفاذ صبرها حقيقةٌ أخرى أكثر سطوعا، والسّبب هو الملل والغثيان الذّي أصاب المواطن العربيّ بعد تراكم جميع أنواع الرّداءة في المشهد السّياسيّ الرّسميّ العربيّ.

لقد ورث الابنُ الحكمَ عن أبيه في نظام جمهوريّ، وفي ظلّ أنظمة الفساد والاستبداد صار القانونُ مجردَ آلة تُصدِر أصواتا جميلة، أمّا الحريّة فهي في أحسن الأحوال أن يقول الشّعب ما يشاء، وللزّمرة المتسلّطة أن تفعل ما تشاء، وتحوّلت الدّيمقراطية في أغلب بلادنا العربية إلى شيء أشبه بالفنون الزّخرفية يُستخدم لتحسين صورة الأنظمة القائمة دون أيّ تداول حقيقيّ أو حتّى شكليّ على السلطة.

2012-07-21

خِيلِي مَمْنُون

منذ أكثر من ثلاثين عاما ونظام الجمهوريّة الإسلاميّة يغنّي بأعلى ما لديه من أصوات حول تحرير فلسطين.. ولأنّ ساسةَ طهران حاولوا دائما إقناعَ الشّعوب العربيّة والإسلاميّة بأنّهم في خطّ النّار الأوّل للدّفاع عن فلسطين الجريحة؛ فقد كان من الواجب عليهم، شرعًا وسياسةً، المساهمةُ في إسقاط نظام بشّار الأسد بعد انقضاء السّنة الأولى من بَدْء الحَراك الشّعبيّ في سوريا..!!

كلامٌ قد يبدو ضربًا من الهذيان في الوهلة الأولى خاصّة للذّين يدركون طبيعةَ التّحالف الاستراتيجيّ بين نظام حزب البعث في سوريا و(الآيات والحُجَج) في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

لكنّ هذا الرّأيَ يستند إلى ثلاثة عقود من الخطابات والبيانات والمواقف (الصّلبة) والدّعم العلنيّ لقضية فلسطين، حتّى بات قطاعٌ من العرب والمسلمين لا يعرفون للفلسطينيين ظهيرا سوى أصحاب العمائم السّوداء في بلاد فارس وأتباعهم في لبنان..!!

وإلى هذا الحدّ يطلّ السؤالُ سريعًا برأسه: وما علاقة ذلك بالمساهمة في إسقاط نظام الأسد..؟؟

العلاقةُ واضحةٌ وضوحَ الشّمس في رابعة النّهار، وهو أنّ نظام الجمهورية الإسلامية لا همّ له إلاّ تحرير فلسطين، أو هذا ما يصدّع به رؤوسنا على الأقل.. وهكذا سوف يدرك المخططَ الغربيّ في سوريا بعد مرور سنة من الانتفاضة وتحوّلها إلى حرب مدن تأكل الأخضر واليابس.

والمخططُ باختصار هو إسقاط النّظام في دمشق والتّمكين للمعارضة، لكن بعد خراب مالطة كما يقال.. أي بعد أن تتحوّل البلادُ إلى أطلال وتتراكم الثّاراتُ والمشاكلُ الاجتماعيةُ، وتزول آثارُ البنية التّحتية وتُمحى مؤسّسات الدّولة.. ثمّ تبدأ سوريا حياتها من تحت الصّفر، وتحتاج إلى سنوات طويلة لتقول لإسرائيل: أنا هنا.

قد يقول قائل: لكنّ أنّى لإيران (المقاومة والصّمود) أن تثق في فصائل المعارضة السّورية وعلاقاتها (المشبوهة) بالولايات المتّحدة الأمريكية..؟؟

والجواب لا يحتاج إلى عمليات بحث واستقصاء عميقة، لأنّ نظرة سريعة على طبيعة الشّعب السّوريّ وأدبيات فصائل الثّورة في الدّاخل، وذلك الشّباب الذي يقود المظاهرات ويحمل السّلاح؛

كافية لبث الطّمأنينة في قلب النّظام الإيرانيّ (الحريص على القضيّة الفلسطينية)، فما هي إلاّ فترة وجيزة وتدخل سوريا، ما بعد الأسد، في انتخابات حرّة ونزيهة ليشاهد العالمُ كيف ينتصر الشّعب السّوريُّ لمشاريع المقاومة والصّمود.. وهكذا فليضع النّظام الإيراني (بطّيخة صِيفي) في بطنه، كما يقول المثل المصريّ، إذا كان يخاف على فلسطين والمقاومة بعد رحيل الأسد ونظامه.

نعم.. هذا هو الموقف الصّحيح الذّي ينسجم مع القيم المعلنة للجمهورية الإسلامية، لكنّ ما حدث هو العكس تماما حيث الإصرارُ على دعم نظام الأسد إلى آخر لحظة، والمساهمة، بالتّالي، في تدمير سوريا وتعميق جراحات شعبها وتركها بعد ذلك فريسة للدّول الغربية ومؤسّساتها ومخابراتها، لأنّ أفواه البلاد حينها ستكون مفتوحة لأيّ شيء ولو أدركت أنّ السمّ يُدسّ لها في الدّسم..!!

لقد تابعنا المواقفَ الإيرانيةَ تجاه ثورات الرّبيع العربيّ ورأينا كيف رحّبت بالتّغييرات التّي حدثت في تونس ومصر، وحتّى ليبيا رغم مساهمة حلف النّاتو والولايات المتّحدة الأمريكية في إسقاط نظام القذّافيّ، لكنّ موقفها تجاه الحَراك الشّعبيّ السّوريّ، الذّي بدأ واستمرّ سلميا لمدّة معتبرة، كان مُسْتَهْجَنًا للغاية، ثمّ زاده إيغالاً في كواليس الانتهازية والنّفعية استمرارُ الاحتجاجات والمظاهرات في مملكة البحرين.. وهكذا يكاد المتابعُ لمواقف النّظام الإيرانيّ، وأجهزة إعلامه المتعدّدة، أن يصاب بالغثيان؛ ففي البحرين دعوات للحريّة والإصلاح، وفي سوريا إرهاب ومخطّطات أجنبية ومؤامرات ضدّ المقاومة..!!

إنّ الأنظمةَ الشّموليةَ تتشابه في طرق التّفكير فتسقط في الأخطاء السّخيفة ذاتها، ومنها ذلك الخطاب الخشبيّ القديم.

وهكذا راح النّظامُ الإيرانيُّ يخاطبُ العالمَ العربيَّ والإسلاميَّ وكأنّنا في الثّمانينيات من القرن الماضي، أو حتّى التّسعينيات، ونَسِيَ أنّ منسوب الوعي قد تضاعف مرّات عديدة، وأنّ ما كانت تصدّقه بعضُ النّخب العربية والإسلامية التّي تحضر مؤتمرات واجتماعات طهران، وما أكثرها، لم يَعُد مستساغًا لدى مواطن عاديّ يتابع نشرات الأخبار ويوازن بين آراء المحلّلين والمعلّقين وتقارير الصّحفيين المتمرّسين.

إنّ قصائدَ ومعلّقاتِ (الشّيطان الأكبر) و (مقاومة الصّهيونية) صارت مجوجةً بعد أن تابعْنا نظامَ الجمهورية الإسلامية وهو يدير ظهره لسنوات العداء مع الولايات المتّحدة الأمريكية ويغضّ

الطّرف عنها، حتّى لا نقول كلاما آخر، في العراق، وقبل ذلك في أفغانستان، وكان في مقدوره إفشال المخطّط الأمريكيّ في المنطقة بكاملها، لكنّه فضّل الجلوس على الطّاولة الخضراء مع الكبار، واللّعب بجميع الأوراق المربحة لديه لحسابات تهمّه وحده، وإن جاءت في اتّجاه معاكس لأدبيّاته حول المقاومة والصّمود والأمّة الواحدة..!!

وحتّى لا نغمط إخواننا الإيرانيين حقّهم في حفظ مصالحهم وتقوية شبكة نفوذهم؛ دعونا نسلّم بأنّهم على صواب فيما فعلوا من وجهة نظرهم، ووجهة نظر سياسة المنافع التّي تتحكّم في أكثر دول العالم.

لكن.. من حقّنا أن نستفيقَ وندركَ حقيقةَ ما يجري حولنا، ونتعافى من (داء الغفلة) الذّي أصاب كثيرا منّا لسنوات طويلة.. من حقّ الإيرانيين أن يكونوا أذكياء، ومن حقّهم إدارة لعبة الصّراع النّوويّ مع الكبار بدهاء و(تُقْيَة)، وشكرا جزيلا لهم على وقوفهم مع فلسطين، أو(خِيلِي مَمْنُون) كما يُقَال بالفارسية، لكن في المقابل: من حقّنا نحن أيضا أن نتفحّص العملات ونميّز بين الأصيل منها والمغشوش.

إنّ المعطيات الجديدة غيّرت معادلةَ الصّراع بعد أن شعر المواطنُ العربيُّ بكيانه، وراح يتابعُ قيادات ومواقف غير عادية قد تنسيه مع الأيّام (جَعْجَعَةَ) النّظام الإيرانيّ حول فلسطين واحتكار حزب الله، وزعميه حسن نصر الله، للمقاومة والدّفاع عن فلسطين.

وقد تكشف فترة ما بعد نظام الأسد سرّ تفرّد حزب الله بسلاح المقاومة في لبنان كلّ هذه السّنوات الطّويلة..؟؟

2012-08-25

دُو بارَة.. خِيلِي مَمْنُون

حول مقالي قبل الماضي، في هذه الزّاوية، كتب إليّ أحدُ الزّملاء قائلا: محتوى المقال غير متوازن وفيه دعاية مجّانية ضدّ إيران وحزب الله والنّظام العلويّ الشّيعيّ في سوريا ومحتواه يصبّ لصالح الأنظمة التّي تعادي إيران... أَرَى الصّراع في تلك المنطقة صراعُ سنّة بقيادة السّعوديّة وقطر والبقيّة المعروفة، وبين شيعة بقيادة إيران والعلويّين في النّظام السّوريّ.

ويواصل الزّميل الصّديق مُدَلِّلاً على ما ذهب إليه: ".. إنّ الصّراع ذاته تجلّى في لبنان بين العلويّين الشّيعة والسّنّة، وسقط قتلى من الطّرفين، وذلك لجرّ حزب الله إلى المعركة ليتطوّر الوضع إلى حرب بين الشّيعة والسّنّة.. ولا علاقة للجيش الحرّ والمعارضة السّورية بحربها ضدّ الدكتاتورية ونظام الأسد وإقامة الدّيمقراطية، بقدر ما يمثّل الجيش الحرّ طليعة جيش السّنّة المدعوم من السّعودية وقطر لإسقاط الشّيعة".

وبعد شكر الزّميل على رسالته وانتقاده لمقالي، وهو سنّيّ جزائريّ حتّى لا يُتّهم بالطّائفية، أبدأُ بالتّأكيد مرّة أخرى على ما طرحتُه في مقالي المُعَنْوَن بـ (خِيلِي مَمْنُون)، وكانت المقدّمَةُ كالتّالي: (منذ أكثر من ثلاثين عاما ونظام الجمهورية الإسلامية يغنّي بأعلى ما لديه من أصوات حول تحرير فلسطين.. ولأنّ ساسة طهران حاولوا دائما إقناع الشّعوب العربية والإسلامية بأنّهم في خطّ النّار الأوّل للدّفاع عن فلسطين الجريحة؛ فقد كان من الواجب عليهم، شرعا وسياسة، المساهمة في إسقاط نظام بشّار الأسد بعد انقضاء السّنة الأولى من بدء الحراك الشّعبيّ في سوريا).

ورُحْتُ بعدها أُدَنْدِنُ فقط حول (خُطَب ومهرجانات) نظام (الآيات والحُجَج) حول فلسطين، وعلاقة ذلك بما يحدث في سوريا الجريحة اليوم، واحترمتُ حقّ إخواننا الإيرانيين في دعم المقاومة والصّمود، لكنّني انتقدتُ دورهم غير المباشر، ولا نريد أن نقول غير ذلك، في تدمير سوريا عبر مواصلة دعم منظومة حكم أكل عليها الدّهر وشرب، مع أنّ بين أيدي ساسة طهران أوراقا أخرى يمكن اللّعب بها غير تطويل الأزمة ومضاعفة عدد القتلى والجرحى والمشرّدين وزيادة أحجام الدّمار والمآسي وفرص التّدخّل الأجنبيّ.

قال الصّديقُ إنّ في المقال دعايةً مجّانيةً ضدّ إيران، ولا أدري أين وجد ذلك سواء في الكلمات الظّاهرة، أو بين السّطور أو أيّ تلميح وتعريض بعيد..؟؟

لكن.. يبدو أنّنا لم نتخلّص بعد في العالم العربيّ من عقدة النّقص أمام إيران (الثّورة، والبرنامج النّوويّ، والعنتريّة في وجه أمريكا والغرب، والتّهديد بمحو إسرائيل من الخارطة)..!!

وإلاّ فما معنى أن يتحدّث الزّميلُ، وهو كاتب ومثقّف، عن ذلك التّصنيف القديم (أنظمة تعادي إيران) بعد موجة العواصف التّي تشهدها المنطقة، والمخاض الذّي قد يأتي بقوى سياسية جديدة تحمل برامج نهضة وتنمية حقيقية تعيد لبلداننا مكانتها التّي بدّدتها أنظمة ثلاثيّ (الاستبداد، العمالة، الفساد).

إنّ منظومةَ الحكم في إيران، سيّدي الفاضل، لا تختلف كثيرا عمّا عرفناه في كثير من بلداننا العربيّة، وهي بعد أكثر من ثلاثين عاما على ثورة الخمينيّ على هذه الصّورة: حكمٌ يقوم على توازنات بين القوى المتصارعة، وشعبٌ يكابد ضائقة اقتصادية، وأقلّيات، بَلُوش وأكراد وعرب، تعاني التّهميش وتطالب بحقوق المواطنة الكاملة، لكنّ ما يغطّي المستور هو تلك الصّورة التّي تبدو ساطعة حول البرنامج النّوويّ والصّمود في وجه الغرب..!!

صديقي العزيز: ثقْ تماما أنّ إيران ليست في حاجة إلى من يناوئها عبر (دعاية مجّانية) كما وصفتَ بعض ما جاء في مقالي، أو دعاية مدفوعة الأجر، لأنّ حجم التّناقضات التّي مَارَسَتْهَا في العراق، وأفغانستان بدرجة أقل، ثمّ سوريا الآن تكفي لوضع النّظام الإيرانيّ في مكانه الصّحيح بين الأنظمة، وهو أنّه في أحسن الأحوال لا يحسن إلا لغة المصالح، عاجلة وآجلة، كما أنّه يمتلك من المرونة، والتُّقْيَة، ما يؤهّله للأكل على كثير من الموائد، وحتّى أشدّها رجسًا وحرمةً..!!

هذا فقط ما أريد التّأكيد عليه حتّى لا نُصاب ببليّتين في وقت واحد: بليّةُ الأنظمة التّي تحكمنا، وبلّيةُ الإعجاب بالنّظام الإيرانيّ وانتظار الخلاص على يديه..!!

أمّا (الموت) على خطّ أنّ (الصّراع في تلك المنطقة صراع سنّة بقيادة السّعودية وقطر والبقية المعروفة، وبين شيعة بقيادة إيران والعلويّين في النّظام السّوريّ)، وهو رأي يُرَوِّجُ له الكثيرون، فهو انتقاص من قدرة الشّعب السّوريّ على مجرّد الشّعور بحقّه في الحريّة والدّيمقراطية..!!

لقد جاءت انتفاضة الشّعب السّوريّ السّلمية في سياق ما عرفته دول أخرى، وبعدها ربّما اختلط الحابلُ بالنّابل خاصّة في ليبيا وسوريا.. لكنّ دعونا نتّفق على أنّ البداية بريئة، ومن حقّ

الشّعوب الشّعورَ بالغثيان من الوجوه القديمة المتآكلة التّي لا تمّل ولا تكّل من الجلوس على الكراسي..!!

وهكذا مهما روّج المروّجون، أو حاول المتسلّقون من أبناء الغرب، فمن المستحيل العثور على دليل، وحتّى شبهة دليل، على أنّ محمد البوعزيزيّ، رحمه الله، تلقّى أموالا ليضرم النّار في جسده، أو حضر دوراتٍ تكوينيّة في الولايات المتّحدة، أو تواصل مع منّظمات غير حكومية فرنسية وبريطانية ولو عبر الفيس بوك.

وعودة إلى إيران لنؤكّد مرّة أخرى على حقّها في دعم القضيّة الفلسطينيّة، ونؤكّد في المقابل على حقّنا في ارتداء الدّروع الواقية من (سهام الاستغفال) التّي أدمنت طهران على إطلاقها، ومنها ما تابعناه في القمّة السّادسة عشرة لدول منظّمة عدم الانحياز التّي شهدتها العاصمة الإيرانية في الثّلاثين من الشّهر الماضي، حيث تكلّم مرشد الجمهورية، السّيد علي الخامنئي، مطوّلا عن فلسطين والمؤامرات الدّولية، ولم يُشِر من بعيد أو قريب إلى المأساة السّورية..!!

لنقول لإخواننا الإيرانيين شكرا جزيلا مرّة أخرى، أو خِيلِي مَمْنُون دُو بارة، كما يقولون بالفارسيّة.

2012-09-08

المِلْكية الإقليميّة

هل تفعلها الدّول العربيّة، وجيرانُها الفاعلين، وتصنع التّاريخَ وتضعُ قاطرةَ العالم أجمع على سكّة جديدة تختلف عمّا سبق..؟؟ الشّكل ليس مهمّا، فسواء جاء على شاكلة اتّفاق عربيّ إقليميّ يسرّع في تسوية الصّراع وإيقاف نزيف الدّم السّوريّ، أو تدخّل جماعيّ من الدّول العربيّة يؤدّي إلى تفادي الحرب الأهليّة والتّقسيم، ومن ثمّ الوصول إلى حكومة منتخبة.

تباشيرُ الأمل في فجر سوريّ مشرق وجديد بدأت مع انطلاق فكرة الرّباعيّة الإقليميّة التّي جمعت كلّ من مصر والمملكة العربيّة السّعوديّة وإيران وتركيا، وجاءت بعد ركود بات واضحًا، بل مُبيّتًا، في الحَرَاك الدّوليّ الجادّ نحو حلّ ينهي معاناة الشّعب السّوريّ ويوقف آلةَ القتل اليوميّة.

لقد انشغلت الإدارةُ الأمريكيّةُ بموسمها الانتخابيّ، وأكثر من ذلك أعلنت أنّها لم تعد مطمئنّة إلى المعارضة السّوريّة بعد أن اختلط الحابل بالنّابل بالنسبة لها، وصار السّلاح في أيادي تقول إنّها لا تعرفها تمام المعرفة، وتحوّل الأمرُ برمّته إلى حزمة من الشّكوك والمخاوف دفعت صانع القرار الأمريكيّ إلى التّريّث، بل التّقهقر خطوات إلى الخلف، لتنكشف مرّة أخرى قِيَمِ الولايات المتّحدة الأمريكيّة في تعاطيها مع السّياسة الخارجيّة، وكيف يصبح الدّمُ السّوريّ أرخص من الماء، لأنّ الرّياح لا تجري بما تشتهيه السّفن الأمريكيّة..!!

لقد وصل الوضعُ في سوريا إلى طريق شبه مسدود حيث عجزت المعارضةُ المسلّحةُ عن تحقيق نصر حاسم على الأرض، وظلّت قوى دوليّة تساند نظام حزب البعث، والنّتيجةُ ذلك الارتفاع اليوميّ المخيف في أعداد القتلى، والزّيادة المرعبة في أحجام الدّمار، وهو وضع يخدم أجندات قوى أجنبيّة، إضافة إلى دولة الكيان الصّهيونيّ.

وفي خضمّ هذا الوضع المأساويّ جاءت مبادرةُ الدّول الأربع في محاولة لإيجاد حلّ إقليميّ، أو الانتقال إلى "المِلْكيّة الإقليميّة للحلّ" على حدّ تعبير داوود أوغلو وزير الخارجيّة التّركيّ خلال مؤتمر صحفيّ مع نظرائه المصريّ والإيرانيّ في القاهرة، أعقب اجتماعًا في إطار مشاورات الرّباعيّة.

لقد تكرّر الحديثُ في الدّورة السّابعة والسّتين للجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، التّي انعقدت مؤخرا في نيويورك، حول تغييرات ضروريّة في طبيعة النّظام الذّي يحكم العالم والعلاقات بين الدّول وأساليب حلّ القضايا والنّزاعات، وجاءت هذه الدّعوات على لسان الرّئيس المصريّ الجديد محمّد مرسي، والرّئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، كما طرحها أيضا الأمينُ العامّ للجامعة العربيّة نبيل العربيّ خلال اجتماع تشاوريّ حول الوضع الدّاميّ في سوريا.

مثل هذه الدّعوات ليست جديدة على "الموسم الخطابيّ" الذّي تشهده أروقة الأمم المتّحدة كلّ عام، وقد دَأَبَ زعماء ورؤساء مناوئون للعولمة والهيمنة الأمريكيّة والغربيّة على التّنديد والشّجب، والدّعوة إلى تغييرات جذريّة في منظومة العلاقات الدّولية تساعد على تحقيق السّلام والوئام بين شعوب العالم، وتقلّص بالتّالي من مساحات النّزاعات والحروب والمآسي.

لكنّ الجديد هذا العام هو تزامن هذه الدّعوات مع هذا العجز شبه التّام عن فعل شيء للشّعب السّوريّ، وفوق ذلك، وهو الأهمّ، تلك التّغييرات التّي يشهدها العالم العربيّ بفعل ثورات الرّبيع العربيّ، حيث الأنماط الجديدة من الخطابات والبرامج، وتلك الجدّية التّي يتحدّث بها البعض، ومحاولات الوقوف بندّية مع الغير للمساهمة في إيجاد حلول لقضايانا العالقة.

إنّ مجرّد تشكيل الرّباعيّة العربيّة الإقليميّة خطوة مهمّة، وبعدها يمكن انتظار نتائج عمليّة لأنّ عناصر النّجاح متوفّرة، فمصر الجديدة تحاولُ التّخلّصَ من ظِلاَل أو ضَلاَل الماضي الذّي ارتبط سياسيًا بالأجندة الأمريكيّة في المنطقة، وتركيا سعت، ولا تزال تسعى، وراء أدوار إقليميّة فاعلة، ومن مصلحة إيران في هذه المرحلة إفشال أيّ حلول أمريكيّة غربيّة، ومن ثمّ المشاركة في حلّ إقليميّ يحفظ لها ماء وجهها في سوريا، ويجنّبها مزيدا من الحرج بسبب مبادئها وقِيَمِها المعلنة من جهة، وتورّطها في الدّم السّوريّ عبر مواصلة دعم نظام بشّار الأسد من جهة أخرى.

إنّ هذه الرّباعيّة فرصة ثمينة لانتقال دولنا من مرحلة التلقّي والسّمع والطّاعة للسّياسة الأمريكيّة، إلى مرحلة إنتاج المواقف وصناعة الحلول الإقليميّة.

وحتى لو بدأت بخطوات وجهود متواضعة الآن، فلا بدّ أن يشتدّ عودها يوما وتتطوّر بعد تراكم التّجارب من جانب، وعودة الثّقة في الذّات من جانب آخر، وحينها ستجد قوى الهيمنة الغربيّة نفسها مع واقع جديد لا مفرّ لها من التّعامل معه وحفظ ما بقي من مصالحها.

إنّ الرّباعيّةَ مؤهّلةٌ تماما لحلّ الأزمة السّوريّة إذا وفّرت لنفسها، وتوفّرت لها، الظّروف والمعطيات المناسبة، ومن ذلك تسارع الدّعم السّياسيّ الواضح من المنظّمات الإقليميّة القائمة، منظّمة التّعاون الإسلاميّ، وجامعة الدّول العربيّة، واتّحاد المغرب العربيّ، واستعداد هذه الجهات لتفعيل مواثيقها وحشد إمكاناتها لصالح أيّ فكرة تضمن حلاً بأقلّ الخسائر وفي أقرب الآجال الممكنة.

لقد تحدّث أكثر من طرف فاعل حول هذا الرّقم (4) وقال إنّه ليس مقدّسًا في حدّ ذاته، وهكذا فالمجال مفتوح لزيادة العدد لتصير الرّباعيّةُ خماسيّةً أو سداسيّةً وحتى سباعيّةً، ومن هنا يمكننا التّساؤل عن مساهمة المغرب العربيّ في حلّ القضيّة السّوريّة، وأهميّة هذا الدّور، خاصّة لدولة في ثقل الجزائر وخبراتها..؟؟

فدول المغرب العربيّ لا تربطها أيّ مصالح مباشرة أو مخلّفات أزمات سابقة أو ما شابه ذلك في ساحة الصّراع السّوريّ، وبالتّالي سيكون دورها مهمًا في التّقريب بين الآراء والتّأليف بين المواقف والأفكار، وإيجاد جسر التّوازن المطلوب بين جميع الأطراف.

إنّ نجاح التّدخّل الإقليميّ في حلّ الأزمة السّوريّة، ولو عبر مقايضة مع إيران، ومن ثمّ إنهاء الصّراع وتسليم الأمور لحكومة منتخبة، سيفتح الباب أمام عهد جديد في العلاقات الدّوليّة، وسوف يتابع العالمُ ولادةَ قطب مؤثّر جديد يساهم في إعادة التّوازن العالميّ.

2012-09-30

الشّعب يريد.. والآخر يستفيد

خلال وجوده مؤخّرا في (ميونخ) قال أحمد معاذ الخطيب رئيس الائتلاف السّوريّ المعارض إنّ الغرب لا يملك مشروعا للحلّ في سوريا.. وهو تصريحٌ خطيرٌ وجريءٌ يأتي بعد فترة طويلة من بدء المواجهات المسلّحة في سوريا، وبعد جهود دبلوماسيّة وسياسيّة وماليّة وإغاثيّة قامت بها دول غربيّة، وأخرى إقليميّة حليفة لها، لدعم المعارضة السّوريّة.

ولا شكّ أنّ قياديًا في حجم معاذ الخطيب يعني ما يقول تمامًا، ولا شكّ أنّه لَمَسَ تسويفًا مقصودًا ومبرمجًا من الدّوائر السّياسية الغربيّة حول الملفّ السّوري، ولا شكّ أيضا أنّ كلام الرّجل الواضح يحملا كلاما آخر بين السطور، أو عبر مفهوم المخالفة، مفاده أنّ الغرب يحمل مشروعا آخر لسوريا، لسبب بسيط هو أنّ (عدم المشروع) هو نفسه مشروع قائم بذاته.

فعندما تنعدم الرغبةُ لدى الغرب في رؤية حلّ ينهي الصّراع في سوريا ويوقفُ شلاّلات الدّم وعمليات الدّمار، فإنّه يحملُ رؤيةً أخرى هي استمرار تلك الشّلاّلات والتّنزيف والخراب بجميع أشكاله، بداية من الإنسان وأوضاعه الاجتماعية والنّفسية، وليس نهاية بالعمران والبنية التّحتية ومؤسّسات الدّولة..!!

لهجةُ المعارض السّوريّ معاذ الخطيب كانت دبلوماسيّة بطبيعة الحال، ولم يكن في وسعه التّصريح بأكثر من ذلك، خاصّة أنّ الغرب يمسك بقدر معتبر من خيوط اللّعبة عبر تدخّلاته في صفوف المعارضة ودول الجوار منذ بدأت الأزمة السّورية.

ولو قُدّر للخطيب أن يكتب مذكّراته بعد سنين طويلة، فسوف يتحدّث بمرارة عن مماطلة الزّعماء الغربيين وحتّى عن أهدافهم الخفيّة، إن ظلّت خفيّة، في تطويل عمر الأزمة السّوريّة إلى أقصى وقت ممكن.

لقد ظهرت خيبةُ أمل الخطيب في الدّول الغربيّة بعد لقاءاته في (ميونخ)، وهكذا بدا عليه ذلك التّحوّل المفاجئ عندما دعا إلى حوار مع أطراف من النّظام السّوريّ حول رحيل الأسد ومجموعته

وإيقاف المأساة، وأكثر من ذلك أظهر لأوّل مرّة بعض اللّين مع إيران التّي ظلّت المتّهم الأوّل لدى المعارضة السّورية بالوقوف القويّ وراء بشّار الأسد ومنعه من التّهاوي والسّقوط.

بعد سنة وأكثر من بدء المجابهة المسلّحة بين النّظام والمعارضة السّورية تحدّث البعضُ عن نيّة غربية مُبيّتَة في تدمير سوريا عبر إطالة عمر الأزمة، لكنّ هذا النّوع من الطّرح والتّحليل ظلّ دائما محدودا، وأخذ في الغالب حيّزا ضيّقا من الحوارات واللّقاءات التّلفزيونيّة، ولم تفرد له مساحات كبيرة تظهره للعلن فتحرج القوى الغربيّة بشكل مباشر.

لقد حاول الغربُ إطالة الأزمة اللّيبية قبل ذلك، مع حساسية ليبيا ودورها النّفطيّ، لكنّ الحسمَ كان أعجل، ورغم الدّماء والدّمار الذّي لاقاه الشّعب الليبيّ؛ فقد كان معرّضا لمآسي أخرى لو استمر الوضع فترة أطول كما حاولت بعض الدّول الغربية.

حساسيةُ الموقع الجغرافيّ لسوريا وحدودها مع إسرائيل جعل الوضعَ مختلفٌ تماما عن ليبيا، وهكذا بيّتَ الغربُ النيّةَ منذ البداية لإيصال سوريا إلى حافّة الدّمار الشّامل، ومن ثمّ تقديم أكبر قدر من الطمأنينة لساسة إسرائيل، لأنّ أيّ حكومة جديدة في سوريا، ومهما كانت توجّهاتها، ستنشغل سنين طويلة في الدّاخل الممزّق اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا.

لقد عوّدنا الغربُ على المكيافيليّة المفرطة عندما يتعلّق الأمر بقضايا الآخرين، وصرنا نحفظ على ظهر قلب أنّ هذه الدّول التّي تمجّدُ حقوقَ الإنسان وترفعُ شعارات الدّيمقراطية وتطبّقها على شعوبها؛ لن تتحرّك لها شعرةٌ واحدةٌ وهي ترى عشرات الآلاف يموتون والملايين بين مشرّد وجائع وخائف ومريض ومحروم من أبسط أساسيات ومتطلّبات الحياة..؟؟

كيف تتحرك تلك الدّول والأمر لا يعني مصالحها، بل إنّها ترى مصالحها في استمرار الأزمة وتضخّمها وتشعّبها وزيادة عدد ضحاياها..!!

ذلك هو الغرب، وتلك هي قِيَمُه ومبادئه التّي عامَلَنا على أساسها عدّة قرون، وقد لا يكون من المناسب لومه على ما يفعل، لأنّ ذلك هو دَيْدَنُه، لكنّ المشكلة في الجيران والأشقاء الإيرانيين الذّين ساروا على الدّرب نفسه وانتهجوا الأسلوبَ ذاته، ولم يعد بين مسلكهم في سوريا ومسلك الغرب أيّ فروق يمكن أن تعدّ..!!

إن إيران ما زالت مستمرّة في تأكيداتها على التّحالف الاستراتيجيّ مع النّظام السّوريّ، كما أعلنت أكثر من مرّة أنّ الأسد خطّ أحمر، وغيرها من التّعبيرات الواضحة، لكنّها تدرك جيّدا أنّ

الأسد ونظامه لم يعد له مكان في سوريا المستقبل، فما الذّي يدفعها إلى مواصلة اللّعب في الميدان السّوريّ..؟؟

ما يذيب القلبَ مرارة أنّها دخلت هي الأخرى في اللّعبة ذاتها، وهي الوصول إلى سوريا المدمّرة، حتّى تظلّ في همومها ولا تنخرط بفعالية في أيّ مشروع إقليميّ يحدّ من النفوذ الإيرانيّ في المنطقة.

إنّ تحوّل إيران إلى المكيافيليّة المفرطة، على غرار ما يعرفه الغرب، هو الذّي يفاجئ العقلاء الغيورين على دماء السّوريين.

منعطفٌ خطيرٌ إذن تقف فيه المعارضةُ السّوريةُ المسلّحةُ هذه الأيّام، حيث اكتشفت أنّ الغرب لا يريد لها الحسم قريبا، كما أنّ الحليف الإيرانيّ لنظام الأسد لا ينوي التّسليم أو التّراجع، وبالتّالي استمرار سقوط الضّحايا، وتواصل المأساة سواء في الدّاخل أو في مخيّمات اللّجوء بالدّول المجاورة.

إنّه منعطف خطير لأنّ الشّعب السّوريّ خرج في مظاهرات سلميّة أوّل مرّة، وهتف كما هتف غيره.. الشّعبُ يريد..

لكنّ الأمرَ تطوّر من مرحلة إلى أخرى حتّى وقف على حافّة الهاوية حيث باتت سورية مهدّدة بحرب طويلة الأمد يتفرّج عليها الغرباء من بعيد ويذرف عليها الأقرباء الدّموع من قريب.

بصيصُ الأمل يظلّ في هذه الدّعوات المتكرّرة للحوار بين السّوريين لتفويت الفرصة على الأجندات الخارجية سواء ما تعلّق منها بالدّول الغربيّة، ومعها إسرائيل، أو إيران ونظام (الجمهورية الإسلاميّة).

2013-02-10

العدنانيّون في طهران وموسكو..!!

خبراءُ التّخطيط يوجّهون إلى الاستعانة بقاعدة العشرة سنتيمترات، وتعني الإنجاز اليوميّ ولو كان بسيطا بمقدار هذا الطّول الضّئيل، لكنّه يؤدّي في النّهاية إلى الهدف.. تذكّرتُ هذه القاعدة أو الحكمة وأنا أستمع إلى السّجال والجدل الدّائر هذه الأيّام حول الطّبعة الثّانية من مؤتمر جنيف حول سوريا.. عجيبٌ أمر هذا العالَم الذّي ظلّ يراقبُ أنهارَ الدّم السّوريّ عامًا كاملاً دون أيّ حَراك حقيقيّ.

لقد تابع الشّعبُ السّوريُّ مؤتمرَ جنيف الأوّل قبل عام تقريبا، وتحديدا في شهر جوان/يونيو الماضي، وخرج المؤتمِرون بنتائج باهتة لا تسمن ولا تغني من جوع، ومع ذلك ظلّ البعضُ يعتبر تلك النّتائج أساسًا مرجعيًا لأيّ تحرّك دوليّ لوضع حدّ للمأساة المتنامية في سوريا.

ورغم ثورة المواصلات والاتّصالات وكثرة اللّقاءات والزّيارات المكّوكية بين عواصم صناعة القرار، احتاج المجتمعُ الدّوليُّ عامًا كاملاً حتّى يقترب من الاتّفاق على النّسخة الثّانية لمؤتمر جنيف.. إنّها الحكمة على ما يبدو، وسرعة السّلحفاة في عصر غزو الفضاء.. إنّها قاعدة العشر سنتيمترات سالفة الذّكر..!!

لقد بات واضحًا أنّ أكثر اللاّعبين في الميدان السّوريّ، من قريب أو بعيد، يراهنون على الوقت لتحقيق مآربهم في سوريا، ويراقبون الوضعَ بحذر، وكأنّهم ينتظرون نتائج محدّدة مسبقا تظهر تباعا على حساب دماء وأعراض ومنشآت وثروات الشّعب السّوريّ.. وهكذا تأخّر مخاضُ مؤتمر جنيف الثّاني كثيرا، ولعلّ وزير الخارجية الأمريكيّ جون كيري كان صادقا عندما ترك كلاما بين السّطور وهو يقول إنّ المسعى من أجل السلام يقوم على صفقة ظلّت خاملة منذ الإعلان عنها في جنيف في جوان/يونيو من العام الماضي، من أجل إقامة حكومة انتقالية في سوريا ذات سلطات تنفيذية كاملة وبموافقة متبادلة.

أيُّ نوع من الخمول يقصده الوزير الأمريكيّ..؟؟ ومن المستفيد منه..؟؟

إنها سنة كاملة استمرّ فيها نزيف الدّم السّوريّ، ومعه مسلسل الدّمار في البنية التّحتية والاجتماعية..!!

سنة كاملة لم تكن كافية، على ما يبدو، لإيقاظ كلّ من يهمّه الأمر وفي يده بعض خيوط اللّعبة.. وحتى هذه اليقظة المتأخّرة، وهذا التّفكير في بعث مشروع مؤتمر جنيف الأوّل، ما كانت لتكون لولا الأخبار الواردة من الميدان عن تعاظم دور فصائل مسلّحة يرى فيها الغربُ خطراً عليه، وعلى إسرائيل، لو استطاعت صناعة المفاجأة، مع بقية الفصائل، والإطاحة بنظام بشّار الأسد والسّيطرة على زمام الأمور.

إنّ ما يحدث في سوريا أشبه بحرب عالمية ثالثة، لكنّ رقعتها محدودة، وهكذا نتابع روسيا وهي تصرّ على بقاء الأسد، فتردّ الدّول الغربية بالرّفض، ونستمع يوميا إلى تصريحات أشبه بالمناظرات: من سوريا النّظام والمعارضة، ومن طهران إلى أنقرة إلى موسكو إلى باريس ولندن وواشنطن، وحتّى القاهرة والرّياض، ولبنان الذّي صار جزءا من المعركة بشكل أو بآخر، وإسرائيل التّي تعتبر نفسها معنية بالوضع السّوريّ أكثر من أيّ طرف آخر، لأنّ أيّ تغيير في قواعد اللّعبة في المنطقة يضعها في معادلة جديدة بالكامل..!!

إنّ العالَمَ يشهد معركةَ تكسير عظام بين قوى دولية وإقليمية، وهناك محاولات للصّمود من كلّ طرف، وفي خضمّ المأساة تُدار الكؤوس هنا وهناك فرحًا بتقدّم هذه الجهة أو تلك.. وكلّ ذلك على حساب تكسير عظام الشّعب السّوريّ وتدمير بنيته التّحتية والاجتماعية.

إنّ هذا البطء العالميّ في علاج الأزمة السّورية يعيد السّؤال الذّي يقطر مرارة من جديد: هل في أجندة الأطراف المشاركة في الأزمة أيّ برنامج عاجل لإيقاف شلاّلات الدّماء التّي تشهدها المدن والقرى السّورية.. والسّؤال الأكثر تحديدا يتّجه نحو الدّول الغربية، وإن كانت مناظر الدّماء تعني أيّ شيء ذا بال لزعمائها وصنّاع القرار فيها..؟؟

وللأسف الشّديد.. قد نعذرهم، فتلك هي قِيمُهُم عندما يتعاملون بلغة المصالح التّي تصغر، بل تتلاشى، أمامها دماءُ شعوب كاملة كما حدث أثناء الفترة الاستعمارية، وما شهده العالم طوال العقود الماضية من حروب عسكرية وثقافية واقتصادية تلغي حقّ الآخر في الوجود.

لكنّ هذه الدّماء تعني الكثير للعرب، ودول الجوار السّوريّ، وللأتراك والإيرانيين.. أو هكذا يُفترض أن يكون الأمر..؟؟

ومن هنا يُتوقّع من هؤلاء الكثير، من خلال المبادرات الفردية والجماعية، واستعمال جميع الأوراق المتاحة للضّغط على الدّول الكبرى والحدّ من عمر الأزمة.

سوريا اليوم تتقاذفها المصالحُ الدّوليةُ والإقليميةُ، وتعصف بها عصفا شديدا، وكلّما طالت الأزمة زادت المساحات الشّاغرة وتضاعفت الثّغرات التّي تنفذ منها المخطّطات الدّولية والإقليمية المغرضة، وهكذا بعد أن وصل الوضعُ إلى ما هو عليه يصعب الحديث عن طهارة مطلقة لهذا الطّرف أو ذاك، فالكلّ قد وقع في المحظور، سواء بإرادته كما يفعل نظام بشّار الأسد، وبعض الفصائل المعارضة التّي ارتمت مبكرا في أحضان الغرب، أو الأطراف الوطنية النّظيفة التّي وجدت نفسها في خضمّ واقع دوليّ وإقليميّ لا مفرّ من التّعامل معه.

ما يثير الغثيان في وسائل الإعلام الرّسمية السّورية هو ذلك السّيل العرمرم من الاتهامات التّي تُكَالُ للمعارضة دون تمييز.. فهي غارقة في العمالة للغرب أو للتّرك أو للعرب من قطريين ومصريين وغيرهم..!!

لكنّ تلك الوسائل نفسها تتحدّث عن المواقف الرّوسية والإيرانية المؤيّدة للرّئيس بشّار الأسد ونظامه بقدر كبير من الارتياح والغبطة.. وهكذا تصبح المعارضةُ، وهي تخوض معترك السّياسة الدّولية، في قمّة العمالة..!! أمّا علاقة هؤلاء بالرّوس والإيرانيين، وما خفي قد يكون أعظم، فهي من صميم العروبة التّي يتغنّى بها حزب البعث..؟؟

لأنّ الفرسَ والرّوسَ من أبناء عدنان..!!!

لكن.. لا أحد يعرف حقيقةَ هجراتهم القديمة إلى طهران وموسكو إلاّ أركان نظام بشّار الأسد..!!؟؟

2013-05-19

سوريا.. المعادلة الجديدة

هل انقلب السّحر على السّاحر في سوريا، واصطدمت الدّول الغربيّة، وحتّى روسيا، بمطبّ شديد يصعب تجاوزه.. إنّ هذه الدّول تسابق اللّيل بالنّهار حاليا لضمان أيّ قدر من النّجاح لمؤتمر جنيف الثّاني، ومع ذلك تظلّ صورة المستقبل السّوريّ القريب غير واضحة تماما، لأنّ ميدان المعركة شيء، وما تفرزه اجتماعات الصّالونات والفنادق والجولات المكوكيّة شيء آخر تماما.

الجدلُ دار، وما زال يدور، في أوساط أطياف المعارضة السّورية، والاجتماعات والمشاورات متواصلة، والضّغوط الدّولية تسير في اتّجاه قبول أيّ حلول وسط تضع حدّا للقضيّة برمّتها، وتبعد شبح الخطر الذّي صار واضحًا في مخيّلة الولايات المتّحدة والغرب وإسرائيل وحتّى بعض الدّول الإقليمية.

أطرافُ المعادلة تغيّرت في ساحة المعركة بعد أن دخل (حزب الله) اللّبنانيّ الشّيعيّ على الخطّ مباشرة، وصار طرفًا في المعارك الدّائرة خاصّة في المناطق القريبة من الحدود اللّبنانية، والأكثر من ذلك والأخطر هو وصول مليشيات عراقية شيعيّة إلى سوريا، أمّا الوجود الإيرانيّ سواء عبر قوّات الحرس الثّوريّ أو غيرها، فقد كان سابقا لكلّ هؤلاء.

التّغيير الذّي حدث ليس في تعداد العناصر الجديدة التّي دخلت سوريا، بل في نوعيتها وأفكارها والأهداف التّي جاءت من أجلها، ففي الغالب يتحدّث إعلام من يقف وراء هؤلاء عن خطر سنّيّ سلفيّ يهدّد سوريا والوجود الشّيعيّ فيها، سواء ما تعلّق بالسّكان أو المزارات، ومنها مقامي السّيدة زينت والسّيدة سكينة، وما يمثّلانه من قداسة للمسلمين الشّيعة.

تزايدُ المقاتلين الشّيعة حَوّلَ المعركةَ نحو مسارات خطيرة، لأنّ الأبعاد الدينّيّة الواضحة لم تكن قوية في الحرب خلال المرحلة الماضية، حيث قوات المعارضة، وفيها إسلاميون، وقوات النّظام التّي تحارب لأنّها جزء من جيش صدرت له الأوامر بالقتال.

أمّا الآن فإنّ القادمين الجدد نفروا للدّفاع عن (المقدّسات) وحماية الوجود الشّيعيّ ليس في سوريا وحدها، بل في المنطقة كلّها، لأنّ سقوط النّظام السّوريّ هو بداية النّهاية لمنظومة سياسية وعسكرية وفكرية لها استراتيجيتها المعلنة، و لها خصومها أيضا من المنظومات والمحاور الأخرى.

وهكذا يمكن القول إنّ أبعادًا جديدةً ظهرت في مسار المعركة، وإنّ حربًا بالوكالة قد فُرضت على الجميع، حتّى على أولئك الذّين خرجوا في أحد الأيام لا يطلبون شيئا سوى التّنفّس بحرية بعد عقود من الظّلم والاستبداد..!!

والعناصرُ المتشدّدةُ في صفوف مقاتلي المعارضة سوف ترتفع أسهُمها بعد التّدخّل الشّيعيّ السّافر.

نعم لقد كانت هذه العناصر بادية للعيان، والمقاتلون المتطوّعون من دول عربيّة، وحتّى أوروبية، صاروا حقيقة على الأرض وليس مجرّد إشاعات أو دعاية يطلقها النّظام أو أصحاب الفكر العلمانيّ أو اللّيبراليّ في المعارضة.. لكنّ الأخطر الآن أنّ دعوات وجهود الحشد ستتضاعف عندما يتنادى المتشدّدون من كلّ مكان لوقف المدّ الشّيعيّ الجديد، وعندها ستكون المعركةُ حامية الوطيس لأنّ كلّ طرف جاء ليدافع عن فكرة وعقيدة وبالتّالي سوف يقاتل بضراوة..!!

ولن يكون الحال كالسّابق عندما كانت المعارك بين معارضين، وحتّى متشدّدين، وجنود نظام سرعان ما يسلّموا أسلحتهم أو يهربوا لأنّ المعركة لا تعني لهم سوى تطبيق أوامر قد لا يكونوا على قناعة تامّة بها.

لقد ماطلت الدّول الغربية وروسيا في حسم الصّراع في سوريا سواء عبر العمل الميدانيّ أو الدّبلوماسيّ، ودخل الجميعُ في حسابات الرّبح والخسارة والتّفكير في مواقع النّفوذ وغيرها، كما اتفق هؤلاء أيضا، ضمنيا على الأقلّ، على إطالة عمر المعركة لما في ذلك من مصلحة مستقبلية لإسرائيل عندما تصل سوريا إلى درجة متقدّمة من الدّمار الماديّ والاجتماعيّ والمؤسّساتيّ، وحينها سوف تتخبّط في مشاكلها سنوات طويلة ولن يفكّر حكامها، أيّا كانت عقيدتهم، في الخروج إلى ما وراء الحدود، لأنّ ذلك سيكون من الجنون مع حجم التّراكمات والمشاكل والحاجة إلى البناء الدّاخليّ.

إنّ الإصرارَ الرّوسيَّ على الاستمرار في تسليح نظام الرّئيس بشّار الأسد بدعوى الوفاء بصفقات وعقود ماضية، وفي مقابله تهديد الغرب برفع الحظر عن تسليح المعارضة السّورية؛ سوف يحوّل سوريا إلى مخزن كبير للأسلحة والمقاتلين الأجانب، وعندها يصعب التّكهّن بالمستقبل..؟؟

وفي هذه الأجواء يتحدّث الأمريكيون عن الحلّ السّياسيّ الذّي يقوم على أساس تطبيق بيان جنيف الأوّل الدّاعي إلى تشكيل حكومة انتقالية بصلاحيات واسعة.. لكنّ شكل هذه الحكومة وعناصرها يظلّ لغزا مبهما في ظلّ تنامي الأحداث الميدانية وتباين وجهات النّظر وإصرار كلّ طرف على مواقفه: النّظام وتمسّكه بالأسد، والمعارضة واشتراطها رحيل الأسد وخروجه من المشهد قبل كلّ شيء..؟؟

إنّ المستقبلَ السّوريَّ يحدّده الميدان هذه الأيام، ومن يحملُ السّلاحَ على وجه الخصوص، حتّى لو شاركت المعارضةُ السّياسيةُ السّوريةُ في مؤتمر جنيف الثّاني، وقبلت ببعض التّنازلات تحت ضغوط غربية، أو لقناعة منها لأجل التّقدم إلى الأمام وحقن دماء الشّعب السّوريّ البريء.

وبنظرة خاطفة نحو طرابلس الغرب، مع تعدّد الفوارق بين ما حدث في ليبيا ويحدث الآن في سوريا، يمكن استقراء بعض ما قد يطرأ في دمشق لاحقا.

لقد قاتل عشرات الآلاف من الشّباب اللّيبيّ لإسقاط نظام معّمر القذّافيّ، وعندما انجلت المعركة حاول السّياسيون تمرير مشاريعهم، لكنّ بقاء السّلاح في يد الثّوار حال في كثير من الأحيان دون سير العملية السّياسية، لأنّ هؤلاء الثّوار يعتقدون أنّ الأولوية في توجيه السّياسات العامة تعود لمن بذل النّفس والدّم والوقت.

والأمر ذاته مرشّح للتكرار في سوريا وبصورة أكثر تعقيدا لما يعرفه المشهد السّوريّ من تعدّد في الأديان والمذاهب والطّوائف، إضافة إلى العلاقات والامتدادات الإقليمية والدّولية في جسم المعارضة والمسلّحين في الداخل.

2013-06-03

مَن السّبب..؟؟

ربّما بدأ العدُّ التّنازليّ لساعة الصّفر الأمريكيّة في سوريا.. وبدأت معه المواقفُ في التّباين، ومن النّقيض إلى النّقيض، حيث يجنحُ هذا الطّرفُ إلى التّرحيب وذاك إلى الرّفض القاطع.. يتفنّنُ متحدّثون في التّبرير وآخرون في التّجريم.. والمفارقةُ أنّ الكلَّ في مركب واحد يسمّى العالم العربيّ.. مركبٌ تحرّكه حتّى الآن أمواجُ السّياسة الدّوليّة أكثر من الأشرعة والمجاديف الذّاتيّة.

لا أحد يتمنّى تكرار المشهد العراقيّ في سوريا، وبعد عشر سنوات وعدّة أشهر فقط، وكأنّ الزّمن العربيّ توقّف هناك في عام ألفين وثلاثة حين تباينت المواقفُ حينها من الهجوم الأمريكيّ على العراق ونظام صدّام حسين، وتابَعْنا جميعا عنتريّات الصَّحّاف، وزير الإعلام العراقيّ آنذاك، وانتظرنا القنوات الفضائيّة كي تفاجئنا بالمئات، أو الآلاف، من جثث العُلُوج على حدّ وصف الصَّحّاف..

جثثٌ متناثرةٌ على ضفاف دجلة، وفي حواري وأزقّة بغداد الرّشيد ونخر العباّسيين..!!

لقد كان هدفُ الأمريكيين واضحًا وهو الإجهاز على البقيّة الباقيّة من القوّة العراقيّة سواء من خلال الجيش أو البنية التّحتية ومؤسّسات الدّولة، أمّا القضاء على الاستبداد ونشر الديمقراطية والبحث عن أسلحة الدّمار الشّامل فهي أسباب ومبرّرات شكلية لم تكن مقنعةً لأحد، سوى أولئك الرّهط من السّياسيين الذّين تقاطعت مصالحهم مع الغزو الأمريكيّ.

السّيناريو يتكرّر في سوريا من جديد، والغرضُ ليس إسقاط نظام بشّار الأسد، ولو سقط تلقائيا بعد الضّربة المحتملة، إنّما الهدف هو ذاته الذّي تحقّق للولايات المتّحدة الأمريكية في العراق، حيث دخل البلدُ في مرحلة جديدة من الإرهاق العسكريّ والاجتماعيّ والسّياسي، ومن ثمّ تحوّل إلى لقمة سهلة المنال لدول الجوار خاصّة إيران ومشروعاتها في المنطقة.

المؤكّدُ أنّ النّخب المهمّشة والمضطهدة لن تبكي بشّار الأسد ولا أركان حكمه، كما لم تَجُد بدمعة واحدة على صدّام حسين ونظامه، لكنّها ستبكي، أو ينبغي أن تبكي، سوريا التّاريخ والحاضر والمستقبل.

وتبكي أيضا أمّةً ظلّت في مكانها تقريبا خلال عقد كامل من الزّمان في وقت تتغيّر فيه الأمم الأخرى بوتيرة أسرع وتسير، حتّى الضّعيفة منها، نحو الاستقلال التّام عن القوى الكبرى، أو المشاركة في صناعة القرارات التّي تعنيها على الأقلّ.

كيفما كانت الضّربة الأمريكية، ومع الألم الشّديد الذّي ستخلّفه، تظلُّ المشكلة في طبيعة الكيان العربيّ، الرّسميّ والشّعبيّ، ووعيه بما يحدث فيه وحوله..؟؟

والمؤكد أنّنا سنبكي سوريا الشّعب والتّاريخ، وسندرفُ الدّموعَ على الضّحايا المدنيّين خلال الغارات الأمريكية، وستتقطّع نياطُ القلوب وهي تتابع آثار الصّواريخ الأمريكية على ما بقي من مؤسّسات وبنايات وطرقات ومنشآت تعود ملكيتها إلى الشّعب السّوريّ، وليس لبشّار الأسد ولوبيّات السّياسة والمال التّي تحيط به.

لقد بدأت الدّموع تنهمر في هذا الشّأن، وتمنّيتُ لو كانت خالصةً للشّعب السّوريّ، لكنّ البعض راح يبكي على جيوش (الجوار الفلسطينيّ) التّي انتظرنا منها تحرير فلسطين منذ عقود، لكنّها أخطأت في تحديد الوجهة على ما يبدو، لأنّ البوصلة لم تكن سليمة من الأساس.

يقول أحدهم وهو يعلّق على الوضع في مصر: (..إنّه دومينو إسقاط الجيوش العربية، وجيش مصر أحد مصادر القلق بعد انهيار الجيش العراقيّ واستنزاف الجيش السّوريّ والتّحضير لضرب ما تبقّى منه ولن يعدم الغرب الحجّة... وقد حان استهداف الجيش المصريّ وسط حرب إعلامية شرسة..).

كلام وجيه يصعب الاختلاف حوله، خاصّة إذا استحضرنا القِيَم التّي تنطلق منها السّياسة الغربية، والأمريكية تحديدا، وكيف تحمي مصالحها، وكيف تتأسّس هذه المصالح في الغالب على ضعفنا وتخلّفنا السّياسيّ والعسكريّ والاجتماعيّ والثّقافيّ.

كما أن من ضمن المعلوم بالضرورة من السّياسة، عند الشّعوب والحكومات، أنّ إسرائيل هي الابنة المدلّلة للغرب وأمريكا، وأنّ تفوّق أيّ جيش عربيّ من دول الجوار الفلسطينيّ خطّ أحمر لا يجوز تخطّيه بأيّ حال من الأحوال.

ومن هذا المعلوم أيضا أنّ ساسة إسرائيل يفرحون بأيّ صراع أو دمار تتعرّض له جيوش الطّوق العربيّ، خاصّة الجيشين المصريّ والسّوريّ.

وهكذا.. لا أحد يمنعكم من البكاء على هذه الجيوش.. لكنّ هل ينفع البكاء..؟؟

وهل يغني العويلُ شيئا عن أمّة تُناوِشُهَا سهامُ ورماحُ الأغراب وهي تدور حائرة في مكانها، حيث لم يتفّق أقطابها وزعماؤها بعد على الطّريق المناسب الذّي تظهر من خلاله بقعة الضّوء في آخر هذا النّفق المظلم..!!

ابكوا على هذه الجيوش بالطّريقة التّي ترونها مناسبة، لكنّ الأَوْلَى أن تتساءلوا عن السّبب وراء ما يحدث..؟؟

وكيف حادت القياداتُ العسكريّةُ عن هدفها الأساس وهو حماية الحدود والأوطان..؟؟

وكيف نزلت إلى ميادين السّياسة بالأحذية الثّقيلة والدّبابات وراجمات الصّواريخ وحتّى الطّائرات..؟؟

يا سادة: لقد تغيّر الزّمن، ورحلت سنوات الزّعيم الأوحد والصّوت الذّي لا يعلو عليه صوت..!!

إنّنا في عصر الفضائيات والانترنت.. إنّنا نتابع بقية خلق الله في هذا العالم، ونعاين تطوّرَ حركة الشّعوب في الجوار والأقاصي.. إنّهم يرتفعون ويفتكّون حقوقهم وحريّاتهم.. إنّهم يحاسبون حكّامَهم وينزلونهم من فوق الكراسي..!!

إنّ الذّي يدافع عن الجيوش العربيّة هو ذاته الذّي يتحدّث بلغة أخرى عن الشّعوب ويرى أنّها (ليست إلا مجاميع كومبارس في هذا الحراك... وليست هي من تقرّر أو تملك حتّى توصيف حراكها بأنّه ثورة أو انقلاب أو تمـــرد أو مجـرّد حالة شغب شعبيّ)..!!

يا سادة: بدل البكاء والعويل، وبدل تدبيج القصائد بالمدح أو الرّثاء.. تحرّكوا مع هذه الجيوش، وأقنعوها بمراجعة عقيدتها والعودة إلى الإيمان بالشّعوب.

علّموها بصدق وإخلاص أنّ الدّول الحديثة لها جيوش، وأنّ مرحلة أن يكون للجيش دولة قد ولّت إلى غير رجعة.

أخبروها بوضوح أنّ الجيوش القويّة هي التّي تخضع لأوامر سلطات سياسية انتخبتها شعوبٌ حرّةٌ وواعية.

2013-09-08

الأسد إلى الأبد

انفضّت الجولة الأولى من مفاوضات مؤتمر جنيف الثّاني بين السّوريّين، نظاما وحكومة، دون أن تظهر في الأفق بوادر تقارب بين الطّرفين بعد أن أصرّ كلٌّ فريق على مواقفه.. ورغم أنّ كلّ وفد عاد، في ظاهر الأمر، بخفيّ حُنَيْن كما يقول المثل العربيّ؛ فإنّ الجولةَ القادمةَ من المحادثات قد تشهد بداية التّزحزح في المواقف، خاصّة إذا أثمرت المفاوضاتُ السّرّيةُ الجاريّةُ بين أطراف النّزاع من السّوريّين والأجانب.

التّعنّتُ السّوريُّ الرّسميُّ، وقُبيل بدء أشغال المؤتمر، كان واضحا للعيان حين أطلق كبير الوفد وليد المعلّم تصريحه المستفزّ وأعلن أنّ الحديث عن تنحّي بشّار الأسد عن السّلطة خطّ أحمر.

استفزازٌ فوق استفزاز لأنّ مجرّد حضور (المعلّم) على رأس مفاوضي النّظام أمر مقزّزٌ للغاية وتعبيرٌ صارخ عن حالة الشّيخوخة التّي يعيشها النّظام السّوريّ على مستوى التّفكير والأعمار على حدّ سواء، باستثناء الرّئيس بشّار الأسد الصّغير في السّنّ، لكنّه يعاني من الشيخوخة فكرا وسلوكا لأنّه امتدادٌ لوالده حافظ، وتحقيقٌ لذلك الشّعار الذّي كان يملأ سوريا: الأسد إلى الأبد.

بشّار الأسد خطّ أحمر.. لماذا حضرت إلى مؤتمر جنيف أيّها الألمعيّ..؟؟

وهل تعتقد أنّ في وسعك التّلاعب بالكلمات والخطابات إلى ما لا نهاية..؟؟

فإذا كان رئيسك المبجّل، لديك، مسؤولٌ عن كلّ المصائب التّي حدثت في سوريا، بشكل مباشر أو غير مباشر، فأَوْلَى به أن يواري وجهه عن النّاس ويدفن نفسه حيّا بعد أن يحفر قبره بيديه، قبل أن يأتي يوم يتابع الناسُ محاكمَته على الفضائيات ويفضي إلى نهايته الحتميّة..!!

وإذا كان بريئا من كلّ ما حدث ويحدث في سوريا، حيث وجد نفسه عاجزا عن فعل أيّ شيء، فمكانه المناسب في دار العجزة ليقضي ما تبقّى من حياته، أو في معبد أو معتكف ليتفرّغ للعبادة بالشّكل الذّي يراه مناسبا، أو في مرسم أو محجر ليمارس هواية الرّسم أو النّحت.. فقد كان يراقب البلاد وهي تسير نحو الهاوية ولم يحرّك ساكنا.. مهما كانت الأسباب..؟؟

إلى متى تستمرّ هذه المهازل في الزّمن العربيّ الحديث..؟؟

وإلى متى تُحْشَر الشّعوبُ بين خيام وقصور الزّعامات وشيوخ القبائل والرّجال الملهَمين الذيّن يتفوّقون على البشر العاديين بدرجة وربّما درجات..!!

بينما نرى رؤساء تركوا بصمات واضحة في مسار السّياسة العالمية، ثمّ عادوا إلى بيوتهم آمنين مطمئنّين بعد انتهاء المدّة التّي حدّدها لهم الدّستور.

عندما خَلَف بشّار الأسد والده في نظام جمهوريّ، وفي وضح النّهار، قال معارضٌ سوريّ حينها: الآن فهمنا معنى شعار الأسد إلى الأبد..!!

وبعد الدّمار الذّي حدث في سوريا هذه السّنوات أعتقد أنّ على ذلك المعارض، إن كان على قيد الحياة، أن يتراجع ويعلن أن ما حدث في تلك الخلافة شيء عاديّ للغاية: ابنٌ ورثَ أَبَاه بعد أن عدّلت الحاشيةُ الدّستورَ ليكون على المقاس، ولا تخلو العملية من مبرّرات، وإن كانت عسيرة الهضم.

تلك الخلافة كانت مصيبةً صغيرةً بعد أن تابعنا المصائب المتوالية منذ خرج مواطنون عزّل ينادون ببساطة ووضوح: نريد حريّة وديمقراطية على غرار غيرنا من الشّعوب.. لتشتغل ماكينات التّخطيط الخارجيّ والدّاخليّ وتدفع البلاد نحو حرب طاحنة بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى..!!

وفي هذا الخضمّ، وعندما تَنادى العالمُ للاجتماع مهما كان حجم الملاحظات حول مؤتمر جنيف؛ يأتي وليد المعلّم ويعلن أنّ الأسد خطّ أحمر، ثمّ يكرّر الحديثَ عن الإرهاب في جميع مداخلاته وتصريحاته..!!

أليس تصريحه عن بقاء الأسد هو الإرهاب ذاته..؟؟

إنّه إصرار غريب يدفع بعض السّوريين إلى الجنون بجميع أشكاله وأنواعه.

في السّنوات الأخيرة لحكم الرّئيس المصريّ المخلوع حسني مبارك احتدّ الجدل حول خلافة جمال لأبيه، وتداول المصريون في هذا الشّأن طُرَفًا على طريقتهم، ومنها أنّ مبارك اجتمع بشيخ الأزهر وبابا الأقباط وأعلمهم بفكرة الاستخلاف، فردّ البابا بشيء من الحدّة: لا إله إلا الله محمّد رسول الله.. فقال مبارك: لقد كفرتَ بدينك.. فعلّق البابا: إنّ عرض مثل هذا الأمر يخرج الرّجل من دينه..!!

وهكذا.. إنّ كلام المعلّم يخرج العاقل عن إطار عقله ويدفع به إلى التّطرّف..!!

كنّا نسمع ذلك الشّعار العربيّ: نموت جميعا ويحيا الوطن.. ومع خالص التّحية والتّقدير لأهل التّضحية والفداء، فبعد موت الجميع لن يظلّ في الوطن سوى الحجارة والتّراب والجبال والوديان..!!

الحقيقةُ أنّ أوطاننا هي مادّة وروح.. المادّة هي التّضاريس الطّبيعية، أمّا الرّوح فهي الإنسان عندما تتحقّق له العزّة والكرامة.

وحتّى عندما رضينا بذلك الشّعار، تابعنا كيف نزل من مرتبة إلى أخرى، فالوطن كان للجميع، ثمّ صار الوطن هو الحزب فقط، ثمّ تحوّل الحزب إلى عصابة المصالح الحاكمة، ثمّ رأينا كيف تُختصر تلك العصابة في شخص الزّعيم الأوحد، ويتحقّق الحلول والاتّحاد..!!

نتابع بألم وتقزّز تلك السّخافات التّي نسمعها من وليد المعلّم وغيره، ومثيلاتها في مصر العظيمة حين بدأ (المشير) عبد الفتّاح السّيسي يتدحرج نحو القصر الرّئاسيّ ليدخله بجسده واسمه بعد أن اقتحمه بأحذيته الثّقيلة وقراراته وعزله للرّئيس المنتخب محمّد مرسي..!!

وسوف نتصنّع قبول تلك الأفكار المتخلّفة ونحن في القرن الواحد والعشرين..!!

سوف نقبل الحديث عن الرّجل الملهم الذّي يفوق البشر العاديين، وسنلتمس العذر لمن يموت في حبّ الأسد أو السّيسي..!!

لكنّ هذا الأمرَ مُلْزِمٌ لأصحابه فقط.. فما الدّاعي لإلقاء البراميل المتفجّرة على رؤوس المعارضين، أو قتلهم بالرّصاص الحيّ خلال المظاهرات السّلمية..؟؟

فقط لأنّهم لا يحسنون فنّ العشق والهيام كما هو الحال عند المعلّم والبلاوي وعمرو موسى ومن على شاكلتهم..؟؟!!

2014-02-02

المحور الثّالث

العرب والاستبداد والفساد

في هذا المحور حديثٌ عن الاستبداد العربيّ.. عن الفساد الرّسميّ.. عن تلك الآفة التّي أكلت من أعمار دولنا وشعوبنا الكثير والكثير..

آفةٌ جعلت من دولنا أضحوكةً بين دول العالم الدّيمقراطيّ.. بل بين دول أخرى تشبهنا كثيرا..

دولٌ أخرى كانت بالأمس تعاني مثلنا لكنّها تجاوزت تلك المرحلةَ المخزيةَ وصارت تعيش حياةَ الانتخابات الحرّة والنّزيهة، وذاق المواطنُ فيها نشوةَ تلك اللّحظات: رئيسٌ يحكم ثمّ يغادر فيأتي الآخر، وبشكل سلميّ للغاية..

للأسف.. عرف ماضينا العربيّ منذ عدّة عقود الاستبدادَ فقط، وفي الآونة الأخيرة تحالف الاستبدادُ مع الفساد فزاد الحملُ على أكتاف الشّعوب، وجثمت مصائبُ كبيرةٌ على الصّدور..!!

مرّ على العرب زعماء فيهم قدر كبير من الاستبداد، لكنّهم لم ينزلوا إلى مستويات الفساد بشكله الحاليّ، بل يُحْكَى عن بعضهم الزّهد في أموال الشّعب.. ومات البعضُ كما يموت غيرهم لا يملكون من متاع الدّنيا إلاّ القليل الذّي يستر الحال.

لكنّ رؤساء حقبة الفساد عاثوا في الأرض إفسادًا وراحوا يفرّغون الخزائنَ من الأموال بشتّى الطّرق والأساليب.. تحوّلوا إلى أثرياء، وليت ذلك الثّراء تحوّل إلى مشاريع تخدم المواطن وترفع من قيمة الوطن.. لقد هرّبوا الأموال إلى هناك.. إلى بعيد..

حديثٌ عن عشرات مليارات الدّولات تملكها عائلة أو مجموعة من المسؤولين.. أين هي..؟؟

مكدّسةٌ في بنوك أجنبية.. والشّعب يعاني ويعاني، ويستمع في كلّ مناسبة وطنية إلى شعارات رنّانة عن الوطن والتّراب الغالي والكرامة، وغيرها من المسمّيات الجميلة التّي استعملها المستبدّون والنّخب الفاسدة في خداع الشّعوب..!!

محزن جدا ذلك الخبر الذّي انتشر قبل فترة: حديثٌ عن أموال عربية تذهب هدرا في بنوك دول تقدّم خدمات بنكيةً سرّية.. أصحاب الأموال لم يوصوا لأحد بعد موتهم..؟؟

ويموتُ صاحبُ المليارات العربية المهرّبة.. ولن يطالب أحدٌ بتلك الأموال.. مات السرّ معه كما ماتت أسرارٌ كثيرةٌ في عالمنا العربيّ المعاصر..؟؟؟

من سيطالب بهذه الأموال؟ ومن يعرف سرّ الحكاية من الأساس..؟؟!!

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

دفع عبد الرحمان الكواكبيّ الثّمن غاليّا ومات مسموما في السّنة الثّانية لبزوغ فجر القرن العشرين، والسّبب هو كتابه الشّهير (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).. وعندما نقرأُ الكتابَ من جديد على ضوء الأحداث العربيّة الرّاهنة، ندركُ ببساطة مقدارَ الحنق والغضب الذّي كان في صدور القَتَلَة حين أقدموا على جريمتهم، والرّجل المصلح الثّائر في أوج سنوات عطائه، فقد فارق الحياة في الثّالثة والخمسين من عمره.

ما أحوجنا إلى قراءة كتاب الكواكبيّ من جديد ونحن نتابع تصريحات زعماء عرب يطلبون المستحيل بالإصرار على التّمسّك بالكراسيّ بعد عقود طويلة من الحكم..!!

لقد شرّح الكواكبيُّ ظاهرةَ الاستبداد وأوضحَ تفاصيلها عبر مقاطع طولية وعرضية، بعد أن وضعها تحت مجهر عالي الدّقّة.

عندما نعيدُ قراءةَ الكتاب على وقع ما يجري في دول عربية قريبة وبعيدة عنّا، سوف نفهم بعض أسرار ما يدور حولنا، ولن نندهش أبدا لو أنّ زعيما عربيا مستبدا قرّر من جديد حرق نسخ الكتاب وإعادة محاكمة صاحبه بعد أكثر من قرن على رحيله..!!

سيفعل ذلك جهلاً وغباءً بطبيعة الحال، لأنّنا في زمن تجاوزَ فكرةَ حرق الكتب وحجب الصّحف عن الصّدور، وتكسير قلمٍ هذا أو ذاك للحيلولة بينه وبين الصّدع بكلمة الحقّ وفضح المستبدّين في عنفوان عزّهم ومجدهم المزعوم.

تابعنا، وما زلنا نتابع، سيلا من الغرائب والعجائب التّي تزخر بها (عبقريات) عربية مجاورة وبعيدة..!!

محاولاتٌ يائسةٌ، بائسةٌ، سخيفةٌ، غبيّةٌ لا يجمعها عنوانٌ سوى الاستبداد كما عرّفه الكواكبيّ بقوله: (ولمّا كان تعريف علم السّياسة بأنّه هو إدارة الشّؤون المشتركة بمقتضى الحكمة، يكون بالطّبع أوّل مباحث السّياسة وأهمّها بحث الاستبداد، أي التّصرف في الشّؤون المشتركة بمقتضى الهوى).

وقد رأينا كيف يحكمُ الهوى الفرديُّ شعوبًا بأكملها، ولا يكتفي بذلك بل يحاول البقاء ولو تحوّلت البلاد بأهلها إلى ما يشبه العصف المأكول.

إنّنا نتابع هذه الأيام تلك الدّماء الغزيرة التّي تُراق، والبلاد العامرة التّي تسير في طريق الدّمار، وتقف وحدتها الوطنيّة على مفترق طرق قد يؤدّي بها إلى القبليّة والجهويّة ومن ثمّ التّدخل الأجنبيّ..

ومع ذلك يواصل الزّعيم إصراره العجيب الغريب، بل المقزّز إلى درجة الغثيان..!!

إصرارٌ على التّمسك بالكرسيّ والتشبّث بالمجد الكاذب، وكتم الأصوات المعارِضة..!!

ونستحضر هنا وصف الكواكبيّ لمثل هذه الحالات: (المستبدّ يتحكّم في شؤون النّاس بإرادته لا بإرادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنّه الغاصب المتعدّي فيضع كَعْبَ رجله على أفواه الملايين من النّاس يسدّها عن النّطق بالحقّ والتّداعي لمطالبته).

لقد عانت بعضُ الشّعوب العربية عقودا طويلة من الاستبداد مع أنّها تعيش مرحلة ما بعد الاستعمار، وتتغنّى وسائل إعلامها بالحرية والدّيمقراطية، ثمّ تغيّرت معطيات الزّمن وسعت هذه الشّعوب إلى فطام نفسها بنفسها عن مرحلة الزّعامات والخطب الجوفاء، فنجحت بعضها دون عناء كبير، لكنّ أخرى تفاجأت بالفناء بعد أن داهمتها بحافل الدّم والنّار لأنّها قالت (لا وألف لا) لمن حكمها عقودا وأرادها مزرعةً لأبنائه وأحفاده من بعده..!!

وما أحسن تعبير الكواكبيّ حين يقول: (ما أشبه المستبدّ في نسبته إلى رعيّته بالوصيّ الخائن القويّ، يتصرّف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافًا قاصرين، فكما أنّه ليس من صالح الوصيّ أن يبلغ الأيتامُ رشدَهم، كذلك ليس من غرض المستبدّ أن تتنوّر الرّعيّةُ بالعلم. لا يخفى على المستبدّ مهما كان غبيًا أن لا استعباد ولا اعتساف إلا ما دامت الرّعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتِيه عماء، فلو كان المستبدّ طيرا لكان خفّاشا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل، ولو كان وحشًا لكان ابن آوى يتلقّف دواجن الحواضر في غشاء اللّيل، ولكنّه هو الإنسان يَصِيدُ عالِمُه جاهِلَه).

إنّ مصطلح العوام الذّي كان مستعملا في أيّام الكواكبيّ وما زال، بدأ يفقد معناه ويمكن القول إنّ طبقة العوام بمفهومها القديم في طريقها إلى الزّوال بعد أن صارت المعلومات أمرًا مُشَاعًا، وملأت الفضائياتُ الدّنيا أخبارًا وعلومًا وتحليلاتٍ وبيانات.. لقد ظلّ الكتابُ والصّحيفةُ، وحتّى

الانترنت، حكرا بشكل أو بآخر على النّخب وحدها لأنّ الطّبقات المتعلّمة هي التّي تصبر على هذه الوسائل وتحسن الاستفادة منها.. لكنّ هذا التّكاثرَ الرّهيب للفضائيات غيّر وجه عالمنا العربيّ وقرّب من كانوا يوصفون بالعوام من درجة الخواص، فقد صار في وسعهم السّماع والمقارنة والتّحليل، ومن هنا ندرك غضب بعض الزّعامات والحكومات العربية من الفضائيات الإخبارية، مع أنّها تؤدّي أدوارا إيجابية في الغالب، حتّى لو اختلفنا معها في تفاصيل نقل جزئيات المشهد العربيّ المعاصر وحيثياته، أو زواياه المختلفة التّي ينظر كلّ طرف منها إلى الواقع والآفاق.

لقد صارت الفضائياتُ جامعاتٍ مفتوحةً للثّقافة والوعي السّياسيّ، ولهذا انزعج منها البعض.

وفي هذا السّياق يقول الكواكبيّ: (العوام هم قوت المستبدّ وقوّته. بهم عليهم يصول ويطول؛ يأسرهم، فيتهلّلون لشوكته، ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته، وإذا سرف في أموالهم يقولون كريما، وإذا قتل منهم ولم يمثّل يعتبرونه رحيما، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التّوبيخ، وإن نَقَم عليه بعض الأُبَاة قاتلهم كأنّهم بغاة)..!!

وهاهم العوام في طريق التّحول إلى نخبة وخواصّ بعد أن باتوا يرفضون دور مطايا ومراكب الاستبداد، ويتطلّعون إلى أن يروا بأعينهم مصارع الاستعباد.

إنّ الزّمن قد تغيّر كثيرا، ورحم الله من عرف قدر نفسه، والحكيمُ من نظر إلى ساعته فتدارك أمره، فالتّغيير في عصر المعلومات والاتّصالات لم يعد في حاجة إلى عقود ولا حتّى سنوات.

2011-03-19

جزيرة الملوك..!!

في غابر الزّمان وسالف العصر والأوان عاشت تلك المدينة الغريبة الأطوار مع ملوكها وحكّامها.. إنّها قصّة طريفة إلى حدّ كبير، فقد كان أهل المدينة يختارون مَلِكًا يحكمهم لسنة واحدة فقط، وبعد ذلك يُرسَلُ إلى جزيرة بعيدة، وهناك يكمل بقيّة حياته وحيدا، أمّا المدينةُ فتواصل طريقتها في الاختيار والحكم.

أنهى أحد الملوك فترة الحكم الخاصّة به وألبسه السّكانُ الملابسَ الغاليةَ وأركبوه فِيلاً كبيراً عليه ألوانٌ وأشكالٌ من الزّينة، وأخذوا يطوفون به أنحاء المدينة حيث يقابلُ النّاسَ فيسلّم عليهم ويودّعهم ويودّعونه.. وكانت هذه الأوقاتُ شديدةً على قلب ذلك الملك وقلوب جميع من سار قبله على هذا الطّريق الذّي اختارته المدينة لنفسها..!!

في الميناء كانت السّفينةُ في الانتظار، فصعد الملك بعد أن شيّع المدينة بنظرة أخيرة.

وانطلقت السّفينة تشقّ عباب البحر في طريقها إلى الجزيرة البعيدة المهجورة، وكان لها ما أرادت، ونزل الملك وحيدا ليواجه المجهول دون وزير أو مستشار أو خادم أو نديم..!!

في طريق العودة رأى بحّارةُ السّفينة إحدى السّفن وقد غمرها الماء إلا قليلا، ورأوا شابًا متعلّقًا بقطعة من الخشب، فأنقذوه وأخذوه إلى المدينة، وهناك طلب منه السّكانُ أن يكون مَلِكًا عليهم لسنة واحدة ولكنّه رفض، وبعد إلحاح شديد وافق فصار حاكمَ تلك المدينة وصاحبَ الكلمة الأولى والأخيرة فيها..!!

أخبر الناسُ الملكَ الجديدَ بالتّقاليد التّي تسود مدينتهم، وأنّه بعد مرور اثني عشر شهراً فقط سوف يُحمَلُ إلى تلك الجزيرة المهجورة التّي تركوا فيها الملك الأخير..!!

بعد ثلاث أيّام من اعتلاء الشّاب العَرشَ سأل وزراءه إن كان يستطيع معاينة الجزيرة التّي أُرسل إليها جميع الملوك السابقين..؟؟

فوافق الوزراء وأخذوه إلى الجزيرة فبدت له مرعبةً، فقد كانت مغطّاةً بأشجار كثيفة يُسمع من بينها أصوات حيوانات مفترسة، كما رأى بأمّ عينيه بقايا عظام بشرية فأدرك القصّةَ كاملةً غير منقوصة.

عندما عاد الملكُ إلى مدينته جمع مائة عامل قويّ وأرسلهم إلى الجزيرة وأمرهم بتنظيفها وترتيبها، وصار بعد ذلك يزورها مرّة في الشّهر ليطّلع على سير العمل الذّي كان يتقدّم بخطوات سريعة، وبعد فترة أمر العمّالَ ببناء بيت كبير ومرسى للسّفن، وبمرور الوقت تحولّت الجزيرة إلى مكان آمن وجميل.

عندما اكتملت السّنة وحان وقت الرّحيل، تفاجأ النّاس وهم يودّعون مَلِكَهم..!!

كان يبتسمُ ويضحكُ على غير عادة الملوك السّابقين، وعرف المقرّبون منه السّرّ، وهو ذلك الجهد الذّي بذله في تهيئة الجزيرة المهجورة وبعْث الحياة فيها وجعْلها مكانا آمنا ومريحا لتقاعده.

إنّها مجرّد أسطورة..

وربّما وجب التّذكيرُ بها لأننا نعيش زمن الأساطير العربية، فمن كان يصدّق أنّ العالم العربيّ سيشهد هذه الأحداث المتسارعة ويغيّر تلك (المعالم) التّي باتت عناصر أساسية في المشهد العامّ الذّي ينام ويستيقظ عليه المواطن العربي..؟؟

لقد حانت ساعةُ الرّحيل فجأة في عدد من الدّول العربيّة، وبكى الملوكُ المُتَوّجُون وغير المتوّجين، لكنّ بكاءهم تحوّل إلى رصاص وقذائف وصواريخ، وغازات مسيلة للدّموع وهراوات ومطاردات في أحسن الحالات..!!

بكى الملوكُ وأبكوا معهم الملايين، وشدّوا معهم أنفاس مئات الملايين الذّين جلسوا القُرْفُصَاء أمام الشّاشات يتابعون كلّ جديد، بعد أن صار الموت والدّمار على الهواء مباشرة، يتابعه من يشاء وفي أيّ وقت شاء..!!

ما أغنانا عن كلّ ذلك البكاء والعويل الذّي عصف بالبلاد والعباد، وما أحوجنا إلى قدر معقول من العقل والحكمة، لينقاد الجميعُ إلى طاولة حوار هادئ لا سقف له إلاّ مصالح الوطن العليا التّي يتفّق عليها الجميع.

إنّها مجرّد مطالب ومظالم، وحتّى لو كانت أكثر من ذلك وهي الرّغبة في رؤية وجوه جديدة، أو أبعد من ذلك وهي المشاركة في الحكم والجلوس على الكراسي بعد أن جلس الآخرون عقودا طويلة.. ما المانع وما المشكلة..؟؟

بعض الحكمة ونكران الذّات والتّجرد من هوى الاستبداد كان كافيا لدفع كلّ هذا الكمّ الهائل من المصائب التّي نراها في عدد من الدّول العربية، وأخطرها وأشدّها إيلاما للنّفس هو ذلك الأجنبيّ الذّي خطّط وتحرّك وتدخّل في الزّمان والمكان المناسب.

إنّ ما مضى فات، والعبرة بما هو آت.. والشّعوب العربية كانت طيّبة ولا زالت، وفي سياق قصّة تلك المدينة وملوكها يمكن استدراك الأمر وتعمير (الجزيرة) وتهيئتها من جديد لتكون مخرجا من ليالي الفتن والمظالم التّي تنتظر دولاً عربية أخرى.

إنّ الشّعوب العربية التّي صفّقت طويلا خلال عقود الزّعامات والثّورات لن تبخل على حكامها بجزيرة آمنة مريحة على غرار ما حصل عليه ملك الأسطورة، لكنّ الأمرَ بيد الحكّام أنفسهم، لأنّ في وسعهم تعمير الجزيرة أو تركها موحشة لا تصلح لحياة البشر.

إنّ الشّعوب العربية تُتوقُ، مثل غيرها، إلى ديمقراطية حقيقية، وإلى نوم هادئ لا يعرف دقّات الفجر المصاحبة لقوانين الطّوارئ سيّئة السّمعة، وتتوقُ أيضا إلى وقوف آمن أمام القاضي لأنّه عادل لا يخشى أحدا إلا الله، وتتوقُ أيضا إلى أمانٍ ماليّ بعد تحصين المال العام ضدّ عصابات السّلب والنّهب، وتتوقُ أيضا إلى أمانٍ جغرافيّ بعد أن تحقّق الحكوماتُ مَوَاطَنَةً كاملةً تقطع الطّريقَ على تجّار الأزمات عبر الطّوائف والعرقيات.

وأخيرا: هل الاستبداد تلميذ غبيّ مثل الاستعمار (وهو شكل من أشكال الاستبداد)، أم أنّ ثورة الاتّصال الحديثة والدّروس المتكرّرة وتطوّر الفكر الإنسانيّ ستدفع إلى عناوين التّاريخ الرّئيسيّة أسماء ثورات تغيير سلميّة عفويّة داخليّة يتناغم فيها الحكّام مع الشّارع تماما، فيحدثُ التّغيير إلى الأفضل دون ضغط داخليّ أو استفزاز خارجيّ، وتتوفّر لكلّ حاكم جزيرته المريحة الآمنة..؟؟

2011-03-26

قنبلة فوق الجزيرة..!!

سيّدي الرّئيس إنّ ابنك اشترى قطعةَ أرضٍ في أقصى شماليّ البلاد.. ما المشكلة في ذلك..؟؟ هو مواطن ويحقّ له ما يحقّ لغيره.. لكنّ ابنك سيّديّ الرّئيس اشترى قطعةً أخرى في أقصى جنوبيّ البلاد.. ما وجه الاعتراض على ذلك..؟؟ إنّه مواطن يجري عليه ما يجري على غيره.. الطامّة يا سيّدي أنّ المحروس يرى الوصل بين قطعتي الأرض حقّا شرعيّا له، وبالتّالي راح يستولي على جميع الأراضي الفاصلة بين الشّمال والجنوب.

إنّها طرفةٌ سياسيةٌ من بنات أفكار شعب عربيّ كان له رئيس صار مخلوعا، وكان له ولدان مدلّلان عزيزان على قلبه.. كانا يصولان ويجولان في البلاد طولاً وعرضًا، أحدهما في السّياسة وما حولها، والثّاني في المال والعقار والتّجارة والاستيراد، وإن كان الولدان وجهين لعملة واحدة هي فساد والدهما ونظام حكمه.

طرفةٌ سياسيّةٌ تختصرُ المشهدَ العامّ في عدد معتبر من الدّول العربية، مشرقيّة كانت أم مغربية..!!

ذلك المشهد الذّي تحالف فيه الفساد مع الاستبداد وخيّم عليه، في عدد من الحالات، ذلك الانصياع شبه الكامل للقوى الأجنبية، حتّى لا نقول العمالة والعمل بالوكالة.

ومع توالي السّنين تفاعلت المواد المكوّنة للمشهد، وتراكمت الرّداءة في مجالات كثيرة، واستعانت الشّعوب المقهورة بكميات هائلة من الصّبر باسم بناء الوطن تارة، وشعارات المقاومة والصّمود تارة أخرى، والرّفاهية والرّخاء المنشود قبل وبعد ذلك..!!

ودون سابق إنذار انطلقت الشّرارةُ بعد نفاذ مخزون الصّبر، فوجدت شعوبٌ عربيةٌ نفسها في الشّارع تنادى بالتّغيير والحرّية والدّيمقراطية والعدالة الاجتماعية، وكان العنوانُ الذّي يلخّص جميع المطالب هو رحيل الوجوه القديمة التّي سئمها النّاسُ من خلال خطاباتها وبرامجها الفاشلة.

نعم بادرت الشّعوب إلى الشّارع لافتكاك حقوقها عبر ثورات سلميّة، لكنّ الاستبداد أصرّ على صبغها باللّون الأحمر..!!

وكان سهلا أنّ تظلّ تحرّكات الشّعوب بريئة صافية لو وجدت تجاوبا من الجهات المعمّرة على كراسيّ الحكم.

لكنّ ما بدأ يحدث أنّ القوى الكبرى تداركت ما فاتها، واستفاقت من هول المفاجأة الأولى، فراحت ترسمُ الخططَ والمكائدَ، وتعمل جاهدةً على توجيه الأحداث نحو مصالحها.

ربّما كان الإعلامُ الجديدُ هو العنصر المثير في الأحداث العربية الجاريّة، بل كان اللاّعبُ الأساسيُّ في بعضها، ولابدّ من التّسليم أنّه تخطّى دوره التّقليديّ في نقل الخبر وتحليله إلى التّوجيه المباشر، ومن هناك تباينت قيم الحياد والمهنية والموضوعية من وسيلة إعلام إلى أخرى..؟؟

والخلاصة أنّ المشهد الإعلاميّ كان، ولا زال، معركة حامية الوطيس استعملت فيها أطرافٌ عديدةٌ جميعَ الأسلحة المشروعة منها والممنوعة على حدّ سواء، وحتّى الممجوجة المستهلكة كما حدث مع بعض القنوات الفضائية التّابعة لأنظمة مستبدّة..!!

وحتّى نسّمي المسمّيات بأسمائها لا بدّ من الحديث عن قناة الجزيرة القطرية تحديدا، لأنّها القناة الأكثر شهرة والأوسع متابعة بين المشاهدين العرب، تلك القناة التّي اختلفت الآراء حولها بشدة في هذه المرحلة أكثر من المراحل السّابقة، ولعلّ تقلّبات البعض مع الجزيرة يلخّصه موقف أحد جيراني الذّي كان متابعًا متحمّسًا لأخبار القناة وتغطياتها، لكنّه فاجأني مؤخّرا، ودون مقدّمات، بقوله: ليت قنبلة تسقط فوق الجزيرة فتريحنا منها..!!

استمعتُ إليه بهدوء وقلت له: دعني أزدك من الشّعر بيتا.. هبْ أنّ دولة قطر أيضا اختفت من الخارطة تماما عبر ظاهرة طبيعيّة غريبة، ولم يعد في العالم العربيّ دولة بهذا الاسم..!!

لكن.. هل ستتغيّر الحقائق على الأرض..؟؟

هل ستتبدّل الأحداث والمسمّيات فتنقلب الإخفاقات إلى إنجازات، والعمالة إلى بطولة، والسّلب والنّهب والفساد إلى رشد وإصلاح في الأرض، والتّوريث في الأنظمة الجمهورية إلى ديمقراطية راقية تنافس ما تعرفه فرنسا واستراليا والولايات المتّحدة..؟؟؟!!!

عام ألفين وخمسة نشرتُ مقالا تحت عنوان (هل الجزيرة في قطر أم قطر في الجزيرة..؟)، ورد فيه الآتي: (ومهما قِيل عن قناة الجزيرة وأُثِير حولها من شبهات، وحتّى لو كشف المستقبل عن شيء مريب في تركيبة الجزيرة، ومهما كانت نوايا وأغراض من أسّسوها، فقد صارت ظاهرةً إعلاميةً قائمة بذاتها، ومن المؤكّد أنّ أيّ باحث منصف خلال العقود القادمة، وهو يكتب عن الإعلام العربيّ في هذه المرحلة، لن يستطيع إغفال باب أو فصل أو حتّى مبحث في رسالته العلمية، وهو: الإعلام العربيّ قبل قناة الجزيرة، وبعده مباشرة باب أو فصل أو مبحث عنوانه: الإعلام العربيّ بعد ظهور قناة الجزيرة. وعلى العموم فإنّ دولة مثل قطر استطاعت أن تُخرج للعالم

العربيّ، في زمن الانكسار والتّخلّف، قناةً إخباريةً حِرَفيّةً صارت تنافس قريناتها من كبريات محطّات الأخبار الدّوليّة).

دعونا نفترض أنّ قناة الجزيرة توقفت فجأة إثر فضيحة مدوّية، كما يتمنّى البعضُ، أو قرار غير متوقع، كما يحلم آخرون.. ودعونا نتفرّس ذلك الفرح الطّفوليّ على وجوه بقايا الأنظمة العربية المستبدّة.. لكن.. ماذا بعد..؟؟

هل سيتحوّل حكمُ نظام العقيد معمّر القذّافيّ الطّويل إلى سنوات رخاء وعدل وديمقراطية تغار منها بريطانيا العظمي وأحزابها السّياسية العريقة..؟؟

وهل سيتحوّل شتمُ العقيد لشعبه إلى قصائد غزل ومدح وإشادة..؟؟

وهل تتحوّل فضائح الرّئيس المخلوع زين العابدين بن علي إلى فضائل تفتخر بها الأجيال العربيّة، بعد أن تُقرّر في المناهج الدّراسية..؟؟

وهل يتحوّل الرّصاص الحيّ الذّي حصد العشرات في صنعاء وعدن إلى أزهار حبّ كان الرّئيس علي عبد الله صالح يلقيها على شعبه بعد ثلاث وثلاثين سنة من الحكم المتواصل..؟؟

ما تفعله الجزيرة أو غيرها قابل للنّقاش والأخذ والرّد، لكن دون هروب مقصود ومدروس عن جوهر الحالة العربية الراهنة..!!

والجوهر أنّنا أمّة مؤهّلة للدّيمقراطية والحريّة والعدالة مثل باقي أمم الأرض، والجوهر أيضا أنّ الإعلام العربيّ قد شبّ عن الطّوق وبلغ مرحلة الفطام، بل البلوغ ومن ثمّ الشّباب والرّجولة.

2011-05-02

بلا فتن داخليّة أو مؤامرات خارجيّة

الاستبدادُ أشدّ وطأةً من الوباء، أكثرُ هولاً من الحريق، أعظمُ تخريبا من السّيل، أذلُّ للنّفوس من السّؤال.. داءٌ إذا نزل بقوم سمعت أرواحُهم هاتفَ السّماء ينادي القضاء، والأرضَ تناجي ربّها بكشف البلاء.. الاستبدادُ عهد أشقى النّاس فيه العقلاء والأغنياء، وأسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء، بل أسعدهم أولئك الذّين يتعجّلون الموت فيحسدهم الأحياء.

هذا هو الاستبداد كما يصفه المصلح الثّائر عبد الرّحمان الكواكبيّ في كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).. إنّه وباء يأتي على اليابس بعد أن يأكل الأخضر، ويدمّر مقدرات البلاد ويجعل من العباد مجرّد أرقام في إقطاعيات كبيرة يملكها الحاكم وحاشيته..!!

الاستبداد يشجّع في الغالب جميع مظاهر الانتهازيّة والنّفعية والخيانة والوشاية والنّميمة.

وباختصار: يسعى جاهدا للقضاء على المروءة بين النّاس واستئصال فضائل الأخلاق وقِيَم الرّجولة الحقيقيّة، ومن هناك يوفّرُ لبقائه بيئةً تنضحُ بالنّفاق والوصوليّة والقفز على رقاب الآخرين لتحقيق أغراض شخصيّة.

الاستبدادُ يقود مع مرور السّنين إلى علاقة غير متوازنة بين الحاكم والمحكوم، ولعلّ حديث الكواكبيّ عن بعض الفروق بين الشّرقيّين والغربيّين يصبّ في هذا السّياق، رغم أنّ الغرب في بداية القرن العشرين، عند رحيل الكواكبيّ، لم يصل بعد إلى ما وصل إليه الآن من حرّيات وحقوق إنسان وتوازن بين إرادة الأمّة وصلاحيات الحكومة.. يقول الكواكبيّ: (بين الشّرقيّين والغربيّين فروق كثيرة، قد يفضل في الأفراديات الشّرقيُّ على الغربيّ، وفي الاجتماعيات يُفَضَّلُ الغربيُّ على الشّرقيّ مطلقا. مثال ذلك: الغربيون يستحلفون أميرهم على الصّداقة في خدمته لهم والتزام القانون، والسّلطان الشّرقيّ يستحلف الرّعية على الانقياد والطّاعة. الغربيّون يَمُنّون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلاتهم، والأمراءُ الشّرقيون يتكرّمون على من شاؤوا بإجراء أموالهم عليهم صدقات. الغربيُّ يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه، والشّرقيُّ يعتبر نفسه وأولاده وما في يديه مِلْكًا لأميره. الغربيُّ له على أميره حقوق وليس عليه حقوق، والشّرقيُّ عليه لأميره حقوق وليس

له عليه حقوق. الغربيّون يضعون قانونًا لأميرهم يسري عليه، والشّرقيون يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم).

في دنيا الاستبداد نشاهدُ أعوانَ المستبدّ ونتابع صولاتهم وجولاتهم وتعاونهم مع وليّ نعمتهم، ورغم مظاهر الاحترام والحفاوة المتبادلة أمام العامّة في الماضي، وعلى مرأى من وسائل الإعلام في زماننا؛ فإنّ المستبدَّ يصل إلى حالة مَرَضِيّة شديدة لا يحترم فيها أحدا، وإن بدا للعيان أنّ هذا أو ذاك من أعمدة حكمه، يقول الكواكبيّ: (المستبدّ في لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان إنسانا فصار إِلَاهًا. ثم يُرجعُ النّظرَ فيرى نفسه في نفس الأمر أعجز من كلّ عاجز، وأنّه ما نال إلاّ بواسطة مَنْ حوله من الأعوان، فيرفع نظره إليهم فيسمع لسان حالهم يقول له: ما العرش وما التّاج وما الصولجان..؟؟ ما هذه إلاّ أوهام في أوهام، هل يجعلك هذا الرّيش في رأسك طاووسًا وأنت غُراب، أم تظنّ الأحجارَ البارقةَ في تاجك نجوما ورأسك سماء، أم تتوهّم أنّ زينة صدرك ومنكبيك أخرجتك من كونك قطعةَ طينٍ من هذه الأرض..؟؟ والله ما مكّنك في هذا المقام وسلّطك على رقاب الأنام إلا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديننا ووجداننا وخيانتنا لوطننا وإخواننا، فانظر أيّها الصّغير المتكبّر الحقير الموقّر كيف تعيش معنا..!! ثمّ يلتفت إلى جماهير الرّعية المتفرّجين منهم الطّائشين المهلّلين المسبّحين بحمده ومنهم المسحورين المبهوتين كأنّهم أموات من حين؛ ولكن يتجلّى في فكره أنّ خلال السّاكتين بعضُ أفرادٍ عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون بأنّ لنا معاشر الأمّة شؤونُا عموميّة وكّلْنَاك في قضائها على ما نريد ونبغي، لا على ما تريد فتبغي، فإن وفّيتَ حقّ الوكالة حقّ لك الاحترام وإن مَكَرْتَ مَكَرْنَا وحاقت بك العاقبة، ألا إنّ مكر الله عظيم. وعندئذ يرجع المستبدّ إلى نفسه قائلا: الأعوان الأعوان، الحَمَلة السّدنة أسلّمهم القياد وأردفهم بجيش من الأوغاد أحارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء، وبغير هذا الحزم لا يدوم لي ملك كيفما أكون بل أبقى أسيرا للعدل معرضا للمناقشة منغّصا في نعيم الملك، ومن العار أن يرضى بذلك من يمكنه أن يكون سلطانا جبّارا متفرّدا قهارا).

في أجواء الاستبداد التّي وصفها الكواكبيّ، واستعلاء المستبدّ حتّى على أقرب أعوانه؛ هل يتحقّق الإصلاح المنشود على شاكلة تلك الدّعوات، أو الادّعاءات، التّي نراها ونسمعها في دول عربية زحفت عليها رياح الثّورات فخرجت فئات من شعوبها إلى الشّوارع والسّاحات..؟؟ يقول الكواكبيّ: (لا يغترّ العقلاءُ بما يتشدّقُ به الوزراءُ والقوّادُ من الإنكار على الاستبداد والتّفلسف

بالإصلاح وإن تلهّفوا وتأفّفوا، ولا ينخدعون لمظاهر غيرتهم وإن ناحوا وإن بكوا، ولا يثقون بهم وبوجدانهم مهما صلّوا وسبّحوا لأنّ ذلك كلّه ينافي سيرهم وسيرتهم، ولا دليل على أنّهم أصبحوا يخالفون ما شبّوا وما شابوا عليه، هم أقرب أن لا يقصدوا بتلك المظاهر غير إقلاق المستبدّ وتهديد سلطته ليشاركهم في استدرار دماء الرّعية، أي أموالهم. نعم كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير الذّي قد أَلِفَ عمرا طويلا لذّة البذخ وعزّة الجبروت في أنّه يرضى بالدّخول تحت حكم الأمّة ويخاطر بعرض سيفه عليها فتحلّه أو تكسره تحت أرجلها، أليس هو عضو ظاهر الفساد من جسم تلك الأمّة التّي قتل الاستبدادُ فيها كلَّ الأميال الشّريفة العالية).

هذا هو حال الاستبداد كما يصوّره الكواكبيّ، ومع ذلك لا مفرّ لنا من التّفاؤل لأنّ الزّمن قد تغيّر، ووسائل الإعلام والتّواصل الحديثة ربّما تساهم، ولو بقدر محدود، في فتح بصائر بقايا المستبدّين وأعوانهم في عالمنا العربيّ لنجد أنفسنا على طريق التّغيير الهادئ المحصّن ضدّ الفتن الدّاخلية والمؤامرات الخارجيّة.

2011-05-14

ما أسهل الحل..!!

تُرْوَى عن الإمبراطور الفرنسيّ (لويس الرّابع عشر) حيلٌ وتصرفاتٌ غريبة مع أعدائه، ومنها أنّ أحدهم كان سجينا لدى هذا الإمبراطور في قلعة مطلّة على نهر، ولم يبق على موعد الإعدام سوى ليلة واحدة.. كان السّجينُ في أشدّ حالات اليأس والإحباط عندما فُتح باب الزّنزانة وأطلّ منه لويس مع حرّاسه ليقول له: أعرف أنّ موعد إعدامك غدا لكنّني سأمنحك فرصةً إن نجحتَ في استغلالها نجوتَ بنفسك.

أفصح الإمبراطورُ عمّا دبّر في خبايا نفسه، وأوضح للسّجين أنّ هناك مخرجًا في جناحه بدون حراسة، فإن تمكّنَ من العثور عليه استطاع الهرب عن طريقه، ولن يلاحقه أحدٌ بعد ذلك..!!
قال لويس ذلك وانصرف بعد أن تمنّى لخصمه الحظّ الوافر لمعرفة مخرج النّجاة.
أمّا السّجينُ فقد جلس على الأرض مذهولا من هول المفاجأة، فهو يعرف أنّ لويس الرّابع عشر صادقٌ، وقد اشتهر بمثل هذه الابتكارات في قضايا وحالات مماثلة، ومن هناك قرّر أن لا يخسر الفرصةَ المتاحةَ، خاصةً أنّه لا خيار له غير ذلك.
وبدأت المحاولاتُ وراح السّجين يفتّش في الجناح الذّي يقبع فيه من تلك القلعة الكبيرة المترامية الأطراف، وكان للجناح عددٌ من الغرف والزّوايا، ولاَحَ له الأمل عندما اكتشف غطاء فتحة تحت سجّادة بالية على الأرض، وما إن فتحها حتّى وجدها تؤدّى إلى سلّم ينزل إلى سرداب سفليّ ويليه درج آخر يصعد مرة أخرى، وبعده درج آخر يؤدّي إلى درج آخر وظلّ يصعد ثمّ يصعد إلى أن بدأ يحسّ بالنّسيم الخارجيّ المنعش ممّا بثّ في نفسه الأمل ولكنّ الدّرج لم تظهر له نهاية قريبة..!!
واستمر السّجينُ من صعود إلى صعود آخر، إلى أن وجد نفسه على برج القلعة الشّاهق والأرض لا يكاد يراها، فبقي حائرا لفترة طويلة..!!
ولمّا لم يجد هناك أيّ فرصة يمكن الاستفادة منها عاد أدراجه حزينًا منهكًا، وألقى بنفسه في أوّل بقعة وصل إليها في جناحه.

لكنّه ظلّ واثقا أنّ الإمبراطور لم يخدعه، وهكذا وبينما هو متمدّد على الأرض مهمومًا منهكًا يضرب بقدمه الحائط غاضبا، أحسّ بالحجر الذّي يضع عليه قدمه يتزحزح، فقفز وبدأ يختبر الحجر فوجد أنّ بالإمكان تحريكه، وما إن أزاحه حتّى وجد سردابا ضيّقا لا يكاد يتّسع للزّحف، فبدأ يزحف ويزحف حتّى بدأ يسمع صوت خرير المياه، وأحسّ بالأمل والنّشوة لأنّ القلعة تطلّ على نهر، بل إنّه وجد نافذةً مغلقةً بالحديد أمكنه أن يرى النّهر من خلالها.

واستمرت محاولاتُه زاحفا إلى أن وجد نفسه أمام نهاية محكمة الإغلاق، فراح يختبر كلّ بقعة فيها فربّما كان فيها حجر هو مفتاح الخروج، لكنّ كلّ محاولاته ضاعت واللّيل يمضى، فعاد أدراجه إلى جناحه، واستمرّ يحاول ويفتّش، وفي كلّ مرّة يكتشف أملا جديدا: مرّة ينتهي إلى نافذة حديدية، ومرّة إلى سرداب طويل ذو تعرّجات لا نهاية لها ليجد السّرداب وقد أعاده إلى المكان نفسه..!!

وأخيرا انقضت ليلةُ السّجين كلّها، ولاحت له الشّمس من خلال النّافذة وهو ملقى على أرضيّة السّجن في غاية الإنهاك، محطّمُ الأمل من محاولاته اليائسة بعد أن أيقن أنّ مهلته انتهت وأنّه فشل في استغلال الفرصة، ووجد وجهَ الإمبراطور يطلّ عليه من الباب ويقول له: أراك لا زلت هنا..؟؟

قال السّجينُ بأسى: كنتُ أظنّ أنّك صادق معي أيّها الإمبراطور.. فردّ عليه: لقد كنت صادقًا، فسأله السّجين: كيف وقد حاولت مع كلّ شبر في الجناح، فأين المخرج الذّي أخبرتني عنه..؟؟

قال له الإمبراطور: لقد كان بابُ الزنزانة مفتوحا..!! و لو حاولت أن تسحبه بيدك لما وجدت أحدا أمامك، فقد صرفتُ جميع الحرّاس اللّيلة الماضية.. ما أسهل الحلّ لو فكرتَ فيه..!!

نعم إنّ الأبواب مفتوحةٌ، والظّروفُ ميسّرةٌ للمغادرة بكلّ أمان وسلام، لكنّ مناحي تفكيرنا تجنح في كثير من الأحيان إلى البحث عن منافذ وأبواب أخرى غير تلك المعروفة الآمنة..!!

إنّها حالة لويس الرّابع عشر مع سجينه تعيد إنتاج نفسها في أيامنا العربية هذه.

تتكرّرُ عندما يصرُّ بعضُ الرّؤساء والسّاسة العرب على وضع شعوبهم أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا أن أحكم أو الخراب من بعدي..!!

وبصيغة أخرى: إمّا أن أتسلّط على رقابكم مع أولادي وأحفادي وحاشيتي إلى الأبد، أو أدفعكم إلى حَرَاك وثورة، ومن هناك تنفتحُ الأبوابُ على أشكال وفنون التّدخّل والاستعمار الأجنبيّ العصريّ الذّي يتناغم مع آليات وأساليب العولمة السّياسية والثّقافية والإعلامية.

ما أسهل الأمر في بداياته.. إنّه حديثٌ بلسان عربيّ مبين، ومعادلةٌ بلا مجاهيل، وقصيدةٌ شعرية مباشرة لم تخالطها أيّ رمزية:

نحن شعبٌ قد مللنا حكمكَ وتسلّطَ حاشيتكَ ونريد فقط حريتنا.. نريد أن نعيش مثل باقي شعوب الأرض.. لقد شَبَبْنَا عن الطّوق.. لقد قتلتنا السّياسات الخاطئة، وزكم أنوفنَا الفسادُ السّياسيُّ والماليُّ، وانكشفت العوراتُ بجميع أشكالها وأحجامها.. لقد صارت صورتك في التّلفاز والشّوارع والإدارات جرعةً دسمةً جدا من التّعذيب النّفسيّ.. لقد تحوّل البساطُ الأحمرُ الذّي تمشي عليه في رحلاتك الكثيرة منذ عقود إلى بِرْكَة دم مقزّزة.. لقد مُسِخت الوجوهُ التّي تحيط بك إلى غِيلاَن مخيفة كريهة تشبه بعض ما جاء في أساطير اليونان وقصصهم الغارقة في الخيال والصّراع والعنف والدّمار..!!

لقد تحوّلت مشاريعُك الضّخمة وأرقامك القياسية إلى سخافات مضحكة.. لقد انقلبت مهاراتُك السّياسية مع الأصدقاء والأعداء على السّواء إلى طرائف تثير الغثيان.. ماذا تريد أكثر من هذا...؟؟؟

إنّ الحلّ سهلٌ، وأسهلُ مما تصوّره لك بطانةُ السّوء.. إنّ الباب مفتوحٌ فدع السّراديب التّي لا توصل، والأبراج العالية الخطيرة.. وافتح الباب مباشرة.

2011-06-11

القابليّة للاستبداد

عندما عثر الشّبّانُ الغاضبون على العقيد معمّر القذّافيّ في أنبوب كبير لتصريف المياه انتبهوا لأنفسهم وحالهم...!!! تركوه بعد أن طلبوا منه الانتظار في مكانه ثمّ ذهبوا إلى أقرب فندق أو محلّ مناسب واغتسلوا وارتدوا ثيابا جديدة وتعطّروا، ثمّ تناولوا عصائر الفواكه الطازجة وهم يستمعون إلى موسيقى هادئة في مكان شاعريّ، ثمّ أنصتوا إلى أحاديث ممارسين نفسيّين كبار أزالت عنهم آثار عدّة أشهر من شراسة الحرب وويلاتها..؟؟!!

بعد ذلك تحرّك الشّبّانُ نحو مكان العقيد حيث اقتادوه وهم يبتسمون ويمسحون الدّم عن وجهه ويقولون له في ودّ ظاهر: تفضّل يا أبانا معمّر فلن يصبك أذى، فنحن أبناؤك وما حدث من قتال ودماء خلال الأشهر الماضية هو مجرّد سوء فهم بسيط سوف يجد طريقه إلى الحلّ، وننساه جميعا بعد مرور وقت يسير..؟؟!!!

هل يمكن أن يصدّق عاقلٌ ما سبق من الكلام..؟؟

لا وألف لا..

ومع ذلك تخيّلتُ أنّ هذا هو مطلب أولئك الذّين غضبوا (أكثر من اللاّزم) جرّاء المعاملة السّيئة التّي تعرّض لها العقيد القذافيّ بعد القبض عليه.. نعم كان المفترض أن يتحقّق ذلك السّيناريو المتخيّل لكي لا تثور ثائرة أقلام وأصوات ومنظّمات حقوق إنسان تابعة لأنظمة عربيّة رأت فيما حدث جريمة لا تغتفر، وكبيرة لم يأت بها الأوائل، ولن يقترف مثلها الأواخر..!!

الحقيقةُ الأولى أنّ المنظرَ كان قاسيا ولا بدّ أن تتحرّك النّفسُ البشريةُ لذلك المشهد عندما يقع عجوزٌ جريحٌ بين يدي مجموعة من الشّباب الغاضب المسلّح، مهما كانت جرائم الرّجل وسخافاته.. لكنّ الحقيقةَ الثّانيةَ أنّ علينا تفحّص البيئة والظّروف التّي أنتجت ذلك المشهد، وأن نحاول وضع أنفسنا في ذلك الموقف لنتصوّر بعدها ما يمكن أن يصدر منا من تصرّفات وحماقات..؟؟

كم كنتُ أتمنّى، وهي أمنية الكثيرين، أن يُقبض على القذافيّ دون عنف، ويُقدّم إلى محكمة ليبية خالصة، فيضيفُ العربُ لوحةَ تسامح زاهية الألوان إلى سجلّ التّاريخ المعاصر، وإن لم يحدث

ذلك فلا أقلّ من أن يُقتل الرجلُ في الميدان أو يُعثر عليه ميّتا، ومن هناك تنتهي فصول القصّة، فلا محكمة دوليّة ولا مبرّرات إضافية للتّدخّل الأجنبيّ وإطالة عمر الأزمة اللّيبية.

ما أيسر الحديث لأمثالنا المتابعين عن بعد، وما أسهل الكلام لمن هو في وضع مريح..؟؟

ما أيسر وأسهل أن يحدث الآتي: إصدار الأحكام ونحن في بيوتنا بين أولادنا وزوجاتنا ننعم بالأمن والأمان، والحكم بالخطأ والصّواب ونحن في مقابل مذيعة فاتنة بغرفة أخبار قناة إخبارية بعاصمة عربيّة أو أوروبية..؟؟

وبالتّالي سيكون في متناول كلّ متحدّث أو معلّق أو كاتب أن يصدر حكمًا قطعيا، ويؤكّد بربريّة اعتقال وقتل القذافيّ..!!

لكنّ الصّورة في الميدان تختلف تماما عن الأستوديو والبيت والمقهى..!!

إنّه شباب يقاتل منذ أشهر.. أيّامٌ طويلةٌ بلياليها وهو يُحاصر مدينة (سِرْت).. يخسر الأرواح.. ينزف الدّماء.. يرى الواحدُ رفاقَه يُقتلون أمامه بالعشرات.. رصاصٌ كثيفٌ مخيفٌ ومدافع وقنّاصة وألغام.. أعراضٌ انتهكت بشكل منظّم على أيدي المرتزقة وكتائب القذّافيّ.. مدنٌ تحوّلت إلى ركام أشبه بآثار زلزال مدمّر..!!

وقبل ذلك: استبدادٌ وقتلٌ وتخوينٌ واستنزافٌ للبلاد دام أكثر من أربعة عقود متواصلة.. ومذبحةُ سجن (أبو سليم) التّي راح ضحيتها ألف وثلاثمائة سجين في يوم واحد..!!

مغامراتٌ متواليةٌ أنهكت البلاد والعباد وقضت على معالم السّياسة والاقتصاد معا: حرب تشاد، دعم مجموعات انفصالية في دول عديدة، تجارب وَحدة فاشلة، امتناع ثمّ تسليم مطلق في مشكلة لوكربي، قوميّة عربية ثمّ وحدة أفريقية، إمام المسلمين ثمّ ملك ملوك أفريقيا، زعيم ثورة وليس حاكما ثمّ فيلسوف يستعلي بأفكار سخيفة في القمم العربية..!!

وأخيرا عندما صاح النّاس: طفح الكيلُ ونفذت أسهم كنانة الصّبر، وصفهم بالجرذان وهدّدهم بالإبادة، مع الأخضر واليابس، وراح يعدّ العدّة للزّحف على مدينة بنغازي وتحويلها إلى أثر بعد عين.

من غير المعقول أن نتوقّع العقلَ والحكمةَ في لحظة القبض على القذّافيّ، ومن غير الممكن أن نتصوّر شابا مقاتلا غاضبا مضرّجا بالدّماء يتوقّف لحظة أو لحظات ليتقمّص شخصية السّياسيين،

ويفكّر في محكمة الجنايات الدّولية وتسليم القذّافيّ، أو منظّمات حقوقية ستحتجّ على الطّريقة التّي يُقتل بها، أو حتّى مصلحة ليبيا المستقبلية في الأسرار التّي يمكن أن يبوح بها العقيدُ لو ظلّ حيا..؟؟

لو فكر الشابُّ في ذلك فلا بدّ أن نضع على رأسه (تاج الحكمة)، وإذا تصرّف غير ذلك، وهذا ما حدث، فلا نبالغ في اللّوم والتّجريح والبكاء والعويل..!!

ومع كلّ ما سبق من حقّ كلّ أحد التّعبير عن وجهة نظره، ومن حقّ البعض الغضب على تلك الطّريقة التي قُتل بها العقيد القذّافيّ، لكن دون تحريف متعمّد، أو غير متعمّد، للحقائق، حيث يتحوّلُ الجلاّدُ إلى ضحية، ويتحوّلُ الشّعبُ اللّيبيُّ، الذّي رزح اثنتينِ وأربعين سنة تحت حكم عائلة وفرد، إلى جلاّد.

كفانا هوانا واستخفافا بالعقول..!!

يحكم هذا المستبدّ أو ذاك عشرات السّنين ويذيقُ شعبَه الويلات، وفي الأخير نساعده على تقمّص دور البطل المخلّص والمهديّ المنتظر، ثمّ الشّهيد الخالد..!!

اغسلوا أنفسكم ظاهرا وباطنا وتوبوا من القابليّة للاستبداد وتطلّعوا إلى عوالم من الحريّة والكرامة والعدالة.

إنّ جوهر القضية أكبر من مشاهد قتل القذّافيّ.. إنّه شعبٌ يتوق إلى الحياة الحرّة الكريمة..

ومع أنّ الدّماء لم تجفّ بعد في ليبيا فما أحوج المشكّكين والمتشائمين إلى تخصيص بعض الوقت لمتابعة القنوات الفضائيّة اللّيبية الجديدة.. إنّه مناخ حيّ بدأت معالمه في الظّهور: آراءٌ وحواراتٌ وتعدّديةٌ فكريّةٌ وسياسية.. أمّا ما سبق فهو صور الزّعيم وخطاباته الطّويلة المملّة ولقاءاته مع ضيوفه في خيمته العتيدة..!!

2011-10-19

التّعاطفُ معهم سلوكٌ منقرض

صبرتْ زوجتي أيّاما متتالية وهي تتفاعلُ مع كمّ هائل من عبارات الشّجب والاستنكار والتّعاطف والبكاء على الرّئيس الرّاحل.. لقد شكّلت مساحاتُ التّلاقي والتّزاور في عيد الأضحى المبارك فرصةً لتتضخّم الأحاديثُ والقصصُ وتتضاعفُ وتيرةُ التّبشير بالويل والثّبور وعظائم الأمور بعد إعدام هرم الأمّة وحاميها وصانع انتصاراتها ومهندس أمجادها.. ثمّ نفذ صبرُ زوجتي فصاحت في وجهي غاضبةً: حزن جميع النّاس إلا أنت، وكأنّ الأمر لا يعنيك من قريب أو بعيد.

إنّها حادثةُ إعدام الرّئيس العراقيّ الأسبق صدّام حسين قبل بضع سنوات.. لقد كان قرارُ الإعدام أمريكيا، أمّا التّنفيذُ الميدانيُّ فكان عراقيا على يد مجموعة شيعية تقول إنّها ذاقت ألوان المصائب إبّان حكم صدّام حسين، ومن ذلك إعدام والد زعيم تلك الجماعة المثيرة للجدل..!!

أمّا التّوقيتُ فاختار القوم له عيد الأضحى المبارك، وهو ما زاد من مرارة الخبر وشدّة وقعه على المتعاطفين مع صدّام والمناوئين للأمريكيين المحتلّين والإيرانيين المستفيدين من تناقضات وثغرات الوضع الجديد.

قضيتُ أيّام العيد في قريتي، والحديث والتّواصل المتواصل من طبائع أهل القرى؛ فهم يتحدّثون مع بعضهم طوال الوقت، فكيف والحدث جسيم وهو إعدام (البطل) صدّام حسين، الذّي لعب عددا من أدوار البطولة منذ تولّيه حكم العراق عام 1979..!!

لقد كان (بطلا) عندما أشعل حربًا عبثيةُ ضدّ جارته إيران..!! وبعدها توجّه إلى الكويت فاحتلّها..!!

وعندما اجتمعت عليه جيوش الشّرق والغرب لإجباره على مغادرة الكويت كان مثال (الصّمود)، وحتّى يمثّل دورَ البطولة بامتياز هدّد إسرائيل وأطلق عليها عددا من الصّواريخ، وفي سنوات الحصار الطّويل، وبينما كان الشّعبُ العراقيّ يكابد الويلات، كان الرّجلُ يمثّل دورَ (السّدّ المنيع) أمام المخطّطات الغربية الرّامية إلى احتلال المنطقة..!!

أمّا قبيل الغزو الأمريكي للعراق، ثمّ القبض على الرّجل ومحاكمته، فحدّث عن (بطل الأمّة) ولا حرج؛ لقد كان صدّام هو (المهدي المنتظر) الذّي سيخلّص العرب من شرّ الأمريكيين، ويملأ الأرضَ عدلاً، ويفيضُ تحت راية سلطانه السّمنُ والعسلُ..!!

قدّرتُ موقف زوجتي ورحتُ أحدّثها بهدوء عن بعض ما أعرفه عن صدّام حسين ونظامه الاستبداديّ..!!

حدّثتها عن النّزاع مع إيران ومقدّرات العراق التّي دمّرها الرّجل من خلال مغامرات غير محسوبة وحروب بالنّيابة عن الآخرين..!!

وحدّثتها عن خطيئة احتلال الكويت وكيف كانت مفتاح شرّ على الأمّة وسببا مباشرا لدخول القّوات الأجنبية إلى المنطقة لتظلّ هناك حتّى الآن..!!

وحدّثتها عن أشكال القهر والهوان التّي ذاقها الأكراد في شمال العراق..!!

وختمتُ بنمط من أنماط القهر (ماركة مسجّلة لصدام حسين) سمعته من زميل عراقي..!!

ذلك النّمط (المميّز) كان أثناء الحرب العراقية الإيرانية التّي راح ضحيتها مئات الآلاف من الجنود العراقيين.. وكان من الطّبيعيّ أن تحدث حالات فرار من الحرب.

ويمكن الحديث، بتحفّظ، عن شرعيّة تعقّب أولئك الفارّين ثمّ محاكمتهم عسكريا لأنّ الانضباط هو أساس الجيوش القويّة قديما وحديثا.

لكن.. ما الذّي كان يحدث عندما يتمّ القبض على أحد الفارّين من جبهات القتال..؟؟

كان يُقتاد إلى حيّه أو قريته ويتمّ إجبار أهله على الخروج لمتابعة مشهد الإعدام كاملا..!!

لكن.. هل ينتهي الأمر عند هذا الحدّ..؟؟

لا.. فما زال في جعبة (العباقرة) الكثير..!!

إنّ عيون الأهل تذرف دموعًا غزيرةً وقلوبُهم تكاد تتمزّق من لوعة ونمط الفراق، ومع ذلك يتقدّم الضّابط (المغوار) ويطلب من أهل الجنديّ القتيل دفع قيمة الرّصاصات التّي أُطلقت عليه..!!!

لماذا أيّها (الألمعيّ)..؟؟

لأنّ الابن (الخائن) لا يستحقّ تلك الرّصاصات والدّولة لا تتحمّل ثمنها..!!

ويدفع الأهلُ مبلغا من المال مقابل النّار التّي أزهقت روحَ فلذة كبدهم، لأنّ الرّفض قد يجرّ إلى مصائب أخرى..!!

وختمتُ كلامي: ليس في طاقتي التّعاطف مع رموز الاستبداد مهما كانت روعة (أدوار البطولة) التّي مثّلوها في آخر حياتهم، صدقا أو كذبا.

الحديثُ حول صدّام حسين يعود إلى واجهة الذّكريات هذه الأيّام بعد الجدل الكبير الذّي ثار حول معمّر القذّافيّ والطّريقة التّي رحل بها، خاصّة أنّ بعض الأقلام ذهبت بعيدا في تعداد فضائل العقيد وأفضاله على شعبه والأمّة..!!

وقد كتب أحدهم عن ذلك القائد الذّي (حكم ليبيا بأَنَفَة عمر المختار الذّي واجه بجهاده الإيطاليين حتّى لقي ربّه شهيدا)..!!

وأسهب صاحب ذلك القلم في الكلام عن تعذيب القذّافيّ وقتله وسكوت العالم عن هذه الجريمة المنكرة..!!

كنت أعتقد أنّ الثّورة الإعلامية التّي نعيشها قد أسقطت جميع الأقنعة الزّائفة ورفعت الغشاوة عن الأبصار، وبالتّالي فإنّ التّعاطف مع القذّافيّ سيكون شبه منعدم خاصّة بعدما ظهرت صورته واضحة من خلال سبابه وشتائمه وعشوائيته في إدارة المعركة الإعلامية مع المعارضة..!! (فضلا) عن تاريخه الدّمويّ الطّويل مع شعبه ومغامراته وتصرّفاته الجنونية التّي كلّفت ليبيا الكثير..!!

نعم في وسعنا أن نستنكر القتل الوحشيّ والتّعذيب فقط، لكن دون تعاطف مع المستبدّ.. فهذا النّوع من التّعاطف سلوك شائن صار في عداد المنقرضين.

الوضع في سوريا لا يختلف كثيرا، فما زال البعض يربط مصير الوطن بالرّئيس، حتّى إنّ قناة فضائية سورية كتبت تحت صورة بشّار الأسد: (اللّي ما يرضى بشار نور عينيه، ما نرضى به تراب تحت رجليه).. هكذا والله.. فأيّ تطرّف في (الحبّ) أو (الذلّ)..؟؟

يمكن أن نتفهّم هذا (المنطق) في دول ملكية حيث الغناء لحياة الملك ووليّ عهده ولو كان في المهد، ونقدّر مشاعرَ بعض الشّعوب التّي عاشت عشرات السّنين، بل مئات، تحت حكم الملوك.. لكنّ غيرهم غير معذورين، ولا بدّ لهم من ثورة وجدانية شعورية تعلن طلاقًا بائنًا مع أزمنة التّعاطف مع المستبدّين، مهما كان حجم المواهب والإنجازات التّي يدّعونها لأنفسهم.

2011-11-05

المحور الرّابع

لا في العِير ولا في النَّفير.. عربٌ خارج مجال التّغطية

في هذا المحور حديث عن الحكّام العرب الذّين يعيشون خارج إطار الزّمن.. خارج مجال التّغطية الحديثة..!!

أفكارهم وأفعالهم السّياسية في الماضي، وأجسامهم في دنيا النّاس اليوم..!!

لباسُهم وحواشيهم وقصورهم وأسفارهم وطائراتهم ومراكبهم من الحاضر.. لكنّ ما تحت العمامة أو العقال أو القبّعة ما زال هناك... في الماضي السّحيق..!!

وأيّ ماضٍ..؟؟

ليته ذلك الماضي الذّي حملَ البساطةَ والكرمَ وحياةَ القبيلة والبادية..

يعيشون الماضي فيعتقدون أنّ الكلمةَ التّي تخرج من أفواههم هي الحقّ المطلق، وهي ما يجب أن يصل إلى الشّعوب، وأنّ هذه الأخيرة لن تعرف غير كلمة الزّعيم..!!

تغيّر الزّمنُ يا سادة.. وتجاوَزْنَا عصرَ الكلمة التّي تصل عبر الأثير إلى جميع أرجاء المعمورة.. وتجاوزنا عصر صدمة الصّورة التّي تخترق الآفاق وتصل حيث شاء لها مرسِلُها عبر الفضائيات أن تصل.. تجاوزنا قبل ذلك الجريدةَ وسحرَها وانتشارَها وقراءة النّاس لها ومن ثمّ صناعة الوعي ونشر الكلمة وكسر الحواجز..

تجاوزنا كلَّ ذلك يا سادة. ووصلنا إلى عصر سِمَتُه: (كلّ مواطن صحفيّ)...

صارت المعلوماتُ متاحةً لدى الجميع، وتحت الطّلب في أيّ لحظة عبر جهاز صغير نحمله في جيوبنا ونعيش فيه ومعه العالَم بجهاته الأربع...

انقرض ذلك الزّمنُ الذّي ينتظر فيه النّاسُ بياناً أو خطاباً ويعيشون عليه أيّاما وربّما شهورا، ويظلّ هو الخبرُ الأوّلُ وربّما الأخير..!!

الدّورةُ الإخباريةُ صارت سريعةً إلى حدّ كبير، وأحداثٌ كبيرةٌ تدوم على الشّاشات يومين أو ثلاثة فقط، ليأتي ما يغطّي عليها، وكأنّها ما ملأت الدّنيا ضجيجا..

في هذا الزّمن وإيقاعاته السّريعة جدا ما زال بعضُ ساسةِ العربِ يصدر البيان، ويُلقي الخطاب، ويعتقد أنّه أتى بما لم يأتي به فرسانُ المعلّقات السّبع.. وأنّ لكلماته مفعولَ السّحر بين أبناء شعبه..!!

خطاباتٌ تُكَرِّرُ سخافاتِ الماضي وأفكاره الجامدة.

ولّي ذلك الزّمن وتصدّرت المشهدَ أجيالٌ جديدة.. قد تكذبون عليها بعض الوقت، وقد تغضّ عنكم الطّرف هي أيضا بعض الوقت، لكنّ الأمر لن يستقّر لكم بالكيفيّة التّي تشتهون..

باختصار: رياح التّغيير في هذا الزّمن تجري بما لا تشتهيه سفنُكم العتيقة..

فات الأوان وولّى ذلك الزّمن

تستطيعُ أن تكذب على كل النّاس بعضَ الوقت، وفي وسعك أن تكذب على بعض النّاس كلّ الوقت، لكنّ سابعَ المستحيلات أن تكذبَ على كلّ النّاس كلّ الوقت.. إنّها عبارة متداولة بين العقلاء في كثير من الثّقافات والحضارات.. عبارةٌ ربّما اعتبرناها عاديّة بشكل أو بآخر قبل هذا المنعطف العربيّ الحاسم، لكنّنا أحوجُ ما نكون إليها الآن.

لقد نجحت بعضُ الزّعامات العربيّة فيما تريد واستقرّت على الكراسي سنين طويلة بعد أن خطّطت ونفّذت عبر مقولة (اكذب ثمّ اكذب ثمّ اكذب حتّى يصدّقك الشّعب).

نجحت لأنّ المعطيات الثّقافية والإعلامية ووسائل الاتّصال كانت مناسبةً لذلك (الاستثمار المَقِيت) الذّي دمّر عددا من الشّعوب العربية، ورَهَن ثرواتها وطاقاتها وشيبها وشبّانها لجهة واحدة هي الزّعيم الأوحد، وتلك العصابة التّي تدور حوله من أبناء وأقارب وأصدقاء..!!

أمّا البقيةُ الباقيةُ من الوجوه الإعلامية والسّياسيّة والاقتصادية وحتّى العلمية والثّقافية، في بعض الأحيان، فهم مجرّد أدوات تنفيذ وتزيين، ولا علاقة لهم بالقرارات الكبرى والسّياسات التّي تحكم مصير البلاد والعباد، إن كانت هناك أصلا سياسات واضحة غير الاستعلاء والنّهب والانتفاع حتّى النخّاع بالأموال والثّروات العامّة..؟؟

التّطوّرُ الذّي لم يستوعبه بعض الزّعماء العرب المعمّرين في الحكم أنّ الزّمن تغيّر، ووسائل الاتّصال تطوّرت بشكل لم يكن يتصوّره الكثيرون قبل عشرين سنة فقط، فكيف بالذّين سبقوهم بعشرات السّنين..؟؟

ذلك التّطور وتلك الوسائل أثّرَت معارفَ وثقافاتِ الشّعوب، وجعلت السّياسةَ بعض غذائها العقليّ اليوميّ جنبا إلى جنب مع موائد الطّعام التّي تمدّ البطون بغذاء الأجسام.

وكما صارت الإشاعاتُ كثيرةً، صارت أيضا قصيرةَ المدى لأنّها تموت مباشرة بعد دقائق أو ساعات، إمّا بالتّأكيد لتصبح حقيقة، أو بالنّسيان عندما يأتي ما هو أقوى وأشدّ وقعًا، فالأحداث

والوقائع يغطّي بعضُها على بعضٍ من خلال هذا الكمّ الهائل من القنوات الإخبارية وسَيْل الأرقام والتّصريحات والبيانات والصّور.

لقد توهّم رئيسٌ عربيٌّ، يجلس على كرسي الحكم منذ أكثر من ثلاثين عاما، أنّه يفجّر قنبلة إعلامية عندما (كَشَف) عن غرفة عمليات يديرها البيتُ الأبيضُ من تل أبيب يتمّ بواسطتها إدارة الثّورات المناهضة لعدد من الأنظمة العربية..!!

استمعتُ إلى تلك التّصريحات الممجوجة فخُيّل إليّ أنّ الرّجلَ يعيش، ثقافيا وسياسيا، في تلك الأيّام الأولى التّي استولى فيها على السّلطة..!!

تلك الأيام الخوالي التّي كان فيها الرّئيسُ النّاطقَ الوحيدَ، والوجهَ الأكثر ظهورا على شاشة التّلفزيون الرّسميّ الذّي ينتظره النّاس في ساعة محدّدة، ليُلْقِيَ في آذانهم سيلاً من الخطب والإنجازات، ولن يجدوا بعد ذلك تعقيبا أو تصحيحا أو تكذيبا..!!

لم تمرّ ساعةٌ أو بعض ساعة عن تلك التّصريحات حتّى كانت الفضائياتُ تحلّل الخطابَ، وتتحدّث عن وثائق ويكيليكس وغيرها حين كان ذلك الرّئيسُ (المناهض لأمريكا) يتلقّى الدّعم الأمريكيّ ويقبلُ التّدخّلَ الأجنبيَّ في بلاده بعد مسرحية يُظهر من خلالها أنّ أعمالا عسكرية قامت بها قوّاته أو طائراته المقاتلة..!!

وبعد سيل التّحليلات والأخبار المضادّة يتساءل بقايا الغافلين من المواطنين، إذا افترضنا أيّ نوع من الوجود لهم هذه الأيام، كيف تحوّلت واشنطن من صديق بالأمس إلى عدوّ اليوم..؟؟

زعيمٌ عربيٌّ آخر على رأس المعمّرين على كراسي الحكم خرج عن المألوف وتجاوز غير المألوف، وفاجأ العالم بحماقات وسخافات سوف ترهق علماء النّفس حين يعجزهم تصنيف صاحبها ضمن أيّ أنواع الشّخصيات المضطربة أو المريضة بشتّى الأدواء النّفسية المزمنة، لأنّها شخصية غريبة جدا أثبتت أنّها لا ترى ولا تبصر ولا تعقل، وتتجاوز حتّى حسابات الرّبح والخسارة التّي يتقنها تاجرٌ بدائيٌّ بسيطٌ يعيش في أدغال أفريقيا أو على ضفاف أحد أنهار آسيا..!!

كان الزّعيمُ يتحدّثُ عبر فضائيّته الرّسمية، ويكيل التّهمَ للجميع، ويتجاهلُ شعبًا كاملاً ليختزل ما يجري في خلايا إرهابية كانت نائمةً فيما مضى..!!

كان ينكرُ بشدّة أيّ أثر لشعب يتظاهر، وشباب مُسَالِم يطالب بحقوق دستورية لا أكثر ولا أقل..!!

كان يؤكّد ذلك أمام حشد من أنصاره ودبلوماسيين وصحفيين من كلّ أنحاء العالم..!!

كان يتحدّثُ وهناك قناة إخبارية عربيّة تنقل خطابه مباشرة، وتخصّصُ نصف الشّاشة لمتظاهرين عزّل في مدينة أخرى، ويرفعون لافتات ضدّه..!!

لقد تجمّع الآلاف وراحوا يتابعون الخطاب عبر شاشات كبيرة، والمفارقة المضحكة أنّ بعضهم رفع لوحات تهكّمية بينها خبر عاجل يقول: الزّعيم يكذب الآن..!!

لقد ارتكب الزّعيمُ خطيئتين على مستوى الفهم والتّفكير، وهو الذّي طالما زَعَمَ أنّه فيلسوف وحكيم أكثر منه حاكما أو سياسيا: الخطيئةُ الأولى عندما تجاهل الزّمنَ الذّي يعيش فيه وثورة الاتّصالات، والثّانية عندما استعمل وسيلةً متهالكةً في استعطاف الغرب لدعمه حتّى يضمن البقاء في منصبه، وهي التّخويف بالقاعدة وأسامة بن لادن والتّذكير بالزّرقاوي وغيره..!!

الزّعيمان العربيان يعانيان الحالةَ نفسَها تقريبا، لكنّ أحدهما يتّهم أمريكا وإسرائيل، بينما يتهم الآخر القاعدة والمتطرّفين الإسلاميين، فأين الحقيقة بين هذين الرّأيين..؟؟

لقد فات الأوان وولّى زمنٌ وجاء غيره، وهذه هي سنّة الحياة التّي يدركها العقلاء.

لكنّ المأساة في أولئك الذّين يجهلون هذه السّنّة ويضعون أنفسهم وحواشيهم سدًا أمام حركة التّاريخ، ويتصوّرون أنّ الجهل بثورة الاتّصال والوعي الشّعبيّ سينجيهم كما هو حال النّعامة، في المثل الشعبي، حين تدفنُ رأسَها في الرّمل حتّى لا يراها الصّيّاد..!!

فما دامت لا تراه فهو لا يراها كما تظنّ بجهلها وغبائها..!!

ما أغرب تصريحات وزير خارجية عربيّ في اجتماع القاهرة الأخير وهو يدعو إلى اجتماعات اقتصادية عربية لتدارك الموقف..!!

ما زال الرّجلُ يعيشُ زمنَ الغفلة.. فالمواطن العربيّ على استعداد لربط حجرين اثنين على بطنه.. لكن مع ساسة يحترمهم ويحترمونه، ووسط أجواء تعبق بالحريّة والدّيمقراطية وحقوق الإنسان.

2011-03-05

سقوط حرّ لجميع المبرّرات

اختزل الرّئيسُ الاحتجاجات المطلبيّة التّي شهدتها بعض مدن بلاده مؤخّرا في خيوط مؤامرة خارجيّة وانتهى الأمر.. صحيفةٌ غربيّةٌ معروفة علّقت على الموقف قائلة إنّ الرّجل استخدم "لغة فارغة لا تنطلي إلاّ على شديدي الغباء".. وأكثر من ذلك سَخِرت منّا جميعا عندما ربطت بين لجوء ذلك الرّئيس العربيّ الشّاب إلى أفكار التآمر، والطبيعة العربيّة التّي تميل إلى تبرئة الذّات وإلقاء المسؤوليات على الآخرين.

إنّها تصرّفاتٌ مخجلةٌ وخطاباتٌ وقراراتٌ وأفكارُ إصلاحاتٍ يندى لها الجبين في زمن الوعي واليقظة وحرّية الإعلام، وشيوع المعلومات التّي حوّلت المواطن العاديّ إلى محلّل سياسيّ بعد أن توفّرت المعطيات على جميع الأصعدة، وصار الرّبط بين المقدّمات والنّتائج متاحًا حتّى لمن هو دون المتوسّط ذكاءً وثقافةً وتعليمًا.

عندما تتحرّك الجماهيرُ مُطَالِبةً بحياة حرّة كريمة، وعندما يرفع الشّبابُ أصواتَهم عبر الحناجر أو الفيسبوك منادين بحقّهم في صناعة القرار، وعندما تتململ القوى العشائرية والسّياسيّة بعد طول سبات قسري وتعلن بداية اليقظة، وعندما يعرف العالَمُ المحيط بنا حركيّة دائمةً وتداولاً جميلاً على كراسي الحكم؛ ننتظر أن تكون خطابات زعمائنا أقرب إلى العقل والحكمة إن لم تكن في صلبهما.

تكرّر المشهدُ في عدّة دول عربيّة حيث الإعلانُ الرّسميُّ عن قرب خطاب الرّئيس، ليستمرّ الانتظارُ ساعات في حالات وأياما في حالات أخرى، ويبحثُ النّاس في خلايا عقولهم ويقومون فرادى وجماعات بعمليات (عصف ذهنيّ) لاستخراج جميع الاحتمالات المتوقّعة والخطوط العريضة لخطاب السّيد الرئيس..!!

ويظهرُ نخامتُه في النّهاية مُكَرِّرًا خطابًا عتيقا اجتهد أعوانُه طويلاً في نفض غبار السّنين عنه، وإخراجه بشكل تَصَوّرُوا أنّه يتناسب مع طموحات وآفاق جيل الشّباب..!!

في خطابات أولئك الرّؤساء امتزجت الرّداءة السّياسيّة بالتّراكمات النّفسية، وزاد الطّينُ بِلّة ذلك الغوص العميق في الماضي، والعيش في ثنايا عقود سابقة كان فيها كلام الزّعيم الأوحد فوق

الشّكوك، وأكبر من أن يتعرّض لشبهة الحيف، وكانت أحكامه وقراراته هي عين الحكمة والعدل والإنصاف.

تحدّث عددٌ من الرّؤساء وأرهقونا كثيرا، ثمّ اكتشفنا إمكانية الصّبر عليهم لاحقا بعد مهزلة آخرهم خلال الأيّام الماضية حين كان يقهقه أثناء خطابه الذّي انتظره الشّعب والعالم عدّة أيام..!!

نعم كان يضحك ملء شدقيه وهو يتحدّث عن احتجاجات سقط فيها العشرات من أبناء شعبه، وكأنّهم جَرَادٌ ضارٌّ تمّ إنقاذ المحاصيل من شَرِّه، أو جرذان مؤذية على حدّ تعبير زعيم عربي وهو يتحدّث عن جزء من الشّعب قام مطالبًا ببعض حقوقه..!!

تحرّكت المظاهراتُ، وخرج النّاس وسقط العشرات قتلى برصاص مجهولين مسلّحين، استطاعوا التّسلّل في بلد يحكمه قانون الطوارئ منذ قرابة نصف قرن..؟؟!!

نعم هكذا قالت الرّواية الرّسمية مع أنّها لم تفسّر كيف استطاع هؤلاء الوصول إلى السّلاح أو وصول السّلاح إليهم، والتّدرّب عليه واستعماله في غفلة من عيون الأمن التّي عملت جاهدة على الوصول إلى كلّ مكان حتّى صار الزّوجُ يخشى زوجته في بعض المواقف، والأبُ يحجم عن الكلام أمام فلذة كبده الشّاب خشية أن يكون من أعوان بعض تلك الأجهزة وما أكثرها عددا وعدّة..؟؟!!

يأتي الخطابُ مُطَعّمًا بالقهقهة، ويحلّلُ الرّئيسُ الوضعَ ويخوض في تفاصيله، ويخلصُ إلى أنّ في الأمر (إنّ وأخواتها)، وهي المؤامرة الخارجية، والعدوّ المتربّص الذّي يستهدف أمن ورخاء وسيادة وعزّة ومنجزات البلاد وصمودها..!!

وتتفتّقُ (عبقرية الفريق) الذّي يقف وراء الرّئيس عن فكرة إلغاء حالة الطّوارئ في أقرب وقت ممكن، شرط أن تتزامن مع الإعداد لقانون مكافحة الإرهاب، وهو مؤشّر على وجود مسافة ضائعة في تفكير ذلك الفريق لا تقلّ عن عشر سنوات كاملة، لأنّ غرس التّرهيب بالإرهاب يحتاج إلى تربة مشابهة لما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتّحدة، ولا بدّ له من أشخاص مثل جورج بوش الابن وصقور إدارته..!!

وهو زمن ولّى إلى غير رجعة، فالذّين روّجوا للإرهاب ودعموه قد حصدوا ثماره لصالحهم، وانتقلوا إلى خطط وبرامج أخرى ربّما تنطلي على الشّعوب.

يدافع بعض المتحدّثين عبر الفضائيات عن أوضاع عربية خاطئة، وحجّتهم صمود تلك الدّولة أو مواقفها من الكيان الصّهيونيّ ودعمها للمقاومة، وهو أمر جميل للغاية ويمسّ وترًا حسّاسا في وجداننا العربيّ، لكنّ السّؤال الجوهريّ: إلى متى يظلُّ النّضالُ والصّمودُ مرادفًا للاستبداد والقمع والظّلم والفساد..؟؟

ألا يمكن الوصول إلى دولة تحقّقُ المواطنةَ الكاملةَ لجميع أفراد شعبها، وتمارسُ، في الوقت ذاته، دورًا نضاليًا وحضاريًا مشرّفا..؟؟

الشّكرُ موصول لجميع الصّامدين والمناضلين والمدافعين عن الحقوق العربية في فلسطين وغيرها، والتّقديرُ بأعلى درجاته لمناوئي التّدخّل الأجنبيّ والإمبريالية الأمريكية ومن يدور في فلكها، وأسمى معاني الاحترام لكلّ من حَمَلَ قلمًا أو بندقيةً أو دفع فلسًا أو سنتيما واحدا مساهمًا بذلك في إخراج جحافل الاستعمار البغيض ودفعها من جديد إلى مواقعها وراء البحار.

إنّ الشكر والتّقدير والاحترام في أعلى ترتيب قيَمنا الحضارية، وقد قدّمتها الشّعوبُ العربيةُ خلال عقود ماضية على حساب المواطنة والحرّية والعيش الكريم عسى أن يأتي الأفضل في جعبة القادم من السّنوات..!!

وطالت اللّيالي الحالكة وظلّ الفجر بعيد المنال، ومع ذلك صبرت الشّعوبُ حتّى نفذت آخر أسهم الكنانة فلم يعد هناك أيّ مجال لتأخير الإصلاح والدّيمقراطية الحقيقية والتّداول السّلميّ على السلطة.

لقد سقطت جميع المبرّرات سقوطا حرًا حتّى لو كانت من قبيل الصّمود والمقاومة، أو الإرث الثّوريّ وقائمة الإنجازات العظيمة..!!

ارحمونا من المبرّرات فقد صرنا مسخرةً وملهاةً تتسلّى بها أقلامُ وألسنةُ النّخب في الدّول المتقدّمة.

2011-04-09

الموتى لا يكذبون..!!

ماتت الحبيبةُ ولم يعرف بطلُ القصّة السّببَ الحقيقيّ.. المعلومات التّي وصلت إلى ذهنه تقول إنّ آسِرَة قلبه عادت ذات مساء وقد بلّلها المطرُ ثمّ اعتراها سعالٌ شديدٌ ألزمها الفراشَ أسبوعا كاملا.. وبعد ذلك لم يَعْلَق بالذّاكرة سوى مجيء وذهاب الأطبّاء واستعمال الأدوية.. ثمّ غاب عنه كلّ شيء.. لقد سافرت الحبيبةُ إلى غير رجعة واستقرّت هناك في مقبرة المدينة الكبيرة.

تمرّ أيّامٌ على الرّحيل الحزين، ويدخلُ البطلُ بيتَ الحبيبة فتحاصره الذّكريات الجميلة، ثمّ يكتمُ الواقعُ الأليمُ أنفاسَه فيهرب إلى الخارج ومن هناك يتّجه نحو المقبرة ليقف على ذلك القبر الذّي دَفَنَ بين جنباته عالمًا من الحبّ والوفاء، أو هذا ما كان يعتقده البطلُ الذّي راح يتحدّث عن نفسه ويقول:

(.. كان الظّلام حالكًا فتملّكني الخوفُ، ونال منّي الجهدُ، فجلستُ على أحد هذه القبور التّي تملأ المكان، بَيْد أنّي سمعت شيئا.. ماذا..؟

إنّها ضوضاء، أم لعلّها مجرّد أصوات تدوّي في رأسي المضطرب..؟

وفجأة شعرت كأنّ لوحة الرّخام التّي كنت جالسا عليها تتحركُ تحتي.

إنّها تتحرّك يقينا وترتفع تدريجيا، فوثبتُ من مكاني وانتقلتُ إلى القبر المجاور، فإذا بالحجر الذّي كنت جالسا عليه يرتفع منتصبا..

شهدته جليّا، وسرعان ما ظهر الميّت.. كان هيكلاً عظميًا عاريًا.. لقد رأيته بوضوح برغم الظّلام الحالك، وعلى الشّاهد فوق القبر نُقشت هذه العبارة: هنا يرقد جان أوليفان.. مات في الحادية والخمسين من عمره، وكان محبّا لأسرته عطوفا نبيلا كريم الخلق، وقد عاش ومات في حمى ربّه ونعمته..!

وأخذ الميّت يحملقُ بحجرته فيما كتبه الأحياء على قبره، ثمّ تناول قطعة من الصّوان وأزال الكتابة، وشرع في نقش عبارة أخرى في مكانها برأس العظمة الباقية من أصبعه، وما كاد يفرغ منها حتّى ظهرت حروفها أمام عيني كالنّار، فقرأت العبارة:

هنا يستريح جاك أوليفان، فارق الحياة في الحادية والخمسين من عمره، بعد أن عجّل بموت والده حتّى يرث ثروته، وعذّب زوجته وقَسَا على أطفاله، وخدع جيرانه، ونهب كلّ ما استطاع نهبه ومات خزيان تعسا..!

ثمّ وقف صامتا كالحجر يتأمّل ما كتب.

وتلفّتُ حولي فإذا القبور كلّها قد فُتحت وخرج منها أصحابها يمحون الأكاذيب ويثبتون الحقائق، فتبيّن لي أنّ بين هؤلاء الموتى لصوصًا وقطّاعً طرق ومجرمين وخبثاءَ ومنافقين وكذّابين ومحتالين، ومنهم من عذّب جاره وخدع قريبه وأتى كلّ المنكرات واقترف جميع الرّذائل، ولكنّ أهلهم خلعوا عليهم صفات الملائكة، فكنتَ تقرأُ أنّ هذا كان والدا رحيما، وهذه كانت زوجة وفيّة، وتلك عذراء طاهرة، وهذا خدم الإنسانية..!!

أجل لقد استيقظ الموتى جميعا وأخذوا يكتبون في آن واحد، على ألواح الرّخام، الحقائقَ المرّةَ التّي كان يجهلها الجميع أو يتجاهلونها..!).

ويستيقظُ البطلُ من صدمته ويتذكّر صاحبةَ القبر التّي جاء من أجلها ويطلقُ ساقيه للرّيح نحو الجهة التّي ترقد فيها: (لعلّها هي أيضا.. حبيبتي كسائر الموتى، كتبت عبارةً جديدةً على قبرها، وطفقتُ أعدو وسط الأكفان والهياكل العظميّة حتّى وجدتها.. هاهي، وهذا وجهها.. أمّا العبارة الأولى: أحبّت وأحبّت وماتت، فقد قرأتُ في مكانها العبارة التّالية: خرجت ذات ليلة ممطرة وخانت حبيبها، فأصيبت ببرد شديدٍ وماتت..!)

القصّةُ للكاتب الفرنسيّ (في دي موباسان) الذّي رحل عن هذه الدّنيا في إحدى سنوات العقد الأخير من القرن التّاسع عشر، وعنوان القصّة: (الموتى لا يكذبون).

وربّما تكون المفارقةُ أنّها تصوّر جزءا من واقعنا العربيّ هذه الأيّام عندما خرج الموتى من قبورهم، سواء كانوا أفرادا أو أنظمة حكم، وراحوا يصرّحون بألسنة جديدة عن مخازيهم، وما جَنَت أياديهم من مظالم ومفاسد في حقّ الشّعوب...؟؟

والمفارقةُ الأكبر أنّ الأحياء هذه الأيام يتكلّمون عن مساوئهم عبر ما يتسرّب من أسرارهم ووثائق مؤامراتهم ودسائسهم وعمالتهم..!!

لقد كان الزّعماءُ والسّياسيونَ في الماضي يموتون ولا يخرجُ إلا القسط اليسير من سجلاّت أقوالهم وأفعالهم، لكنّهم في هذا الرّبيع العربيّ صاروا يتابعون أسرار مخادعهم السّياسية بالصّوت والصورة،

وليسوا وحدهم في ذلك حيث يتابع معهم رعاياهم الذّين طالما ما صفّقوا لهم انخداعا، وخرجوا إلى الشّوارع تأييدا لهم حين كانوا يظنّون أنّ هؤلاء الزّعماء يحسنون صُنْعًا..!!

لقد تغيّرت معادلةُ الإعلام، وانتهت عقود الشّعراء المادحين المتملّقين الذّين سيطروا على محطّات التّلفزة الرّسمية العربية، وجلسوا القرفصاء على رؤوس الجرائد الكبرى ينتظرون الأوامر كي ينطلقوا في كيل المديح وإلباس الإخفاقات ثوب الإنجازات، ووضع تيجان من العزّة على مواقف الخزي والعار..!!

في عهد الإعلام القديم كان الزّعماءُ والقادةُ، ومَنْ حولهم، يموتون فتُسَوّدُ الصّحائفُ الطّوالُ في فضائلهم وإنجازاتهم، وحتّى كراماتهم، وعندما حلّ الإعلام الجديد تغيّرت الحال فتسرّبت الوثائق وخرجت الشّهادات إلى العلن، وتحدّث السّاكتون وتجرّأ المتردّدون، وهكذا دارت المطابعُ بالكتب والمذكّرات فأنارت بصائر الشّعوب وأعلنت نهاية النّفق المظلم، وبدء حياة تعلوها المصابيح والأنوار.

إنّ على من يعنيهم الأمر أكثر من غيرهم أن يعترفوا بالواقع الجديد الذّي قَلَبَ المعادلات القديمة فصار المحظورُ مباحًا، وتحوّل ما كان يحمل صفة (سرّي جدا) إلى مادّة مشاعة على صفحات الانترنت، بل عُرض على قارعة الطّريق كما حدث في مصر الثّورة عندما استولى المتظاهرون على مقرّ جهاز أمن الدّولة سيّء السّمعة واستباحوا وثائقه وتقاريره..!!

أيّها السّادة القابضون على أنماط من التّفكير البدائيّ: جدّدوا أنفسكم ونظرتكم تجاه مَنْ حولكم، وصارحوا شعوبكم، وتوبوا أمامها من جميع الخطايا، واطلبوا الصّفح منها، وهناك فقط ستجدون الأمن والنّجاة من محاكم التّاريخ، وحتّى من محاكم فعليّة صارت تستقبل الكبار، بعد أن ظلّت ردحًا من الزّمن حكرًا على الصّغار.

2011-05-28

رغم أنوفنا جميعا

ثوراتٌ رغم أنفكم.. هكذا عَنْوَنَ الزّميل الأستاذ يوسف شنيتي لعموده الثّابت (أمّا قبل) في الصّفحة الثّقافيّة بجريدة صوت الأحرار.. وضع ذلك العنوانَ الجريءَ قبل منتصف الشّهر الماضي وراح يتحدّثُ عن أولئك الذّين لم يعترفوا بأزهار الرّبيع العربيّ، ولا يرون من خلالها سوى الشّوك الذّي يولّدُ الدّماءَ فتغري الوحوشَ الضاريّة لتندفع نحو أراضينا، وهناك يختلطُ الحابلُ بالنّابل، وبين عشيّة وضحاها يتحوّل المستبدّون والجلاّدون إلى مجاهدين أخيار في وجه الحملات الصّليبية الجديدة.

يقول الأستاذ شنيتي: (ليس أحمد بن بلّة وحده الذّي لا يعترف بأنّ ما يحدث في تونس ومصر هو ثورة شعبيّة، ناهيك عما يحدث في اليمن وسوريا ودول عربية أخرى. هذا الرّجلُ لا يعترف إلاّ بالانقلابات العسكرية التّي يسمّيها الثّورات العربية بقيادة الضّباط في القرن الماضي... هذا الرّجلُ ظلّ وفيًا لقناعاته الأولى ولعصره، وهذا أمرٌ معقولٌ بالنّظر لسنّ الرّجل وهواه إذْ من المعلوم أنّ للسنّ أحكامه فيشدّه الماضي والذكريات، ويتغنّي بزمنه وأن لا زمان إلا زمانه ولا بطولة إلاّ بطولاته بالدّرجة الأولى ومن عاصرهم بدرجة ثانية..!! مع الأسف ليس بن بلّة وحده الذّي لا يعترف بهؤلاء الشّباب الذّين استعانوا بأدوات عصرهم وتوسّلوا بالعولمة والانترنت وتكنولوجيا الاتّصال لتكون لهم لغة اتّصال مغايرة، ويحتشدون وراء أهداف رسموها وناضلوا لأجلها، فمثله كثير من السّياسيين الذّين تجاوزهم الزّمن تماما وحتّى منهم الأكاديميين الذّين لا يزالون أوفياء للنّظريات والمناهج الكلاسيكية، وربّما لم يقرؤوا شيئا منذ سنوات طويلة في هذا الشّأن. لا يجرؤ كثيرٌ من المسؤولين العرب من المدنيين والضّباط على الجهر بقناعاتهم الحقيقية لأنّ ذلك سيكشفهم أمام شعوبهم، ولكنّهم في الظّل يدعمون الأنظمة الفاسدة والمستبدّة، ويشتغلون على إجهاض الثّورات والاحتجاجات بأيّ شكل، ولا يعترفون بمشروعيتها المطلبيّة اجتماعية أو سياسية.. أحمد بن بلّة يتحدّثُ بلسان غيره من أترابه الحكّام والمسؤولين العرب والأفارقة الذّين يحتكرون الحقيقة والثّورة والتّاريخ، ويتصوّرون الشّعوبَ قاصرةً صاغرةً وأنّها لن تدرك مستقبلها إلاّ بهم.. إنّهم لا يفقهون منطق التّاريخ الذّي تبلور بشكل آخر منذ عام.. منطقٌ يُميط اللّثامَ عن وجه رائع لشعوب

قرّرت أن تعيش بكرامة وديمقراطية ومواطنة إلى الأبد، مهما كانت المرحلة الانتقالية صعبة ومهما كانت حماية الثّورة واجبة وصعبة في آن.. كُفُّوا عن الأبوّة التّاريخية.. واتركوا الشّعوب تقرّرُ مصيرها من خلال الصّناديق ومن خلال قِيَم التّداول والحرّيات، وكُفُّوا عن ترويج فزّاعة الإسلاميين والمؤامرات الخارجية.. أتركوا النّاس وشأنهم حتّى وإن لم تعترفوا بأنّ ما يقومون به هو ثورة لأنّ الحكم للتّاريخ.. أما بعد: الثّوريّ لا يستقيل أبدا).

شدّني حديثُ الأستاذ يوسف، وأستسمحه في هذا الاقتباس الطّويل والحرفيّ تقريبا، لأنّ كلماته تعبّر عمّا يدور في نفوس الكثير من أهل السّياسة وأصحاب الفكر وحَمَلَة الأقلام والقراطيس، حتّى لو تلعثم لسانُ هذا, وتباطأ قلمُ ذاك, وتوارى ثالثٌ بين كلمات من ذوات الأوجه، وأطلق رابعٌ لنفسه العنان من خلال الإشارة إلى الأبعدين وعينه على الأقربين..!!

شدّني الكلامُ مع أنّني تمنيّت لو أنّه تأخّر أو تقدّم بعض الوقت، فربّما كان مدار الحديث شخصا آخر غير الرّئيس أحمد بن بلّة، وربّما حاقت ثورة قلم الأستاذ بأحد الذّين يستحقونها أكثر منه.

نعم إنّ للسنّ أحكامًا، كما جاء في العمود، وهكذا قد يكون من الغفلة انتظارُ الإصلاحات من تلك النّفوس التّي عشقت القديم وهامت بنفسها وزمانها وإنجازاتها الوهمية، وربّما يعود السّبب الرّئيس في ذلك إلى أنّ التّغيير فوق مستوى إدراك هؤلاء لأنّ عقارب السّاعة قد توقّفت عندهم منذ سنوات طويلة.

أيها السّادة: لا يعقل ما نراه من إصرار على الماضي..!!

لقد كانت عندنا إذاعات فقط وصارت بين أيدينا محطّات تلفزيونية بالأبيض والأسود، وبعدها استيقظنا على مئات القنوات الفضائية التّي تنقل لنا كلّ شاردة وواردة في بلداننا وبلاد العالم الأخرى، وبعدها وجدنا أنفسنا أمام ما صار يُعرف بالإعلام الجديد الذّي أَهَّلَ كلّ فرد ليصبح صحفيا، فهو يصوّر وينشر ويتحدّث عبر الانترنت، ويتجاوزُ أسوارَ الوهم التّي شيّدتها الحكومات على مدار عقود من القهر والاستبداد..!!

شَكَرَ الله سعيكم أيّها السّادة فنحن لا نريد أيّ إصلاحات منكم ولا نحمّلكم فوق طاقتكم.. كلّ ما نريده هو بعض التّزحزح وقليلا من المرونة حتّى تتمّ عملية التّسليم والاستلام بين الأجيال دون دمار ودماء وأيادي أجنبية.

إنّ التّغيير سنّة كونية رغم أنوفنا جميعا، ومن لم يتغيّر مدّة عام أو عامين، أو عقد على أكثر تقدير، فليتحسّس قلبه لعلّه فارق الحياة ولم يشعر بذلك..!!

وهي حقيقة مرّة تدفعنا إلى إدراك عدد وحجم أولئك الموتى الذّين يعيشون بيننا عبر أجسامهم الصّلبة وما تؤدّيه من وظائف فسيولوجية لا أكثر ولا أقلّ.

إنّنا ندركُ صعوبةَ المهمّة ومشقّتها على نفوسكم أيّها السّادة لكن (لا توجد مهمّة صعبة بعد تقسيمها إلى خطوات صغيرة) على حدّ تعبير هنري فورد.

نعم قسّموا المرحلة إلى خطوات وخلّصوا أنفسكم تدريجيا، وثِقُوا أنّ الشّعوب ستسامحكم بعدما تدرك نعمة الانتقال والتّغيير السّلميّ المحصّن ضدّ الشّوائب والمكروبات.

نعم.. مع كلّ ما حدث ويحدث ما زال الأملُ قائمًا في تجنّب الفتن والقلاقل، وهكذا ربّما تكون عبارة (ثورات رغم أنفكم) قابلة للتّعديل، ويكون البديل: (تغيير رغم أنوفنا جميعا).

كلّنا أمل أن تسير عجلةُ الأحداث في الجزائر نحو هذا التّغيير السّلميّ الإيجابيّ: إصلاحاتٌ سياسيةٌ حقيقية، وصحافةٌ حرّةٌ مسؤولة، ومجتمعٌ مدنيٌّ يرفض أن يكون ذيلاً.. وتأتي الثّمار الطّيّبة بعد ذلك تِبَاعًا.

2011-06-18

العرب البائدة

شمّاعة الصّهيونيّ.. شمّاعة أمراض العرب.. عنوان رسالة مختصرة وصلتني من إحدى المجموعات الإلكترونيّة المنتشرة في عالم الإنترنت.. جاء فيها: يمارسون عنصريّتهم وطائفيّتهم ضدّك باسم الدّفاع عن حقوقك وأرضك ومنعا لتحقيق المخطّط الصّهيونيّ.. يمارسون القمع ضدّ شعوبهم باسم مقاومة المشروع الصّهيونيّ.. يتناحرون فيما بينهم لمصالحهم ويُخونون بعضهم البعض بتنفيذ المشروع الصّهيونيّ.

يستمرّ الحديث عن العرب من وجهة نظر كاتب الرّسالة حيث يضيف: يقتلون بعضهم البعض ويتّهمون العدوّ الصّهيونيّ..!! يبرّرون جبنَهم واستسلامهم بسبب التّفوّق الصّهيونيّ..!! يبرّرون تخلّفهم عن الأمم بالتّفرّغ لمكافحة المشروع الصّهيونيّ..!! تنتقدهم وتعرّيهم فيتّهمونك بالارتماء في الحضن الصّهيونيّ..!! تشخّصُ أمراضَهم وعيوبهم الوراثية فيعتبرونك صهيونيا كابرا عن كابر.!! هؤلاء هم العرب..!!

نعم.. هؤلاء هم العرب على حدّ تعبير وتفكير صاحب الرّسالة، وغيره من الذّين فقدوا أيّ بصيص أمل في أغلب النّخب السّياسيّة التّي قادت العالم العربيّ خلال العقود الماضية، ووصلت به إلى هذه الدّرجات المتدنّية خاصّة في ميادين الدّيمقراطية والحكم الرّاشد وحقوق الإنسان.

نعم إنّ بعض ما جاء في الرّسالة واقعٌ عَاشَه عدد من الدّول العربية التّي تفنّنت حكوماتُها في إنتاج شعارات المقاومة ودعاوى الصّمود والتّصدّي للمشروع الصّهيونيّ في المنطقة، وفي المقابل سياساتٌ داخلية تأكل الأخضرَ واليابسَ في مجالات الحرّيات والحقوق والتّنمية الحقيقيّة.

هي رسالةٌ صادقةٌ لكنّ تداولَها لم يعد له ذلك الوقع الكبير، في تقديري، لأنّ الزّمنَ العربيَّ برمّته في طريقه نحو تغيير جذريّ، سواء شاء العرب الرّسميون أم أبوا.

ومردّ ذلك ليس إلى القوى الكبرى ورغبتها في وجوه جديدة، أو إلى المؤامرة التّي باتت أكبر من الحكومات العربيّة، أو أنّ دورَ كثير من الحكومات الموالية للغرب قد أكل عليه الدّهرُ وشرب، ولا مفرّ من استبدالها بغيرها..!!

بل لأنّ التّغييرَ هو سنّة الحياة التّي لا مناص لأحد منها، سواء كان شرقيًا أم غربيًا، عربيًا أم يابانيًا، مسلمًا أم بوذيًا.

إنّ الحديثَ عن ذلك النّوع من العرب ينبغي أن يكون من قبيل الحديث عن العرب البائدة، وهم، تاريخيا، تلك القبائل التّي كانت تعيش في الجزيرة العربية منذ أقدم العصور، ثمّ اندثرت لسبب من الأسباب، وها هي العرب البائدة المعاصرة تندثرُ أيضا لكنّ أسباب اندثارها صارت معروفة للخاصّ والعامّ..!!

إنّ شمسَ هؤلاء (المساكين) في طريقها إلى الأفول، لكنّ رحيلهم يتمّ وسط ضباب كثيف بفعل وسائل المقاومة الشّرسة التّي يبديها هؤلاء وحاشيتهم لإطالة أمد (المجد الزّائف) ولو قليلا، ومن هناك يمكن البحث عن بَالُوعَات هروب أخفّ ضررا من غيرها.

إنّ الضّبابَ الكثيفَ في الأفق السّياسيّ العربيّ قد تجمّع بعد إطلاق آخر سهم في كنانة هؤلاء البائدين العرب، وسهمُهم المزعوم هو الضّرب على وَتَر المقاومة والصّمود وجهاد الصّليبيين والغزاة الأجانب..!!

وهي مفارقةٌ عجيبةٌ وفتنةٌ مريبةٌ لأنّ حُمَاة الدّيار والأعراض والأموال المفترضين هم أولئك الذّين دمّروا مقوّمات الأمّة، وأذلّوا شعوبها، وتعاونوا مع مشاريع الغرب سرّا وعلانية، وكانوا سدّا منيعا أمام مقاومة العدوّ الصّهيونيّ..!!

إنّها لعبةٌ مثيرةٌ سبق أن نالت إعجاب الجماهير العربية في حالات مشابهة، كحالة صدّام حسين العراق، مع بعض الفوارق الجوهريّة التّي أَمْلاَهَا الزّمانُ والمكانُ في وقت غزو الولايات المتّحدة الأمريكية وبريطانيا لبلاد الرّافدين.

إنّها لعبةٌ خطيرةٌ ينبغي الانتباه جيّدا لعواقبها لأنّ المقصود منها إطالة أمد الأزمات العربية عبر تحويل بوصلة الأحداث واتّجاهات المعركة إلى طريق آخر..؟؟

فالقضية في الأساس هي شعوب آمنت بحقّها في الحرّية والعدالة والدّيمقراطية والحكم الرّاشد، لكنّ بعضها وقعت بشكل جزئيّ، على الأقل، في براثن المخطّطات الغربية ذات المرونة العالية والسّرعة في التّطبيق، والتّدخّل والتّفاعل مع مسارح الأحداث التّي تمسّ مصالح الغرب بشكل مباشر.

إنّها محاولاتٌ يائسةٌ لتضليل الشّعوب من جديد عبر رفع شعارات المقاومة والممانعة، لكنّ الأمل معقودٌ على جُرْعَة الوعي المركّزة التّي اكتسبتها الشّعوبُ العربيّةُ فباتت عصيّةً على أنماط الاستغباء والاستغفال.

ولعلّ لسان حال الشّعوب يقول الآن لبعض نماذج الزّعماء البائدين: في وسعك أن تكذب على بعض النّاس كلّ الوقت، وأن تكذب على كلّ النّاس بعض الوقت، لكّن (سابع المستحيلات) أن تكذب على كلّ النّاس كلّ الوقت.

فات الزّمنُ يا سادة لأنّ القضيةَ صارت واضحةً كالّشمس في رابعة النّهار، فأنتم الذّين مكّنتم للأجانب في بلداننا، وأنتم الذّين خضعتم لشروطهم السّياسية والاقتصادية، وأنتم الذّين سطّرتم بخنوعكم واستسلامكم، سنوات طويلة، سجلاّتٍ قاتمةً من المواقف السّياسيّة التّابعة للقوى الكبرى.

إنّ مواقفَ اليأس التّي يتفنّنُ العربُ البائدون في إبداعها كثيرة، ولعل من أطرفها وآخرها حديث الرّئيس السّودانيّ عمر البشير عن الجمهورية الثّانية بعد انفصال جنوب السّودان..!!

أيّ جمهورية يا زُول، كما يقول السّودانيون.. إنّ الجمهوريات الأولى والثّانية والثّالثة والرّابعة تقوم على سنّة تغيّر الأفراد والأحزاب وأنماط التّفكير واستراتيجيات الأداء وتجديد الرُّؤى، أمّا أنت يا زُول فما زلت في مكانك، إن لم تتقهقر إلى الوراء..!!

إذا أردت حقّا جمهوريةً ثانيةً فقدّم نموذجًا مشرّفًا، وأَعِدْ بعث (عبد الرّحمان سوار الذّهب) من جديد، وسلّم السّلطةَ لحكومة منتخبة.. وفي حفل التّسليم يمكنك إعلان الجمهورية الثّانية، كما أعلنتَ أمام العالم عن قيام دولة جنوب السّودان.

إنّ عربًا أدركوا أنّهم بائدون فأزاحوا أنفسَهم بسلام ووئام؛ جديرون ببعض الاحترام رغم ما أثقلوا به الشّعوب من مآسي سياسية واجتماعية.

قرارٌ صعب دون شكّ لأولئك الذّين اعتادوا على الكراسي والموائد والعواصم الغربية والشّرقية.

لكنّه سهلٌ لو تخيّلُوا أنفسكم مكان تلك النّماذج العربية التّي دفعت بها سنّة التّغيير إلى مدافن التّاريخ.

2011-07-16

الطّريق الثّالث

تحدّث خطيبُ الجمعة، لا فُضَّ فُوه، وصال وجال وربّما تبادر إلى ذهنه أنّ كلامَه دُرَرٌ عجز عنها الأوائل ولن يصل إليها الأواخر.. لقد دافع عن حياض الأمّة ونافح عن كرامتها وأَبَان وجه الحقّ من الباطل ودَعَا على الكافرين الظّالمين.. لكنّ المستمعَ، بعد قراءة متأنّية في مضمون الخطبة، يكتشف دون عناء أنّ تلك العنتريّات تصبّ في خانة نصرة الاستبداد والتّبرير له.

إنّ ماضي وحاضر الخطيب الذّي استمعتُ إليه، وكثير من أمثاله، مشحون بمعلّقات المدح والثّناء لأوضاع غير سوية صنعتها سياساتٌ هوجاء وحكوماتٌ عرجاء في هذا البلد العربيّ أو ذاك، وإنّ العقل اللاّواعي للخطيب المسكين هو الذّي يتحدّث بذلك الكمّ الكبير من أدبيات الطّاعة المطلقة لوليّ الأمر، والسّكوت عن الظّلم والفساد تحت ذريعة درء الفتنة وغيرها من (المسلّمات) الدّينية التّي تلقّاها النّاس عبر قرون طويلة، دون مراجعة علمية رصينة، وتحديدٍ مناسب لمدلولات المصطلحات، وظروف نشأتها، وطبيعة الرّجال الذّين وضعوها، وزوايا النّظر التّي كانت متاحةً في أزمانهم.

إنّ الأمنَ والسّلامَ نعمةٌ عظيمةٌ لا تقّدر بثمن، والفتنُ العمياءُ كارثةٌ عظيمة، بل تْسُونَامِي..!!

ولا يمكن لنصف عاقل استساغة المشاركة فيها أو التّمهيد لها أو المساعدة على إشعالها، فضلا عن العقلاء وأهل الحكمة، وما أكثرهم في عالمنا العربيّ رغم الجهود الرّسمية التّي عملت عقودا طويلة على إبعادهم عن المُتُون، لتضعهم في الحَوَاشِي على أحسن الأحوال.

نعم.. إنّ الأمنَ والسّلامَ نعمةٌ لا يعرفها حقّ المعرفة إلا من فَقَدها بعض الوقت، لكنّها لا تكون على حساب كرامة الوطن وسيادته ومستقبله، وخلاصِه من بين مخالب فرد متسلّط يعيث فيه فسادا منذ أربعة عقود دون حسيب أو رقيب، وبلا مسكة من عقل أو صحوة من ضمير..!!

مساكينٌ هم أولئك الخطباء الذّين يستيقظون فقط عند اهتزاز عروش الاستبداد، فيتفنّنون في إلقاء الخطب العصماء، ويتبارون في الدّعاء على الغزاة والكافرين، ويسردون الأدلّة الشّرعية المقرِّرة لحرمة استنصار المسلم بالكافر وما إلى ذلك..!!

جميلٌ أن نسمع منكم ذلك أيّها السّادة الكرام.. لكن مهلا.. أين كنتم عندما كانت بلاد المسلمين تُباع وثرواتهم تُقدّم (للكافرين) على أطباق من ذهب لقاء عمولات خفية، ووعود بالحفاظ على الكراسي، والتستّر على قمع الرّجال الأحرار الذّين صدعوا بكلمة الحقّ ورفضوا حياة الصمّ والبكم والعمي..؟؟

أين كنتم عندما كان (وليّ الأمر) يمرح ويسرح في (بلاد الكفّار)، ويعقد معهم الاتفاقيات ويدفع لهم الملايير تعويضا عن جنونه ومغامراته البلهاء، ويساهم في مخطّطاتهم بالسّكوت عن مجازر غزّة ولبنان وغيرهما..؟؟

أين كنتم عندما كان وليّ الأمر المستبدّ يستعين بالأجنبيّ لقمع شعبه، ويستورد أجهزة التّعذيب من الشّركات العالمية (الكافرة) وأنتم تدعون له بالصّحة وطول العمر والنّصر والتّمكين..؟؟

لا أدري كيف سَيُقْبِل شبابُ اليوم على الدّين ويتمسّكوا به إذا كانت صورته بهذا الهوان عند بعض الخطباء..؟؟

إنّنا في زمن الحرّيات وسيادة الشّعوب وتنصيبها لحكامها، وخلعهم متى حادوا عن السّبيل قيد أنملة؛ فارحمونا بارك الله فيكم ولا تقدّموا لنا الإسلام مرادفًا للغباء والتّنازل عن العقل والطّاعة العمياء لوليّ الأمر، والسّكوت المطبق عن الجريمة والفساد والعمالة..!!

إنّ الدّينَ الإسلاميَّ نصوصٌ مقدّسةٌ محفوظةٌ في صدور العلماء وميسّرة لكلّ من أرادها عبر الكتاب وغيره من وسائط النّشر، ويمكن للعلماء الرّاسخين الواعين بعصرهم قراءتها من جديد، وهكذا لن نكون ملزمين بثقافة هوان واستكانة ارتبطت بالأمّة قرونا طويلة..!!

إنّنا ملزمون بالمعين الصّافي الذّي فهمه الرّعيل الأول، ومنهم الفاروق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حين قال: (متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا).

وإنّنا ملزمون بفهم ذلك المسلم الذّي وقف للفاروق عمر في خطبة الجمعة وقال له: لا سمع ولا طاعة حتّى نعرف من أين لك هذا الثّوب الطّويل..؟؟

فاضطرّ عمر أن يستنجد بابنه الذّي أقرّ بأنّه وَهَبَ نصيبَه في العطاء لأبيه الخليفة، فصار الثّوبُ على مقاسه، وهو المعروف بطول القامة..!!

وبعدها قال الرّعيةُ للرّاعي: الآن نسمع ونطيع..!!!

أيّها الخطباء الكرام: إنّ قلوب الأحرار تعتصر ألمًا لما يجري من تدخّل أجنبيّ في ليبيا أو غيرها، وتسيل تلك القلوب دمًا للمصير الذّي آلت إليها سوريا العروبة والمؤامرات التّي تُحاك ضدّها بعد أن خرج شعبها يطالب بحقّه في الحرّية والكرامة.

أيّها الخطباء الكرام: اطمئنّوا فلا أحد يقبل الفتنة لبلاده، وليس في الأمّة، تقريبا، من تروقه مناظر الدّماء والخراب والدّمار، وطوابير الأرامل والأيتام، وسيارات الإسعاف والمستشفيات المزدحمة بالموتى والجرحى وسط نقص الدّواء وشحّ البنزين وانقطاع الكهرباء..!!

إنّه منظر مرعب لا نتمنّاه حتّى لأبناء دول الأعداء الذّين استعمرونا طويلا، فكيف بأنفسنا أو جيراننا وأشقّائنا..؟؟

لكن أيّها الخطباء: لا تضعوا جماهير الأمّة بين خيارين أحلاهما علقم: إمّا هؤلاء الفاسدين المستبدّين، أو الدّماء والتّدخّل الأجنبيّ..!!

بالله عليكم ألا يوجد طريق ثالث..؟؟؟

لقد قال مبارك: مصر ليست تونس، وقال القذّافيّ: ليبيا ليست مصر.. ولا نريد أن يستمرّ مسلسل الاستخفاف والغباء الاستبداديّ، لأنّ الاستثناء منعدم تقريبا في حالتنا العربية الرّاهنة، فقد دخلت الشّعوبُ مرحلةَ وعيٍ جديدة حتّى لو سلّمنا بنظرية المؤامرة، وطبعا: بعد أن نلغي عقولنا ونصدّق أنّ جميع أبناء الوطن عملاء، حتّى أطفال المدارس..؟؟!!!

نريد الشّفاءَ التّام من داء غرس الرّؤوس في الرّمال كما تفعل النّعامة، وبدلا عنه طريقًا ثالثًا تتحرّكُ من خلاله الحكومات.. طريقٌ لا هو استمرار في فكر وسلوك الاستبداد، ولا هو الثّورة ولو كانت سلمية، لأنّها مدخل مناسب جدا للأجنبيّ المتربّص ومخطّطاته الكثيرة.

2011-09-24

كفاية.. كفاية

قال الفنّانُ الشّابُّ إنّ بحوزته صورًا تظهر مسؤولينَ عربًا يشربون الكحول في حذاء الفنّانة فلانة (زوجته السّابقة)، تلك العجوز التّي عُرفت بزواجها من الشّباب، ومنهم هذا الفنّان الذّي كان زوجًا في العشرين وهي في السّتّين.. وقبل أكثر من عشر سنوات أرادت راقصةٌ مصريّةٌ معروفةٌ نشر مذكّراتها فاهتزّت قلوبُ سياسيّين ومسؤولين كبارا خوفا على بيوتهم، لأنّ الرّاقصةَ كانت مَزَارًا لعدد معتبر من أصحاب الوزن الثّقيل.

تلك الصّور التّي يملكها الفنّانُ الشّاب ومذكّراتُ الرّاقصة يختصران بعض ملامح المشهد الرّسميّ في عدد من البلاد العربيّة، ويفصحان عن مقدار الرّداءة التّي وصلت إليها السّياسة خلال العقود الماضية، ومنها ندرك أسباب النّتائج الهزيلة التّي حقّقناها على المستويات السّياسية والاجتماعية والاقتصاديّة، والمكانة الدّولية وقضية فلسطين..؟؟

إنّ بعض المهازل التّي تخرجُ للعلن، وتكشفُ عنها الأيّامُ والمذكّراتُ، تمثّل مبرّرا كافيا للجماهير الغاضبة، لو استطاعت يوما أن تضرب رموزَ الفساد والاستبداد بالأحذية على الوجوه، ولن يدينها التّاريخ أبدا، ولن يقول أحدٌ إنّ الجماهيرَ أساءت الأدبَ، وجانبت الذّوقَ، وخالفت ما تعارفت عليه الأمم من احترام وإجلال الكبار..!!

لقد غادر الاستعمارُ الأوروبيُّ بلادنا العربية مُكْرَهًا، وتنفّست الشّعوبُ الصّعداء وأطلقت العنان للأماني الجميلة بعهد تظلّله الكرامةُ والعزّةُ والرّفاهية، وصَبَرَت تلك الشّعوبُ على سنوات الشّعارات الكثيرة، وانتظرت النّتائجَ العمليةَ، لكنّ اللّيالي الحالكة طالت، فصبرت ثمّ صبرت ثمّ صبرت، لكنّ الخيطَ الأبيض لم يظهر في الأفق فعرفت الجماهيرُ أنّ الظّلام يريد البقاءَ إلى الأبد، وأقسم على ذلك بأيمانٍ غليظة..!!

النّموذج المصريّ كان الأبرز في مشهد الاستبداد العربيّ المعاصر، وقد بلغ اليأسُ مبلغه عند البعض حتّى قالوا إنّ تمثال (أبو الهول) يمكن أن يتحرّك، لكنّ الشّعب المصريّ لن يتحرّك ويثور على جلاّديه..!!

لقد ظنّ هؤلاء أنّ المصريين ناموا كأهل الكهف، ولن يستيقظوا قبل مئات السّنين وخلالها سيحكمهم مبارك وأبناؤه ثمّ أحفاده..!!

وقد لخّص الظّرفاءُ المشهدَ بهذه الطّرفة حين أهدى أحدهم لمبارك سلحفاةً وقال: يا (ريّس) إنّها تعيش أربعمائة سنة.. قال الرّئيس: (حَنْشُوف)، سنرى..!!

نعم سيعمّر هو ونسلُه ويعيدوا عهد المماليك أو عثمانيّي عصر الانحطاط الذّين ساموا الشّعوب العربيّة المشرقيّة العذاب..!!

ملايينُ المصريّين كبروا وهم يشاهدون الشّمس تشرق من الشّرق وتغرب في الغرب، ومعها مبارك كلّ صباح ومساء: في المناسبات والقنوات التّلفزيونية والقمم العربية، وفي سفر أو عودة من أمريكا وأوروبا، وفي استقبال أو وداع رئيس وزراء أو وزير دفاع إسرائيليّ..!!

الأمرُ نفسه يتكرّر وإن اختلفت تفاصيل المشهد.. في تونس، واليمن، وسوريا، وليبيا ودول أخرى..!!

وهكذا طفح الكيلُ فتحرّكت شعوبٌ بأكملها تطالب بالحريّة والكرامة والتّداول السّلميّ على السّلطة.. وقامت قيامةُ الحكومات واجتهدت أن لا تقعد وهي تدافع عن حقّها المزعوم في البقاء بعد أن دقّت ساعةُ الفناء..!!

ومع فظاعة ما حدث يمكن التّنازل واستساغة ما حدث في دول عربية، مشرقيّة ومغربية، لأنّنا ندرك أنّ الاستبدادَ لا يملك سوى تلك الأساليب البشعة..!!

لكنّ ما يصعب هضمه هو بقاء (مثقّفين) في تلك الحلقة المفرغة: ينافحون عن أنظمة في طريقها إلى الانقراض بعد أن تجاوزها الزّمن، وانتهت صلاحيتها لدى شعوبها والغرب على حدّ سواء..!!

ترتفعُ أصواتُ (مثقّفين) في فضائيات رسميّة وغير رسمية لتبكي على الأمّة ومستقبلها وكرامتها، وسيل الأعداء العرمرم الذّي بدأ يزحف، والاستعمار الجديد والمخطّطات التي تُحاك ضدّ البلدان العربية، ومطلع القرن الجديد ومقارنته بالتّحركات والمؤامرات الأوروبية علينا بدايات القرن العشرين، وكيف قسّمونا وجعلونا دولاً يعادي بعضُها البعض..!!

ويستمرُّ الكلامُ على هذه الوتيرة السّريعة المثيرة للنّخوة والعزّة، وتتحوّل أصابع الاتّهام في الغالب إلى قنوات فضائية إخبارية، فيكيلُ لها المتحدّثون التّهمَ ويحمّلونها وِزْرَ ما يحدث في البلدان العربية من قتل وفِتَن وفَلَتَانٍ أمنيّ..!!

والسّؤال الموجّه لهؤلاء (المثقّفين): ماذا تريدون أيّها السّادة الكرام..؟؟

باختصار شديد لا بدّ أن تسكت الشّعوب المظلومة وتحمد الله وتقبّل أياديها (وجه وظهر) على حدّ تعبير بعض إخواننا المشارقة.. لماذا..؟؟

لأنّ هؤلاء الحكّام الأشاوس يوفّرون الأمن ويحمون البلاد من الفتن والقتل والقتال..!!

ما أحوج هؤلاء المساكين إلى تذكّر عبارات جميلة عن الحرّية: الأمنُ بدون حرّية هو أمن المقابر، فهو يعني ببساطة فرض حالة الطّوارئ وحظر التّجوال فيستتبّ الأمن لكنّ البلد برمته يتحوّل إلى مقبرة كبيرة، والعدالةُ الاجتماعيةُ دون حرية هي عدالة حديقة الحيوانات حيث يتلقّى كلّ فرد حصّته من الأكل لكنّه داخل القفص، واقتصادٌ دون حرية هو اقتصاد العمارات الشّاهقة التّي تهوي على رؤوس الجميع في أوّل زلزال بسبب الغشّ والفساد..!!

كَفَانَا استخفافًا أيّها السّادة: بيعٌ للبلاد، وعمالةٌ بالجملة والتّجزئة، وفسادٌ زكمت روائحُه الكريهةُ الأنوفَ، وتوريثٌ في جمهوريات، وتعديل للدّساتير على المقاس دون حياء من الله أو النّاس..!!

وفي الأخير يأتي هذا المستبدّ أو ذاك ليتقمّص دور الأبطال المحاربين للأجانب والمدافعين عن حياض الوطن وكرامة الشّعوب وشرف نسائها..!!

صحيفةٌ تركيةٌ نقلت عن داوود أوغلو، وزير الخارجية التّركيّ، أنّ الأسد أبلغه عن عزمه ضرب إسرائيل.. ويذكّرنا هذا بصدّام حسين الذّي استباح الكويت وجرّ الغرب إلى بلادنا، ولمّا ضاقت عليه الدّنيا أطْلَقَ عددا من الصّواريخ على إسرائيل..!!

وإيران (الثّورة) تساندُ كلَّ ثورة غير ثورة سوريا لحاجة في نفس يعقوب، وعندما تشعرُ بأنّ سمعتها قد اهتزّت يُطْلِقُ قادتُها تصريحاتٍ نارية تدعم الحقّ الفلسطينيّ وتهدّد إسرائيل بالفناء..!!

كَفَانَا استخفافًا لأنّ فلسطين لن يحرّرها المستبدّون، أو العملاء، أو الفاسدون الذّين امتصّوا دماء الشّعوب.. كِفَايَة.. كِفَايَة.. فهذا الأمرُ صار مثيرا للغثيان.

2011-10-08

القَشّةُ التّي قَصَمَت ظَهْرَ البَعِير

كتبت زميلةٌ صحفيّةٌ جزائريّةٌ في مقدّمة تقرير إخباريّ: (إنّه زمن الإعلام بامتياز، بل إنّ الإعلام وتحديدا التّلفزيون أصبح الصّانعَ الأهمّ للأحداث في العالم. وقد بيّنت تجاربُ أحداث المنطقة العربيّة الأخيرة مدى خطورة سلاح الصّورة، حيث تمّ خلق ثورات من وهم وتمّ تقزيم وتدمير مؤسّسات وشخصيّات. ويذهب البعضُ إلى حدّ الجزم أنّ مصائر رؤساء ودول عربيّة حُسم في الشّاشة قبل الواقع).

نعم إنّه زمن الإعلام بامتياز، وزمنُ السّلطة الرابعة التّي تحولّت إلى سلطة أُولَى في كثير من الأحداث والوقائع.. إنّه زمنُ صاحبة الجلالة، الصّحافة، بعد أن تضاعفت قدراتها مئات المرّات خلال ثورة التّقنيات الحديثة ومفاجآتها التّي تعجز إمكانيات الفرد عن ملاحقة تطوّراتها وتفاصيلها شبه اليوميّة.

نعم إنّه زمنُ الإعلام رضينا بذلك أم سخطنا، حيث لم يعد في وسع فرد أو نظام أو دولة الامتناع عن العيش داخل (القرية العالميّة الواحدة)، والاستثناء قد يظهر فقط عند بعض الذّين ما زالوا يعانون أشدّ حالات الفقر والتّخلّف في سفوح الجبال والصّحارى البعيدة والأدغال والوديان السّحيقة.

نعم إنّه زمنُ الإعلام الهائج كَنَهْرٍ هادرٍ غذّته مياهُ الأمطار بكميات لم يعهدها من قبل، لكنّه سيظلّ إعلامًا فقط، وتنحصرُ مهمّته الأساسيّة في نقل الواقع المتاح للقلم وآلة التّسجيل والكاميرا، ومع مراحل النّقل قد تحدث المبالغةُ والتّضخيمُ، أو التّصغيرُ والتّقزيمُ والحملاتُ المنظّمة، وقد تخيّمُ أيضا ظلالُ الاستغلال والتّوظيف والكيد وسوء النيّة في البدء والختام.

إذن يستطيع هذا الإعلامُ فعلَ الكثير، لكنّه لن يتمكّن من خلق شيء من العدم، وإذا حاول ثمّ نجح في صنع الوهم؛ فلن يدوم له ذلك طويلا، فهو على حدّ تعبير الحكمة: (يستطيع أن يكذب على كلّ النّاس بعض الوقت، ويستطيع أن يكذب على بعض النّاس كلّ الوقت، لكنّه لن يستطيع الكذبَ على كلّ النّاس كلّ الوقت).

وعودةً إلى كلام الزّميلة الجزائرية لنسلّط الضوء على عبارة مثيرة بعض الشّيء وهي: (ويذهب البعضُ إلى حدّ الجزم أنّ مصائرَ رؤساء ودول عربية حُسم في الشّاشة قبل الواقع)..!!

وهنا مربط الفرس ومكمن الاختلاف حيث يرى (آخرون) أنّ هذه الشّاشة، مهما بدت لامعةً بمذيعاتها الفاتنات، لن تحسم مصائر الدّول والمؤسّسات العربيّة كما نقلت الصحفيّةُ عن ذلك (البعض)، والعكسُ هو الصّحيح حيث حُسمت مصائر تلك الأنظمة في الواقع قبل الشّاشة..!!

بل إنّ بعضها كان ميّتا منذ سنوات طويلة لكنّ قوى دولية ظلّت تمدّه بأنابيب التّغذية اللاّزمة لأنّ مصلحتها في بقاء صورته، واستراتيجيتها في امتصاصه حتّى آخر قطرة دم، ثمّ تساهم بعد ذلك في عملية رميه داخل مزبلة التّاريخ، دون أدنى مراعاة لعلاقات سابقة ومشاهد تلفزيونية ظهرت فيها وجوه الأنظمة باسمةً مع ساسة الغرب وقادة الولايات المتّحدة الأمريكية..!!

بل يمكن المضيُّ أبعد من ذلك بالحديث عن أنظمة وُلِدت ميّتة، وحملت بذور فنائها في بياناتها الأولى وخطواتها التّالية، حيث أسّست للفساد والاستبداد، ومهّدت الطّريق أمام الأجنبيّ ليدخل إلى (غرف نومنا السّياسية والاقتصادية والثّقافية)، وهناك يصنع ما بدا له، ونتحولُ نحن إلى مجرّد صدى لسياساته، أو ردود أفعال (عشوائية وارتجالية وحماسية) في أحسن الأحوال.

إنّ الواقع المشحون بالتّراكمات والإحباطات والإخفاقات هو الذّي يحسم مصير الأنظمة، وليست قناة فضائية مهما علا شأنها، لأنّ هذه الأخيرة لن يتجاوز دورها النّقل والمبالغة والتّحريض في أسوأ الأحوال، وهذه أمور لن تصمد في وجه الحقيقة لو كان الواقع في صالح الأنظمة وليس العكس، ولو كانت الشّعوبُ تشعر بالحدّ الأدنى من الكرامة والرّفاهية، وتحسّ كلّ يوم أو شهر أو سنة، بل كلّ نصف قرن، أنّ عجلة حياتها تسير نحو الأمام وليس الخلف..!!

إنّ ما حدث في دول عربيّة عديدة هو (منتوج) سنوات من الاستبداد والفساد والصَّغار أمام الأجنبيّ، وعندما زاد على حدّه بقدر كبير كانت القنوات الفضائية في كامل استعدادها لنقل ما يحدث، والاستفادة منه وتوجيهه إلى مسارات قد نختلف في الحكم عليها بالبراءة وطيب النيّة، أو سوء الطويّة..؟؟

وهكذا مثّلت تلك القنواتُ دور (القَشَّةُ التّي قَصَمَت ظَهْرَ البَعِير) لا أكثر.

لو كانت وسائل الإعلام تُسْقِط الأنظمةَ دون أسباب أخرى جوهرية لبادر نظام حسني مبارك إعلاميا إلى إسقاط إمارة قطر لتسقط معها قناة الجزيرة، والكلُّ يعلم مقدار الحرج السّياسيّ الذّي

سبّبته مواقف سياسية قطرية لمبارك وسياسته، والكلُّ يعلم أيضا حجم وعدد البرامج والحوارات التّي كانت تقدّمها الجزيرة في الاتّجاه المعاكس لمسارات ما يسمّى السّلام والاعتدال التّي تبنّاها الحكم البائد في مصر.

المملكة العربيّة السّعودية ذات الوزن العربيّ والإسلاميّ طالما تنافست، حتّى لا نقول تنازعت، مع دولة قطر في العلن أحيانا، ومن وراء الكواليس سنوات طويلة، فهل كان يعجزها الإطاحة إعلاميا بالقائمين على الحكم في قطر، لو علمت أنّ الإعلام يسقطُ الأنظمةَ دون أسباب داخلية قاتلة..؟؟

لو كان الإعلامُ يحسم الأمرَ وحده فتعالوا إذن لنستريح من حروب الكرّ والفرّ بيننا وبين الكيان الصهيونيّ بعد أن نسلّط عليه عددا من القنوات الفضائية النّاطقة بالعبرية وغيرها، ونتخلّص منه إلى الأبد..!!

ولو كان في يد الإعلام حسم المعركة وحده فما أقدر الجزائريين على هزيمة فرنسا وإيقاف استفزازاتها وتدخّلاتها المتكرّرة، وبينهم الذّين يمتلكون ناصية اللّسان الفرنسيّ كأهله..!!

إنّ نظرةً عابرةً في سجلاّت التّاريخ سوف تظهر لنا أسبابَ سقوط الدّول، وسنعرفُ بسهولة أنّها داخليةٌ في الأساس، ومنها التّرهّل والفساد والخَواء الرّوحيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ، ثمّ يأتي العامل الخارجيّ، وربّما يؤدّي دَوْرَه الإعلامُ في هذه المرحلة، ويكون بمثابة (القطرةُ التّي أفاضت الكأس).

2011-10-15

خيارٌ واحدٌ فقط..!!

صناديق خاصّة خارج إطار ميزانيّة الدّولة تشكّلت منذ أكثر من أربعين عاما في مصر، وظلّت تؤدّي دور البقرة الحلوب لأعدادٍ محدودةٍ من المسؤولين ومَنْ يدور في فَلَكِهم.. وأموالُ تلك الصّناديق من رسوم يدفعها المواطن المغلوب على أمره في المستشفيات ومواقف السّيّارات وغيرها، إضافة إلى اقتطاعات من المساعدات والهِبَات الخارجيّة.. صناديق ظلّت دائما بعيدة عن أعين هيئات الرّقابة.

تفاصيلُ الصّناديق وردت على لسان مدير مركز دراسات مصريّ استطاع الحصول على وثائق خطيرة تحتوي على أرقام وأسماء وحسابات وطرق ملتوية لصرف وتبديد أموال الشّعب المصريّ.!!

والعجيبُ الغريبُ في هذه الصّناديق أنّ فيها الآن، بعد النّهب المنظّم، ما يزيد عن المائة مليار جنيه مصريّ، أي ما يقارب العشرين مليار دولار أمريكيّ، بينما تسعى الحكومةُ المصريّةُ الحاليّة للحصول على قروض خارجيّة..؟؟

والخطيرُ فيما ذكر المديرُ أنّ محاولاتٍ حثيثةً لتصفية هذه الصّناديق في فترات قياسيّة قبل اكتمال العمليّة الدّيمقراطيّة، ووصول حكومة ورئيس منتخب إلى سدّة الحكم.

الموضوعُ برمّته ورد في حوار تلفزيونيّ جريء وصريح حيث استطاع صاحبُ البرنامج مع ضيفه، مدير مركز الدّراسات، تشخيصَ الدّاء تماما والكشف عن علّة العلل وهي بالنّسبة لجمهورية مصر العربيّة: تسلّط مجموعة تقارب الألْفَيْ شخص على مقاليد المال والاقتصاد والتّجارة، حيث تراهم في الاستيراد والتّصدير والتّوكيلات الدّاخلية والخارجيّة والمواد الأساسيّة وغيرها، ومن ثمّ يتحكّمون في الأسعار وأنواع السّلع، ويحرّكون عجلة البلاد حسب أهوائهم ونزواتهم وشراهتهم التّي لا تكاد تعرف الحدود..!!

ما كُشف في هذا البرنامج التّلفزيونيّ، وما ظهر قبله، هو قليل من كثير ما زال خافيًا في مصر ما بعد حسني مبارك، لأنّ الهياكلَ الأساسيّةَ لنظام الحكم، الذّي يُفترض أنّه صار سابقا، ما زالت كما هي، وأنّى لها أن تتغيّر بهذه السّهولة وعمرُ النّظام في مرحلته الأخيرة فقط ثلاثون سنة..!!

وهكذا فإنّ أرقامًا وممارساتٍ تَشيبُ لها الولدان سوف تخرج للعلن بعد ازديادِ مساحات الحريّة في مصر، وتَهَشُّمِ البنية التّحتية لعصابات الفساد والاستبداد..؟؟

الحديثُ عن الفساد وحجمه في مصر، التّي تَحَطّمَ فيها رأس الأفعى وإن ظلّ جسمها يتلوّى، ربّما شكّلَ أحد الأساليب السّهلة لفهم ما يجري في الجمهوريّة العربيّة السّورية حيث شلاّل الدّم المتدفّق منذ أزيد من عام، ومن خلاله تتوالى المخاطر وتتعاظم مؤامرات وخطط الأعداء القريبين والبعيدين.

الحالُ في سوريا، قبل بدء مرحلة كشف الوثائق والملفّات والأرقام، ليس أفضل من مصر مبارك، لأنّ التّشابه عظيم خاصّة أنّ المقدّمات والمعطيات واحدة، وهي تلك الانقلابات العسكريّة التّي أوصلت عناصر غير مؤهّلة إلى السّلطة، وهناك تكوّنت حولها حلقاتٌ من المصالح، وحول تلك الحلقات حلقاتٌ أخرى وهكذا دواليك..!!

ومع مرور عقود من الزّمن صارت المنظومةُ أشبه بعقد اجتماعيّ غير بريء وغير معلن، تشترك فيه نسبة من الشّعب لا تزيد عن الواحد أو اثنين في المائة، لكنّها تتحكّم في كلّ شيء، وتسعى لبلع كلّ ما تصل إليه، بعد أن عقدت العزم على أكل يابس البلاد فضلا عن أخضرها..!!

إنّ بداية الحكاية في سوريا هي تلك المظاهرات السّلميّة التّي خرجت قبل عام وشهد لها العالم كلّه بسلميّتها، وفجأة ودون مقدّمات معتبرة صار في سوريا آلاف المسلّحين الذّين خرجوا من باطن الأرض كما سيحدث قرب قيام السّاعة مع يأجوج ومأجوج، أو أنزلتهم صحونٌ طائرةٌ وصلت من كواكب تبعد عن الأرض ملايين السّنوات الضّوئيّة..!!!

لقد بدأت المظاهراتُ في سوريا سلميّةً وكانت ستستمرّ على نهجها، وهو أمر محرج جدّا للنّظام والمافيا الماليّة المنضوية تحت عباءته، فكيف يمكن ضرب تلك الجموع ونشر الفزع والرّعب في صفوفها..؟؟

ومن ثمّ تخويف بقيّة أبناء الشّعب وثَنْيِهم عن المطالبة بحقّهم المشروع في الحريّة والعدالة والدّيمقراطيّة.

الأمرُ يَسيرٌ للغاية شرط التّخلّص من كلّ معاني الإنسانيّة، فضلا عن القيم الدّينية والأخلاقية..!!

إنّه صناعة مجموعات مسلّحة يسهل وصفها بالإرهاب والإجرام، ومن ثمّ يُضرب الشّعب بسببها، لأنّ وظيفة القوّات النّظاميّة حماية البلاد من المجرمين، ويمكن أيضا نسبة أيّ جرائم تقوم بها مليشيات (الشّبّيحة) إلى تلك الجماعات الإرهابيّة المسلّحة.

إنّها عمليّةٌ نفسيّةٌ غير معقدّة ومضمونة النّتائج، ولا تحتاج إلى مخابر بحث وأجهزة رصد عالية المستوى وخطط متناهية الدّقة..!!

إنّها في حاجة إلى وضعٍ عامّ مُحْبَط، وشعبٍ فيه فقر أو عدم رضا عن الوضع السّياسيّ، وهو أمرٌ متوفّر في سوريا بعد نصف قرن من حكم حزب البعث، وفي حاجة أيضا إلى تشجيع الفكر الأحاديّ والتّديّن المتشدّد ولو ظهر سلميا في البداية..!!

وفي الوقت المناسب يمكن اللّجوءُ إلى عمليات استفزاز شديد يتمثّل في اعتقالات تعسّفيّة، وعمليات تعذيب منظّمة، وانتقام من الأبرياء، وتضييق على الأرزاق، وفي حالات متقدّمة تغمضُ أجهزةٌ محدّدةٌ أعينَها عن حركة تدفّق الأسلحة من خلال التّهريب وغيره.. وفي فترة قياسيّة جدًّا تتشكّل مجموعاتٌ مسلّحة..!!

لقد (ناضل) النّظامُ السّوريُّ منذ بدء الاحتجاجات السّلمية لأجل إقناع العالم أنّ في بلاده مجموعات إرهابيّة، ويبدو أنّ تكرار الكذب، مع العمل على تهيئة مناخ مناسب للجريمة والإرهاب، قد حقّق المطلوبَ عندما بدأت بعض الأصوات الدّوليّة تتحدث عن إيقاف العنف من أيّ طرف في سوريا.

حديث طويل قد يُقال في (فنّ صناعة العنف)، وقد يصعب فهم الدّوافع والمسبّبات والمبرّرات..؟؟

لكنّ العودةَ إلى أمر الصّناديق المصريّة وحجم الفساد يسهّلُ الإدراك، ويفسّرُ سرّ القسوة تجاه الشّعوب، لأنّ الذّي مصّ دماءَها على مدى عقود لن يجد صعوبةً في إشعال الفتن إزهاق الأرواح، لأنّه عاش، وسيظلّ كذلك، ضمن خيار واحد فقط وهو: عداوة الشّعب.

2012-03-24

المحور الخامس

الرّبيع العربيّ.. من أين..؟؟ وإلى أين؟؟

في هذا المحور حديثٌ عن تلك الأسئلة الصّعبة: هل نجحت الثّورات.. فشلت.. لم تفشل.. مَنْ قَادَها.. الثّورات المضادّة..؟؟؟

في إحدى المقالات، توقّعتُ أنّ الوضعَ لن يعود إلى الوراء أبدا، وبعد النّجاح الظّاهر للثّورات المضادّة هل شعرتُ بالنّدم..؟ لا.. أبدا..

نجحت ثوراتُ الشّعوبِ لأنّ قيامَها نجاحٌ في حدّ ذاته..

إنّ قراءة الحاضر تقتضي البدء من عقود ماضية، وأحيانا من قرون سالفة بكلّ ما لها وما عليها.. فنحن أمّةٌ عانت الويلات من الاستعمار الأوروبيّ الحديث، وما تركه من ندوب في جسم الأمّة، بل جروح ما زالت تنزف دمًا حتّى الآن.

هذا المستعمر لم يغادر أراضينا بعد أن ذاق مرارةَ الهزيمة العسكريّة.. بل تلوّن كما تتلوّن الحرباءُ ليتحوّل إلى استعمار ثقافيّ وفكريّ وسياسيّ واقتصاديّ.

ترك الاستعمارُ في بعض الحالات من يؤدّي دورَه بالتّمام والكمال.. وعجزت منظوماتُ الحكم الجديدة في حالات أخرى عن الوصول إلى القوّة التّي تقف أمام مكائد وحيل الاستعمار الجديد.

لقد غادَرَنا الاستعمارُ وكان يعيش أزهى سنوات قوّته: تكتّلاتٌ سياسيةٌ واقتصاديةٌ واستقرارٌ وقوةٌ علميةٌ وثقافيّة وإعلامية.

ونحن.. ما زلنا نخطو خطواتنا الأولى..

ما الذي حصل إذن...؟؟؟

إنّها محاولاتٌ على طريق التّغيير، والسّعي نحو الأفضل..

وما آلت إليه هذه المحاولاتُ من فشل ظاهريّ أمرٌ عاديٌّ في ميزان التّجارب التّاريخية القريبة والبعيدة.

المعادُلة ببساطة: شعوبٌ أرادت التّغيير، ولم تمتلك العدّةَ الكافية، فتآمرت عليها قوى الدّاخل والخارج.. والنّتيجة ما نراه.. لكنّ السّير في الاتّجاه الصّحيح هو نجاحٌ في كلّ الأحوال.

القائد الحقيقيّ للثّورات العربيّة

هكذا كان الهدفُ المعلنُ من وراء تلك الرّسالة الإلكترونيّة المشحونة بالصّور: محاولةٌ لفهم ما يحدث في عالمنا العربيّ من ثوراتٍ متتاليّةٍ أو ما يسمّيه البعض بربيع البلاد العربيّة.. نضعُ بين يديكم حقيقة الثّورات العربيّة, ولكن لابدَّ من معرفة السّبب الحقيقيّ والدّافع لها.. إنّ الحديث عن (برنارد هنري ليفي) يقف بنا بعيدا للتّأمّل، إلى أين وصل بنا حالنا..؟!.

يواصلُ صاحب الرّسالة، أو أصحابُها، فيقول: ثورات دنيوية قامت بهدف الحرّية المزعومة، لا من أجل كلمة التّوحيد (لا إله إلا الله محمّد رسول الله)، كان عرّابها ذلك الرّجل الصّهيونيّ.. إنّ من يتابع أخباره وتصريحاته وكتاباته يكتشف أنّه ليس مفكّرا وصحفيًا عاديًا يعيش بكسل وراء مكتبه المكيّف، إنّه رجلُ ميدان عرفته جبال أفغانستان، وسهول السّودان، ومراعي دارفور، وجبال كردستان العراق، والمستوطنات الصّهيونية بتل أبيب، وأخيرا مدن شرق ليبيا.. حيث أنزل العلَم الأخضر الذّي اعتمدته القيادة اللّيبية، كردّة فعل على اتفاقيات كامب ديفيد سنة 1977م، ورفع علَم الملكية السّنوسية البائدة.

تواصل الرّسالةُ الإلكترونيّةُ المتداولةُ (رسالتَها التّنويريّة) فتُورِد عددا كبيرا من الصّور يظهر من خلالها الفرنسيّ الصّهيونيّ سابق الذّكر (ليفي) إمّا مصافحًا أو متحدّثًا أو مجتمعًا مع شخصيات سياسيّة وغيرها.. وتحت كلّ صورة تعليق يطول أحيانا ويقصر.

ومن التّعليقات ما يلي: (حيثما مرّ تفجّرت حروبٌ أهليةٌ وتقسيمٌ، وطائفيةٌ، ومجازرُ مرعبة، وخرابٌ كبير، وجهده المبذول من أجل التّرشح للرّئاسة في إسرائيل ولكن بعد أن ينهي المهمّة التّي يقوم عليها ليمهّد لإسرائيل جديدة، وعرب جدد، وشرق أوسط جديد بمباركة أمريكا وبريطانيا وفرنسا.. نعم كلّنا ضدّ معمّر وحسني وبشّار وعلي صالح وغيرهم ممن كان مُستعملا ومستخدما لخدمة أمريكا، إلاّ أن أمريكا وجدت أنّ هؤلاء غير صالحين للعهد الجديد والشّرق الأوسط الجديد الذّي تحدّثت عنه السّمراء كونداليزا رايس. في مصر تمّ تفعيل استخدام الفيسبوك لأنّ الشّاب المصريّ شديد التّأثر بالتّقنية وتمّ استخدام وائل غنيم للقيام بهذه المهمّة.. وهو، أي ليفي، من

وقف في ميدان التّحرير وقال نعم كنت أدفع من جيبي الخاصّ لهذه الثورة. شاهدنا كيف اجتمع مع بعض القادة من الإخوان المسلمين في مصر واجتمع بشباب الثّورة. وبمثل ما كان نزوله في ميدان التّحرير بالقاهرة، كانت بنغازي ليست بعيدة عنه، بل وصل به الأمر لإلقاء كلمة في بنغازي وسط تجاهل تامّ من القنوات العربية التّي تدعم الثّورة، فلم نشاهده على القنوات الفضائية وأخصّ منها الجزيرة التّي غطّت ثورة مصر على مدار السّاعة فما الهدف من تجاهل تلك القنوات؟؟؟. وها هو هنا يطّلع على التّخطيط والخرائط في ليبيا، مع القائد المنشقّ عن معمّر وقائد الجيش في المجلس الانتقاليّ والسّؤال كيف سُمح لهذا الشّخص أن يصل إلى أن يطّلع على سير العمليات وأيّ نفوذ لديه وما الدّور المستقبليّ الذّي ينتظره في حال سقطت تلك الأنظمة؟. السّؤال الذّي يُؤرّق الجميع لماذا غيّبت القنوات الفضائية التّي تدعم الثّورات حقيقة هذا الرجل ونفوذه على الشّعبين المصريّ واللّيبيّ).. انتهى.

إنّ ما سبق يمثّلُ أنموذجًا واضح المعالم عن الحالة النّفسية التّي يعيشها قسم من أبناء الأمّة بعد عقود طويلة من الذّلّ والخوف والاستخفاف بالذّات وتضخيم قوّة الغرب والولايات المتّحدة..!!

إنّها حالةٌ مَرَضِيّةٌ مستعصيةٌ عند أولئك الذّين يؤمنون بأنّ أمريكا تعرف عنّا كلّ صغيرة وكبيرة، وأكثر من ذلك: لا شيء يتحرّك أو يتغيّر في بلادنا إلاّ بتخطيط وأوامر مباشرة من تلك القوّة العجيبة..!!

إنّه إدمان جلد الذّات والتّهوين من شأن قدراتنا ومن ثمّ الوقوع بين براثن الجحود المطلق لإمكانيّة الانطلاق من جديد..؟؟

إنّه وضعٌ مؤلمٌ دَفَعَ كاتبًا عربيًا معروفًا إلى تجاهل الشّعوب تماما ليختزل المشهد العربيّ الرّاهن في عدد من المشاريع الإقليمية والدّولية المتنازِعة أو المتحالِفة لأجل تقاسم النّفوذ عبر (سايكس بيكو) جديدة، لقد تحدّث الرّجل (الحكيم) عن المشروع التّركيّ، والإيرانيّ والأوروأمريكيّ، وبين هذا وذاك يحشر المشروع الصّهيونيّ أَنْفَه محاولا توجيه دفّة سفينة الأحداث نحو ما يُطيل عمره في المنطقة..!!

الفرق واضح يا (قوم).. فلا مجال للمطابقة مثلا بين ما وقع في العراق عام 2003 وما حدث ويحدث في ليبيا عام 2011، فثلاثيّ الجغرافيا والتّاريخ والزّمن يصنع فروقا كالجبال لا تخطئها الأعين ولا يمكن التّعامُش عنها..؟؟

والحالةُ ذاتُها مع (سايكس بيكو 1916) القديمة، وتلك الجديدة التّي يُدَنْدِن حولها محلّلون وكتّاب وسياسيّون، ويخوّفوننا عبرها من مقاومة الاستبداد والفساد..!!

علينا أن ندرك، تمام الإدراك، أنّ الشّعوبَ العربيةَ سئمت الاستبداد وكرهت وجوهه المتعدّدة، وقد قامت مُنَافِحَةً عن كرامتها وحرّيتها، وخلال حراكها المنظّم أو العفويّ ربّما احتضنها الغربُ والتّرك والفرس، واستغلوا حاجتها للمساندة.

فماذا يكون ردّ فعلنا يا ترى..؟؟

هل نعلّقُ أوسمةَ الشّرف لساسة الأنظمة الاستبدادية، ونقدّمُ لهم ولأبنائهم وأحفادهم صكوكَ وَلاَءٍ مطلقٍ لأنّ المدعو (ليفي) الصّهيونيّ ظهر في بعض مشاهد الثّورات العربية، ولأنّ هيلاري كلينتون قالت إنّ الديمقراطية العربية الوليدة تصبّ في مصلحة الولايات المتّحدة الأمريكية..؟؟

وعودة إلى الرّسالة حين قالت: (ثوراتٌ دنيويةٌ قامت بهدف الحرّية المزعومة، لا من أجل كلمة التّوحيد).. لنتساءل، مع الدّكتور حاكم المطيريّ: كيف بدأ الإسلام دينا يدعو إلى تحرير الإنسان من العبودية إلى دين يُوجب على أتباعه الخضوع للرّؤساء والعلماء مهما انحرفوا وبدّلوا بدعوى طاعة أولي الأمر..؟؟

وتساؤلات أخرى حول الإسلام والحرّيات وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعيّة والنّضال ضدّ الظّلم والاستبداد، وبعدها أجوبة علمية موثّقة حَوَاهَا كتاب الدّكتور المطيري الموسوم بـ (الحرّية أو الطوفان: دراسة موضوعية للخطاب السّياسي الإسلاميّ ومراحله التّاريخية).

2011-11-12

مرحلة ما بعد الدّكتاتوريّات

ذكرت النّاشطةُ الحقوقيّةُ سهام بن سدرين أنّ لديها معلومات مؤكّدة أنّ أحد المورّدين قام بتوريد حاوية كاملة من "اللِّحَى الاصطناعيّة"، واستغربت المتحدّثةُ خلال لقاء تلفزيّ عدم قيام الجهات المسؤولة بمتابعة هذه المسألة على الرّغم من خطورتها في مزيد تعكير الأوضاع والرّفع من فزّاعة السّلفيّين أو أصحاب اللِّحى.

هذا الكلامُ عن تلك اللِّحَى الاصطناعية هو نصّ خبر، بالمبنى والمعنى، نشرته جريدةُ الشّروق التّونسية في عددها الصّادر يوم السّادس عشر جوان الجاري، وعَنْوَنَت له بـ (سهام بن سدرين تفجّر قنبلة).

الصّورة التّي أوردتها الجريدة للسّياسيّة التّونسية، صاحبة القنبلة، تدلّ على أنّها من الطّيف السّياسيّ غير المتديّن كما شاعت التّسميات والتّقسيمات؛ لأنّ السّيدة، أو الآنسة لا أدري، لم تكن محجّبةً من خلال تلك الصّورة التّي رافقت الخبر، الأمرُ الذّي يستبعد شبهة وقوف حزب (حركة النّهضة)، الشّريك الرّئيسيّ في الحكومة، وراء نشر أو إشاعة مثل هذه الأخبار لحسابات سياسية.

ماذا تعني مثل هذه الأخبار..؟؟

وما الذّي ترمي إليه..؟؟

وما حقيقة بعض التيّارات الدّينية المتشدّدة وتحرّكاتها في أوقات وأماكن بعينها..؟؟

إنّه ملفٌّ ثقيلٌ وغامضٌ يصعب الحديث حوله، وقد يظلّ كذلك حتّى تصل بلداننا وشعوبنا إلى مرحلة كشف المستور ورفع السرّية عن كثير من الملفّات والوثائق، أو ما يظلّ منها سالما بعد هذه العواصف التّي تتعرّض لها عدد من الدّول العربية..!!

لقد تحرّك السّلفيون واستخدم بعضهم العنف في تونس خلال الفترة الأخيرة، وثارت حول تصرّفاتهم تساؤلات وشبهات، خاصّة بعد أن كالفت جهاتٌ تونسيةٌ معروفةٌ لتصنع منهم فزّاعةً

ترمي، في المحصّلة، إلى التّخويف من الحرّية وأنّها لا تعني سوى سيطرة هؤلاء على الشّارع وفرض آرائهم بالقوّة..؟؟

وفي هذا السّياق يمكن تفسير (قنبلة) النّاشطة السّياسية التّونسية سهام بن سدرين في الخبر السّابق الذّي نشرته جريدة الشّروق التّونسية، لتتسرّب خيوطُ الشّكّ بعدها إلى بعض مظاهر الاحتجاجات التّي تحمل أسماء ورموز إسلامية في هذا البلد العربيّ أو ذاك، ومن ثمّ البحث عن المستفيد، لأنّه الطّريق الموصل إلى الحقيقة أو بعضها على الأقل..؟؟

موضوعٌ آخر مشابه ربّما يكون في المضمار ذاته، وهو ما يُعرف بتنظيم القاعدة في اليمن، وتلك الاجتياحات التّي شنّها على مدن ومناطق خلال السّنة الأخيرة من حكم الرّئيس علي عبد الله صالح، لتأتي المفارقةُ الآن حين تتقدّم قوّاتُ الجيش اليمنيّ، بصحبة المتطوّعين، وتنتصر في الميدان على حساب القاعدة..؟؟

وهنا بيت القصيد: لماذا تقدّموا، أي أفراد القاعدة، في ذلك الوقت بالذّات، وعادوا إلى حجمهم الحقيقيّ الآن..؟؟

والحديثُ عن (اللّحَى الاصطناعيّة) في تونس والقاعدة في اليمن هو أنموذج لما يحدث في العالم العربيّ في هذه المرحلة الحاسمة، وحجم التّناقضات والمفارقات التّي تظهر هنا وهناك، وأكوام التّخويف الإعلاميّ من التّغيّرات في هذه الدّولة العربية أو تلك، لكنّه يظلّ طبيعيا إلى حدّ كبير، لأنّ العقلاء، مهما اختلفت مشاربهم، على يقين أنّ الانتقال من مرحلة إلى أخرى لن يمرّ في الغالب مرور الكرام، بل تصحبه ردودُ فعل ممانعة بأشكال متعدّدة، قد تصل إلى حدّ الجنون السّياسيّ كما نرى في تصرّفات البعض هذه الأيّام.

إنّ الذّي يحدث في العالم العربيّ الآن هو عودة إلى ما قبل مائة سنة تقريبا، حيث معاهدة (سايكس بيكو) وربّما (وعد بلفور) وتكالب القوى العظمى على شعوبنا من خلال إعادة تقسيم النّفوذ وتبادل الأدوار، وهكذا نرى اصطفافًا بين الصّين وروسيا وإيران، وفي الجانب الآخر أمريكا ودول غربية أخرى.

المفارقةُ في (المؤامرة) الدّولية الحالية على العالم العربيّ أنّ خيوطها لم تعد تنسج في الخفاء، كما كان الحال في السّابق، بل إنّها تجري تحت سمع وبصر العرب، حكاما وشعوبا، لأنّنا نتابع الأحداث والوقائع والاجتماعات والتّصريحات مباشرة عبر القنوات الفضائية ووسائل الإعلام الجديد،

ونتبادل الآراء حول ما نرى ونسمع في اللّحظة والتوّ، وهذا هو عنصر القوّة الجديد بين أيدي العرب..!!

لقد عملت القوى العظمى في نهاية الحرب العالمية الأولى على تثبيت مصالحها وتقاسم أراضينا، ونحن في سبات عميق بسبب التّخلّف السّياسيّ والثّقافيّ وحالة الضّعف التّي كنّا نعانيها، ومستوى وسائل التّواصل في ذلك الوقت، لكنّ ما يحدث الآن مختلف تماما بسبب وسائل الاتّصال الحديثة، وكمّ الأخبار المتدفّقة عبر جميع الوسائط التّقنيّة المتاحة.

إنّ من تجليّات هذه المرحلة وصولُ أطياف سياسية جديدة إلى سدّة الحكم، وبعض خصوم هذه القوى يتخوّفون من تحوّلها إلى أنظمة استبدادية بعباءات دينية، وأكثر من ذلك قد تفشل هذه القوى في تحقيق برامجها وتعود الأحزاب والوجوه السّابقة، فهل تعود قاطرةُ الزّمن إلى الوراء..؟؟

قطعًا لن يحدث ذلك ولنا في أوروبا الشّرقية خير مثال حين فشلت بعض أحزاب ما بعد الشّيوعية في تحقيق الرّخاء المنشود، وهكذا عادت بعض الشّعوب إلى انتخاب الأحزاب الشّيوعية، فهل عاد الشّيوعيون إلى سابق عهدهم من القمع وكبت الحرّيات والرأي الواحد..؟؟

لم يحدث ذلك لأنّ حاجز الخوف انكسر إلى الأبد.

وقبل ذلك شهدت الثّورة الفرنسيةُ انتكاسات وعادت المَلَكِيّة، لكنّها لم تتمكّن من إعادة سجن الباستيل الرّهيب و(ترويكا القهر) حيث الكنيسة والإقطاع والمَلَكيّة المطلقة، لأنّ شعار (الحرّية والمساواة والإخاء) أسّس لقيم جديدة أوصلت إلى الجمهورية الثّانية وما بعدها.

المشهدُ العربيُّ يحمل الكثيرَ من المفارقات وحتّى المخاوف، لكنّ تباشير الأمل في ما هو آت واضحة للعيان.

إنّه مخاضٌ عسيرٌ لا بدّ منه للمرور إلى مرحلة ما بعد الدّكتاتوريات، والحياة من خلال قيم جديدة يعرف فيها المواطنُ قدرَه والحاكمُ حدودَه، وتنشأ أجيالٌ جديدة في أجواء الحرّية والعدالة والدّيمقراطية.

2012-06-23

الإخوان والنّهضة.. أمهلوهم ثمّ اسقطوهم

إلى أين تتّجه الأحداث في مصر بعد إقرار الدّستور الجديد، وهل وصلت البلادُ فعلا إلى حالة من الانقسام الحادّ.. وهل يدركُ الرّئيس محمّد مرسي حجمَ المغامرة التّي يخوضها وهو يمضي قُدُمًا في خطّته دون اكتراث بالمعارضة عدا دعواته المتكرّرة للحوار الشّامل.. قد نتّفق على توصيف المشهد لكنّ الاختلاف مؤكّدٌ حول تقييم دور هذا الطّرف أو ذاك.. وهو مربط الفرس.

خطواتُ الرّئيس محمّد مرسي، وفريقه ومناصريه، تبدو سريعة الإيقاع وكأنّ القوم في عجلة من أمرهم، ودليل ذلك رفضهم أيّ دعوات لتأجيل الاستفتاء على الدّستور، كما رفضوا قبل ذلك تمديد عمل هيئة الدّستور، وظهروا في المشهد العامّ كمن يسابق الزّمن نحو هدف ما..!!

ما هو هذا الهدف..؟؟

مرّة أخرى تختلف وجهات النّظر وتتباين التّفسيرات حتّى تصل إلى النّوايا..!!

يتّجه الفريقُ المناوئُ للرّئيس محمّد مرسي نحو مجموعة اتّهامات وتحذيرات تصل إلى درجة المناداة بالويل والثّبور وعظائم الأمور، ومن يستمع إلى إعلام هذا الفريق وتصريحات قادته يكاد يجزم أنّ مصرَ مقبلةٌ على مرحلة سوداء في تاريخها المعاصر، كما يجزم أنّ دكتاتورية أخرى قادمة لا محالة، وتحمل هذه المرّة عباءة الدّين والتّديّن، وهي أخطر من سابقتها، على حدّ تحليلات هؤلاء، لأنّ الاستبداد باسم الدّين صعبُ المراس، فصاحبه لا يقبل النّقاشَ ولا يعرف الخطأَ، حيث يعتقد أنّ الحقَّ المطلقَّ إلى جانبه دائما..!!

ويردّ الفريقُ الرّئاسيُّ، ومَنْ حوله من الأحزاب والتّيارات والشّخصيات، أنّ الهدفَ واضحٌ والقصدَ شريفٌ لا مراء حوله، وهو الخروج من المرحلة الانتقالية بأقصى ما يمكن، لربح الوقت.. لأنّ البلد، بعدد سكّانه الضّخم واقتصاده الكبير ودوره الإقليميّ، صار أشبه بذلك القطار المتوقّف الذّي ينتظر الانطلاق، وهذا الانطلاق لا يَتَأَتَّى إلا عبر اكتمال المؤسّسات الشّرعية للدّولة، ومن ثمّ تتحرّك قافلةُ التّنمية والعمل والبناء على جميع المستويات وبكلّ الأبعاد.

هذا الفريقُ يتّهم خصومَه، أو قسما منهم على الأقل، بالإصرار على البقاء في هذه المرحلة الانتقالية، التّي لا تطعم النّاس من جوع ولا تؤمّنهم من خوف، بل إنّها عاملٌ مساعدٌ على بقاء المشاكل ونموّ الطّفيليات وتكريس سياسة اللاّعقاب سواء ما تعلّق منها بملفّات الفساد والمفسدين من رجالات النّظام السّابق، أو محاكمة قَتَلَة الثّوار والأبرياء وغير ذلك.. وعلى العموم بات من المعلوم بالضّرورة أنّ المراحل التّي لا تتّضح معالمها تكون فرصة لكثير من صيّادي المياه العكرة، لأنّهم لا يحسنون النّشاط والسّباحة في غيرها من المياه النّظيفة والأجواء المفتوحة..!!

حديث هؤلاء وهؤلاء متناقض، والشّعب المصريّ قد أُوتِيَ مَلَكَة الكلام والتّعبير والخطابة، وعدد القنوات الفضائية المصرية كثير.. وهكذا إذا أدمنتَ الجلوسَ أمام قنوات هؤلاء القوم واستمعت إلى المجادلات والنّقاشات فستقضي حولها السّاعات والسّاعات، فكلٌّ يُدْلِي بدلوه، وكلٌّ يحسن إيراد الحجج والبراهين، وكلٌّ يدّعي تمثيل الشّعب والدّفاع عن حاضره ومستقبله..!!

إذن: كيف نفهم اتّجاهات الأحداث في مصر..؟؟

ومن ثمّ نميّز بين الخطأ والصّواب في ضوضاء التّصريحات والتّصريحات المضادّة، والمظاهرات والاعتصامات المؤيّدة لهذا الطرف، وما يقابلها من الجهة الأخرى..!!

إنّ مصر انتقلت بشكل سلميّ، ولو نسبيا، وتجاوزت مرحلة رجل مستبدّ أمضى في الحكم ثلاثين عاما وكان يرغب في المزيد أو التّوريث.. ومن مكاسب الزّمن العربيّ المعاصر أنّ هذا الانتقال حدث بأيادي مصرية خالصة، كما هو الحال في تونس أيضا، ولم تتدخّل طائرات النّاتو، ولم يخيّم ظلُّ الغرب الثّقيل على المشهد.

التّغييراتُ حدثت في مصر لكنّها لم تكن صارمة.. أيّ أنّ ما صار يُعرف بثورة الخامس والعشرين من يناير كانت أقرب إلى الانتفاضة منها إلى الثّورة، وهكذا لم تجرف، كما هو الحال مع الثّورات في الماضي، كلَّ شيء وتترك البلاد قاعا صفصفا من الوجوه الماضية، وعلى جميع المستويات.

ما حدث مع الثّورة المصريّة هو مجرّد تغييرات جزئية لكنّ الحال بقي كما هو في الجسم العامّ للدّولة، خاصّة العميقة منها..!!

وهكذا مرّت البلادُ بفترات مدّ وجزر بين هذا الطّرف أو ذاك، وبين من يدفع المركب إلى الأمام ومن يجرّه إلى الخلف.

وخلال عمليات الجرّ تتحقّقُ مصالحُ وتنضج مخطّطاتٌ وتستمرّ أوضاعٌ غير سوية.. وكان لِزَامًا على قائد السّفينة أن يدفع بقوّة نحو الأمام، لتكتمل الأسباب وتتّحد أجزاء الصّورة، وينغلق الباب أمام كلّ صاحب هوى ومصلحة في عودة ما مضى.

الحقيقةُ أنّ ما حدث من تغيير سلميّ في تونس ومصر فتح باب الأمل لدى كلّ عربيّ منصف، فلأوّل مرّة في التّاريخ العربيّ الحديث ينتزع الشّعبُ حقَّه في الحرّية دون أن يختلط الحابل بالنّابل، وتتحوّل البلاد إلى دمار وفوضى كما حدث في بلدان عربية أخرى.

لكنّ المسارَ أَوْغَل في الخطأ بعد ذلك، خاصّة عند من صاروا يُعرفون بالمعارضة، والسّبب أنّهم استعجلوا الأمر، فذهبوا يبحثون عمّن يحكم، ولماذا يحكم هو ولستُ أنا، وكيف استطيع إنزاله من الكرسيّ لأجلس مكانه..؟؟

ذاك حالهم.. أمّا المنطق فيقول إنّ الأولوية المطلقة الآن هي: (كيف نحكم) وليس (من يحكم)..

ماهي آليات وفلسفات الحكم الجديد..؟؟

وهذا ما تسير عليه الأمور في مصر وتونس عبر جمعية تأسيسية واستفتاء ثمّ برلمان، ومن ثمّ تثبيت صورة الحكم الديمقراطيّ وميلاده بشكل عاديّ لا يضرّ بأحد.

أيّها المعارضون في تونس ومصر: ليس المهمّ من يحكمكم الآن، بل الأهمية القصوى للعملية الدّيمقراطيّة، وبعد أن تستتبّ الأمورُ ويكتملُ المشهدُ يمكنكم إزاحة حكّامكم الحاليين بشكل ديمقراطيّ..

النّهضة والإخوان.. أمهلوهم ما دامت المؤسّسات في طريقها نحو الاكتمال.. وبعدها أسقطوهم عبر الأساليب الدّستورية.

2013-01-06

إبراهيم الكوني.. ودُبَيْ الثّقافيّة

في عددها لشهر سبتمبر الماضي بلغت مجلّةُ دُبَيْ الثّقافية العدد مائة بالتّمام والكمال، وبرزت مظاهرُ الاحتفال والإشادة بهذا الإنجاز على الغلاف خصوصًا، ثمّ من خلال افتتاحيّة رئيس التّحرير.. وحقّ لهذه المجلّة أن تحتفل ولأصحابها أن يفرحوا لأنّ إنجازهم صمود في عالم جديد يحاول جرّنا إلى الوجبات الثّقافية السّريعة والجاهزة على شاكلة (الفاست فود).

مجلةُ دُبَيْ الثّقافية تسير على خُطَى مجلّة العربيّ الكويتيّة، وربّما كان في خيال مؤسّسي الثّانية صورة الأولى العريقة، وهم يضعون أقدامهم على أوّل الطّريق لتبدأ الخطوةُ الأولى ومنها الانطلاق نحو مسافة الألف ميل.

وربّما كان في تأسيس الثّانية منافسةٌ للأولى، وهي منافسة محمودة بل مطلوبة في عالم الثّقافة العربية، وليت هذا النّوع من المنافسة يتسرّب إلينا في المغرب العربيّ، خاصّة في الجزائر التّي لا تختلف عن دول الخليج في المال والثّروة، فلا عذر لها إذا برّرت دولٌ مغاربيةٌ أخرى عجزها بقلّة ذات اليد.

تحملُ المجلّةُ في غلافها كلمات (أدب، فنّ، فكر) وهي حدودٌ رسمتها المجلّةُ لنفسها على ما يبدو، وهذه الثّلاثية محايدة في الغالب حتّى لو حدث اختلاف وتباين داخل مجال الأدب أو الفنّ أو الفكر، وهكذا ستكون المجلّة مقبولة من الجميع أو الغالبية على الأقل، فالإجماع المطلق أقرب إلى المستحيل.

لكنّ هذه الحيادية المفترضة والمطلوبة خالطتها بعض الشّوائب في هذا العدد الذّي يمثّل مرحلة معيّنة في مسيرة المجلّة، وأعنى بالشّوائب هنا تلك السّياسة التّي ظهرت واضحة جليّة، أي السّياسة بمعناها المباشر الذّي نتابعه في وسائل الإعلام، أمّا السّياسة بمعناها غير المباشر فلا مفرّ لنا منها في الثّقافة والفنّ والأدب، وحتّى منابر المساجد ومدرّجات الجامعات وملاعب الكرة وغيرها..!!

ظهرت السّياسةُ المباشرة في العدد مائة من خلال مقال انحاز صاحبه إلى طرف دون آخر في الأزمة المصريّة الحالية، وكان المقالُ سياسيا بأتمّ معنى الكلمة ولم يحمل طابع التّحليل الفكريّ أو البحث عن الأبعاد الثّقافية لما يحدث، حتّى نبرّر للكاتب والمجلّة ما ذهبا إليه..!!

كما ظهر عنوانٌ آخر في زاوية خاصّة بالدّراما جاء سياسيا وتحريضيا بامتياز، ثمّ حشاه صاحبه بأحكام واتهامات يقول إنّ الدّراما عملت على إيضاحها..!!

إنّها دُبَيْ الثّقافيّة وليست السّياسيّة، ويكفي أنّها ثقافيّة وفقط، فإمارة دُبَيْ، والإمارات العربية المتّحدة، تملك وجوهًا أخرى في السّياسة وخصوصًا ما تعلّق بالأحداث الأخيرة في مصر والدّعم الماديّ السّخيّ الذّي وصل إلى القاهرة من أبوظبي، وأكثر منه ذلك الغضب الذّي صدر عن السّاسة في أبوظبي بعد دعوة الرّئيس التّونسيّ، المنصف المرزوقي، لإطلاق سراح الرّئيس المصريّ المخطوف محمّد مرسي..!!

دعوةٌ غضبت لها القاهرة، لكن أن تغضب لها عاصمة أخرى وتترجم الغضبَ إلى أفعال دبلوماسية، فهذا مثال (متميّز) جديد سيجد طريقه نحو محاضرات العلوم السّياسية، والدبلوماسية بوجه خاصّ..!!

إنّ مجلّة العربيّ الكويتية العريقة، التّي تأسّست قبل أكثر من نصف قرن، تقول عن نفسها: (مجلّة مصوّرة يكتبها عرب ليقرأها كلّ العرب..)، فكيف سيقرأ كلّ العرب مجلّة دُبَيْ الثّقافية إذا كانت تكتب لطرف واحد من العرب، وتسمح لأصابع السّياسيين بالعبث المباشر بين ثناياها..؟؟

وكأنّ بعض العرب لا يستحقون القراءة من الأساس، أو لا يستحقون الحياة أصلا، لأنّ جهات عربية أخرى وضعت عليهم ختمها، وألصقت بهم صفات معيّنة وطلبت من الجميع أن يغضبوا عليهم ويلعنوهم إلى أبد الآبدين..!!

لكن.. هل يعتزلُ المثقّفُ العربيُّ الكتابة في الشّأن الرّاهن..؟؟

لا ينبغي له ذلك.. وإذا اعتزل واقعَ النّاس حَكَمَ على نفسه بالعيش على قمّة هرم شامخ، فينعم بالكثير من الهواء النقيّ، لكنّه يقضي حياته حبيس أوراقه وأفكاره دون أن يصنع شيئا ذا قيمة لمن حوله..!!

في هذا العدد من دُبَيْ الثّقافية كان الكاتبُ والرّوائيُّ اللّيبيُّ إبراهيم الكوني أكثر توفيقا، في رأيي، من غيره عندما كتب حول الثّورات العربية ولم يعتزل واقع النّاس، لكنّه لم يجنح لهذا الطّرف أو ذاك، ولم يستسلم لتفاصيل الأسماء والأدوار والمواقف والأحزاب المتناحرة، مع أنّه عربيّ وليبيّ، والمؤكّد أنّه يملك رؤيته وقناعاته حول ما يحدث في ليبيا ومصر وتونس وسوريا واليمن.

لقد جمع إبراهيم الكوني دُررًا من الكلام في مقال عَنْوَن له بـ (الثّورة في محكمة الحكمة).. لقد اقتنص اللّحظةَ وأحضرَ الثّورةَ إلى مجلّة ثقافيّة، لكنّه حافظ على لباس الثّقافة ولم يقع في أحابيل السّياسة.

ولأنّ الثّورات العربيّة تعاني تحدّيات كبيرة وتراجعا، ووصل بعضها إلى تلك المرحلة الخطيرة والمؤلمة، كما حدث للثّورات الكبيرة في العالم وهو (أكلُ الثّورة لأبنائها)؛ فقد تعاضدت أكثر الحِكَم التّي أوردها الكونيّ، عن الفلاسفة وأهل الفكر، في رسم صورة قاتمة للثّورات ومآلاتها ربّما لخّصتها كلمات الكوني في المقدّمة حيث قال: (الثّورة حلم رومانسيّ وهي كحلم مخيّبة للآمال..)، وأضاف متحدّثا عن إنسان اليوم: (.. يقف اليوم حائرا إزاء القطبين: الحلم الأبديّ إلى الحرّية من جانب، والمآل الذّي ينتهي إليه هذا الحلم بالتّغيير من جانب ثانٍ)..!!

ويختم الكوني مقتبساته الكثيرة بقولين من متون الهند القديمة، الأوّل: (احترس أن تحيا في بلد لا يحكمه أحد، أو يحكمه الكثيرون، أو تحكمه امرأة، أو يحكمه طفل)، والثّاني: (لحظة نحياها تحت ظلّ القانون، أفضل من حياة مليون سنة بلا قانون).

وربّما ختم الكوني مقاله بهذين القولين متأثرا بالأحداث التّي تجري على السّاحة اللّيبية، ومستويات التّجاذب بين الأطراف السّياسية والعسكرية في ليبيا ما بعد الثورة.. مع أنه كتب المقال قبل حادثة خطف رئيس الوزراء اللّيبيّ علي زيدان، وهي قمّة الهرم في العنف اللّيبيّ، ولعلّها تكون بداية مرحلة التّراجع نحو قاعدة الهرم العريضة، وهي الحوار الجادّ والتّعايش والبحث عن القواسم المشتركة، وما أكثرها.

2013-10-13

ماذا بعد فشل الرّبيع العربيّ..؟!!

حريّة، حريّة، حريّة.. أريد أن أكون حرًّا بالتّمام والكمال مثل البريطانيّ والفرنسيّ والأمريكيّ وحتّى التّركيّ والماليزيّ والجنوب أفريقيّ.. أريد أن أودّع زمنَ الخوف من دقّات مرعبة على الباب قبل الفجر، أريد أن أطلّق الفزعَ من ذكر السّجن والاعتقال ورجل الأمن حتّى بعد الوقوع في الخطأ، لأنّ القانون يكفل لي كرامتي.. أريد أن أرى وجوهًا جديدةً تحكمني كلّ فترة من الزّمن.

هكذا كانت البداية في سوريا، وهكذا أيضا استمرّت أشهرا عديدة دون أن تقترب منها شوائب القتل والقتال ودمار القنابل ودخانها، رغم أنّ المحترفين في صناعة (المستنقعات الأمنية) حاولوا منذ البداية تيسير وصول السّلاح لأيادي الشّباب الغاضب، لتلتهب ألسنة النّيران عالية، وتصل إلى البعيد بعد أن تتأكّد من القضاء التّام على القريب.

وتصلّبَ الطّرفُ الحاكمُ ولم يقدّم أيّ تنازلات حقيقية تبشّر، ولو بعد حين، بدولة ديمقراطية حيث التّداول السّلميّ على السّلطة عبر صناديق انتخابية شفّافة، وحيث التّقهقر التّدريجيّ لتلك الوجوه التّي تصدّرت المشهد السّياسيّ السّوري عقودا طويلة، لتترك المجال للآخر فيقوم بدوره هو أيضا في خدمة الوطن والمواطن، إذا قَبِلْنا طبعا أنّ تلك الشّخصيات المستهلكة، التّي تقف على رأس الهرم، قد قدّمت فعلا للبلاد والعباد شيئا يذكر سوى البيانات والخطابات الرنّانة التّي أدمنت عليها..!!

تَنَاوَشَ الطّرفان ثمّ تقاتلا ثمّ دَخَلاَ في أُتُون معركة ضارية لا تكاد ترحم أحدا، وكان العالمُ جاهزًا لزيادة مساحات التّدخّل السّياسيّ والعسكريّ والاستخباراتيّ، وتحت جميع الأغطية والأقنعة المتوفّرة، والنّتيجة ما نراه اليوم في سوريا من عمليات تدمير وتخريب مستمرّة وجماعات متعدّدة الأشكال والألوان والمشارب، وكلٌّ على الفضائيات يغنّي لسوريا ومستقبلها، ولا يرى أحدا غيره حريصًا على مصلحتها..!!

وللإنصاف لابدّ من الاعتراف بأنّ عددا من المناطق الخاضعة لسيطرة فصائل المعارضة تعيش مستويات مقبولة من الأمن وحضور الإدارة.

لقد تحرّك الشّعبُ في سوريا، أو قِسْمًا منه على الأقلّ، ولم يخطر على باله أنّه ينشد سابع المستحيلات لأنّ المكان والزّمان لا يشفعان له بنيل حرّيته واختيار حكومته، فالبنت المدلّلة لأمريكا والغرب، إسرائيل، لا تقبل جارا قويا ينعم بالدّيمقراطية كما تنعم هي، ويتنفّس شعبه عبيرَ الحرّية صباح مساء.. فعندما تقبل ذلك تكون في موضع الذّي يحفر قبره بيديه..!!

لقد تقاعس حلفاءُ الشّعب السّوريّ، أو جبنوا أمام التّهديدات الأمريكية والإسرائيلية، وهكذا نتابعهم وهم يتابعون بدورهم مسلسل التّسويف والتّأجيل لمؤتمر جنيف في نسخته الثّانية، والكلّ، تقريبا، على يقين بأنّ التّأخير بات مقصودا لذاته، والهدف صار واضحا للعيان وهو الوصول إلى أطلال متناثرة هنا وهناك تُسمّى سوريا، وبعدها فليكن الحكم في أيدي من شاء، فلن يرى ضوء الشّمس قبل سنين طويلة، بعد أن يغرق في ظلمات بحار من المشاكل والمتاعب السّياسية والاجتماعية والاقتصادية..!!

لقد تحالفت قوى دولية وإقليمية على دحرجة سوريا نحو هاوية الحرب الأهلية، فهي قاب قوسين أو أدنى منها.. ومن هذه القوى الولايات المتّحدة الأمريكية وروسيا وإيران وإسرائيل، إضافة إلى تركيا ودول عربية ربّما وجدت نفسها في مواقف لا تُحسد عليها بعد أن لعب السّيد الأمريكيّ لعبة الحرباء مع المعارضة السّورية والدّول الداعمة لها..!!

وهكذا قد يملّ الشّعب السوريّ من وضعه المزري فيحنّ إلى نظام بشّار الأسد بشكله الحالي، بل وأكثر شراسة وتعطّشا للمال والدّم.. فيقبل تناول العلقم بعد أن يعلم حال البديل المتوفّر وأنه أشدّ مرارة وإيلاما.. لكنّ هل يغيّر هذا الأمر من الحقيقة شيئا..؟؟

هل ستخرج علينا المعاجم والموسوعات والمجامع اللّغوية بتعريفات جديدة للدّيمقراطية..؟؟

ثمّ تكتب بكلمات بارزة أنّ مثالها الفريد هو بشّار الأسد حين وَرِثَ الحكم عن أبيه في دولة جمهورية، وتمّ تعديل الدّستور ليكون على مقاسه، من النّاحية العُمْرية، في مدّة نصف ساعة فقط، وهو وقت قد تحتاج إلى ضعفه أيّام الأعياد في دمشق وحلب وأنت تنتظرُ دورَكَ أمام محلّ حلويات مشهور بجودة "الكنافة" التّي يحضرّها لزبائنه..!!

"فاقو".. كما يقال باللّهجة الجزائرية..

لن تعود عقاربُ السّاعة إلى الوراء لأنّها ببساطة تجري إلى الأمام بسرعة غير عادية من خلال هذه الطّفرة الهائلة في وسائل الإعلام والاتّصال التّي مكّنت المواطن العربيّ من معرفة ما يدور حوله، ولن يقبل بعدها الرّزيّة في حريّته وكرامته، حتّى لو صبر بعض الوقت وناور في هذه المرحلة أو تلك.

وغير بعيد عن سوريا تكتب أقلامٌ وتتحدّث فضائياتٌ ويرفع سياسيون ومثقّفون أصواتهم ليقولوا للشّعوب العربية إنّ ما سمّيتموها ثورات أو ربيعا قد فشلت، وأنّ الأمر لا يعدو مؤامرة أمريكية، وحتّى خدعة إسرائيلية ربّما، وهاهو الخريف هو سيّد الموقف في تونس ومصر وليبيا واليمن، ثمّ سوريا المثال الأشدّ وضوحا للفشل..!!

نعم.. قد تسكتُ الشّعوبُ بعضَ الوقت من وقع الصّدمة وهَوْلِها، وقد تنخدع نسبةٌ من العرب بسبب آلة التّخويف الجارفة ممّا حدث في دول الثّورات والرّبيع العربيّ، وقد تقدّرُ النُّخبُ أنّ الزّمنَ غير مناسب بعد أن تَواطَأ الشّرقُ والغربُ على مصادرة حقوقنا في الحرّية والدّيمقراطية..!!

لكن.. هل ستسلّم الشّعوبُ بالأمر الواقع وتقبله بقناعة كاملة، وتؤمن إيمانا لا يقترب منه الشّك أنّها أقلّ مِنْ أن تُحْكِمَ نفسَها بنفسِها على غرار شعوب أخرى قريبة وبعيدة..؟؟!!

وأخيرا.. هناك مقولة خطيرة تهمّ كلّ الذّين يخافون على كراسيهم، وهي: "من زرع الامتيازات عليه أن يحصد ثورة".. نعم هذا هو الحصاد الطّبيعيّ..!!

إنّها معادلة سهلة وواضحة: ابتعدوا عن الامتيازات فلن تفكّر الشّعوب في الثّورات.. وبدل هذا الرّبيع الذّي صنعته أمريكا، كما تزعمون.. اصنعوا بأنفسكم ربيعًا ناصع البياض يحقّق العدالة والحرّية والدّيمقراطية.

2013-12-01

خاتمة

وفي الأخير..

هل تحقّق ما عبرّتُ عنه ودندنتُ حوله..؟؟؟

وأسئلة أخرى قد تتسلّلُ إلى عقل القارئ الكريم..

لستُ متأكدا، ويبدو أنّني لا أملك جوابا شافيًا كافيًا...!!

المؤكّد فقط أنّني لا أشعر بذرّة ندم واحدة على التّغريد مع الشّعوب وحقوقها في الحرّية والكرامة والعدالة الاجتماعية..

وأكثر من ذلك: مستعدّ للتّغريد من جديد إذا حانت الفرصةُ المناسبة..

مستعدٌّ للدّندنة حول الحرّيات والحقوق ونَبْذِ (الآلهة البشريّة) التّي تجثمُ على صدور شعوبنا ودولنا..

وحتّى الإعجاب الحذر بالدّيمقراطيات الغربية لا أرى فيه أيّ غضاضة..

إنّها تجاربٌ انسانيّةٌ يمكن الاستفادةَ منها حتّى وإن بدت فاشلة هنا أو هناك..

وحتّى بعد انكشاف أجزاءٍ من عورتها خلال أزمة أو لغز كورونا.. أو أحداث الانتخابات الأمريكية نهاية عام 2020، وتنصيب الرّئيس جوزيف بايدن في العشرين من جانفي، يناير 2021، وما شهدته الفترةُ الفاصلةُ بين يوم الانتخاب والتّنصيب من مشادّات وتجاذبات ساهم فيها الرّئيس المثير للجدل دونالد ترامب، وبلغت أشدّها باقتحام مبنى الكونجرس، الكابيتول في السّادس من جانفي.

من الصّعب إنكارُ تجربةٍ إنسانيةٍ قامت على عدد من القيم السّامية: الحريّة والعدالة واحترام حقوق الإنسان.. حتّى وإن انحرفت، أو انحرف القائمون عليها والمتفاعلون معها في منعطف زمنيّ ما.. وهذا ما حدث: أثّرت شعبويّةُ الرّئيس الأمريكيّ السّابق دونالد ترامب على سمعة الدّيمقراطية الأمريكية.

لم أندم على مدح تجربة إنسانية في زمن وشروط محددّة، حتّى لو انسلخ منها صاحبُها يومًا بشكل أو بآخر.. فمن دواعي الغبطة عندي وصولُ الإنسان، أيُّ إنسانٍ، إلى إنجازٍ ونجاحٍ يحقّقُ شيئًا من عمارة الأرض المنشودة.

نحن شركاءُ في المسيرة الإنسانية، والتّجاربُ في هذا السّياق ملكٌ مشاعٌ للجميع.. للعبرة والاستفادة والتّطوير والعودة إلى الذّات.

الوعيُ الإنسانيُّ تراكميّ، وسيظلّ كذلك إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها.

إنّ أحداث الثّورات، الانتفاضات، العربيّة دورةٌ محدودةٌ من دورات الزّمان، وهي قصيرة مقارنة بأعمار الأمم..

إنّها بعض سنوات فقط، لأنّ تجارب الأمم تتحدّث عن عقود، بل قرون، من الزّمن دفعت الجميعَ إلى مرحلة الأفكار الحرّة، وظهور القناعات والقيم الجديدة التّي سجّلت حضورَها بقوة وثبات في دنيا النّاس.

إذن: مهما طال زمنُ الاستبداد والتّخويف والتّخوين والتّزييف سيأتي الزّمن الأجمل.. لماذا..؟؟

لأنّنا، باختصار شديد، نستحقّ أن نعيش بكرامة مثل كثير من الأمم القريبة منّا والبعيدة.. ولأنّنا نملكُ من كنوز الماضي وقدرات الحاضر ما يضيء لنا طريق المستقبل.

ما زلتُ أقولُ وأكرّر: من حقّ فلان أو علاّن نَقْدَ تحرّكات الشّعوب وثوراتها وانتفاضاتها ونكساتها والمؤامرة التّي وقعت فيها.

بالغْ في جلد الشّعوب إلى الحدّ الذّي يرضي غرورَك.. لكن، وبالموازاة تحدّث أيها (الشّجاع) عن الحكومات وفسادها واستبدادها وتراكماتها التّي صنعت كمًا هائلا من الإحباطات أخرج الشّبابَ إلى الساحات دون وعي كافٍ أحيانا، ودون زادٍ مناسبٍ من التّحضير والتّخطيط في أحيانٍ أخرى.

تحدّث عن النّخب المستقيلة التي تركت الشّعوب تقود نفسَها فتقعُ في أحابيل الاستبداد من جهة والقوى الأجنبية المتربّصة من جهة ثانية، والنّتيجة هذه المآسي والمصائب.

تحدّث عن نفسك، ومن كان معك أو كنتَ معهم، عندما أكلتهم على موائد الاستبداد والفساد بينما تعاني الشّعوب الأمَرّيْن... لم تحملوا سوطًا وتجلدوا أبناء الشّعب، ولم تستلّوا قلمًا وتوقّعوا اتفاقيات خزيٍ وعارٍ وخيانةٍ وبيعٍ للأوطان اقتصاديا وثقافيا، ولم تغرفوا من خزائن المال

العام بشكل مباشر ورهيب ووقح.. لكنّكم سكتّم وزيّنتهم لذلك الرّهط البائس الأفعالَ والأقوالَ وساهمتهم في رسم الصورة الزّائفة أمام الشّعوب.

لقد عانى الآلافُ في السّجون.. وسُرِقَت الأحلامُ.. وانتُهِكَت الأعراضُ.. ورأى النّاسُ السّفهاءَ يحكمون ويُستوزَرون ويتقدّمون المواكب والمجالس ويزدحمون على شاشات القنوات التّلفزيونية.

نفذت اسهمُ الكِنَانَة.. لم يتركوا للشّعوب شيئًا في هذا العالم المفتوح..

على كلّ حال:

هناك نكتة أو طرفة تُروى عن (شو إن لاي) الوزير الأوّل الصينيّ في عهد (ماو تسي تونغ)، فقد سُئل عن رأيه في الثّورة الفرنسية (1789-1799) فردّ، وكان الكلامُ في منتصف القرن العشرين: (قد يكونُ من المبكّر إبداء رأيٍ نهائيّ).

فتحية لكلّ الأقلام والأصوات الصّادقة التّي تحلّلُ نتائجَ ومآلات ثورات الرّبيع العربيّ..

وللمتعجّلين منهم، وغيرهم من المتهافتين على التّخوين وما شابه: ما زال الوقتُ مبكرًا جدًا للحكم على هذه الثّورات..

تعلّموا من الحكيم الصّينيّ (شو إن لاي)..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	04
كلمةٌ لا بدّ منها	05
مقدّمة: إنّها دَنْدَنَة.. إنّها نَغَـم	06
المحور الأوّل: الثّورة التّونسيّة المجيدة، 17 ديسمبر / ثورة 25 يناير، مصر / ثورة 17 فبراير، ليبيا	13
العودة إلى الأحضان الدّافئة	16
الفهم ثمّ الفهم قبل فوات الأوان	19
أمّ الجرائم	22
الهجرة نحو الشّعوب	25
صدّقوا الحكيم مبارك..!!	28
التّحالف مع الشّيطان	31
لو لم تكن موجودة لأوجدوها	34
الرّقم والبدلة الزّرقاء..!!	37
مصر.. حقيقة الضّجيج	40
المحور الثّاني: في الثّورة السّورية.. الجرح النّازف في بلاد الشّام	43
الدّكتور ورياضة حمل الأثقال	46
تأخيرٌ غير مبرّر	49
سوريا ليست تونس ومصر..!!	52

ما أشبه اللّيلة بالبارحة	55
خِيلِي مَمْنُون	58
دُو بارَة.. خِيلِي مَمْنُون	61
المِلْكية الإقليميّة	64
الشّعب يريد.. والآخر يستفيد	67
العدنانيّون في طهران وموسكو..!!	70
سوريا.. المعادلة الجديدة	73
مَن السّبب..؟؟	76
الأسد إلى الأبد	79
المحور الثّالث: العرب والاستبداد والفساد	83
طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد	86
جزيرة الملوك..!!	89
قنبلة فوق الجزيرة..!!	92
بلا فتن داخليّة أو مؤامرات خارجيّة	95
ما أسهل الحل..!!	98
القابليّة للاستبداد	101
التّعاطفُ معهم سلوكٌ منقرض	104
المحور الرّابع: لا في العِير ولا في النّفير.. عربٌ خارج مجال التّغطية	107
فات الأوان وولّى ذلك الزّمن	110
سقوط حرّ لجميع المبرّرات	113

الموتى لا يكذبون..!!	116
رغم أنوفنا جميعا	119
العرب البائدة	122
الطّريق الثّالث	125
كفاية.. كفاية	128
القَشّةُ التّي قَصَمَت ظَهْرَ البَعِير	131
خيارٌ واحدٌ فقط..!!	134
المحور الخامس: الرّبيع العربيّ.. من أين..؟؟ وإلى أين؟؟	137
القائد الحقيقيّ للثّورات العربيّة	140
مرحلة ما بعد الدّكتاتوريّات	143
الإخوان والنّهضة.. أمهلوهم ثمّ أسقطوهم	146
إبراهيم الكوني.. ودُبَيْ الثّقافيّة	149
ماذا بعد فشل الرّبيع العربيّ..؟!!	152
خاتمة	155

صدر للمؤلّف:

- قضايا سُوفيّة
- الفرعونيّة.. تجليّات معاصرة
- دَنْدَنَات في الإحساس والتّفاؤل والتّغيير
- دَنْدَنَات ديمقراطيّة
- ذكريات ومواقف

في انتظار الطّبع:

- 2010.. خَوَاطِر سياسيّة
- قضايا دوليّة
- قضايا عربيّة
- قضايا وطنيّة

تحت الاعداد:

- ومضات تنمويّة
- من الجَدَيْدَة والرَّدَيِّف إلى الألزاس واللُّورين.. مجموعة قصصيّة
- النُّوَّار.. مجموعة قصصيّة
- أربع عواصم.. يوميّات وذكريات

Innocent Skirmishes

REVOLUTIONARY HUMS

By

Tahir Amara Ladghem

SAMI

Printing & Publishing & Distributing

EL-OUED, ALGERIA

First edition 2021 AD / 1443 AH

REVOLUTIONARY HUMS

Tahir Amara Ladghem

الشّعوبُ تحرّكت وانتفضت...

هل فشلت..؟ هل كان النّجاحُ جزئيًا..؟ هل تأخّرت الثّمار..؟

هذا ما دَنْدَنْتُ حولَه في مقالات هذا الكتاب..

.....

المهمُّ أنّها عرّت الاستبدادَ ونُخَبَه، وعرّت الغربَ الرّسميَّ الذّي فضّلَ التّنكّرَ لقِيَمه الدّيمقراطيّة، ومن ثمّ انحازَ إلى فريقِ الاستبدادِ فهو الكفيلُ بتحقيق مصالِحه التّي تَرْشَحُ أنانيّةً ونفعيّةً مقزّزة..!!!

التّعاملُ مع فردٍ مستبدٍّ أكثرُ نفعًا من حكوماتٍ منتخبةٍ خَلْفَها شعوبٌ تطالبُ بكشف حسابٍ عند كلّ موعدٍ انتخابيّ.. هكذا يفكّرُ سَاسَةُ أوروبا وأمريكا.

صَوْتُ الأحرار
sawt AL-AHRAR
يومية وطنية اخبارية
www.sawt-alahrar.net
sawtalahrar@gmail.com

ISBN:978-9931-798-60-6
9789931798606

للطباعة والنشر والتوزيع
سامي

تصميم